الجزء الثاني

رئاستا نيكسون وفورد

الفصل

3

أهداف متعارضة: نيكسون، وروجرز، وكيسينجر: 1969 ـ 1972

أقل ما يمكن أن يقال عن ريتشارد م. نيكسون أنَّه لم يكن رئيساً عادياً. وفي الوقت الذي استقال فيه، مُجلَّلاً بالخذلان، في 9 آب/ أغسطس 1974، تلاشى التأييد المحلي له تماماً. ففضيحة ووترغيت التي تكشفت تفاصيلها بصورة حادة في الصحف، والكونغرس، وأشرطة تسجيل محادثات الرئيس قد أماطت اللثام عن شخص تحيط به الشكوك في البيت الأَبيض، لجأ إِلىٰ الكذب، وكان انتقامياً وعاجزاً بشكل مذهل عن اتخاذ أي قرار، ومشوَّشاً عندما يتطلَّب الأمر معالجة قضية سياسية مهمَّة. وقد وجد كثير من الأَمريكيين والأجانب على حد سواء، صعوبة في التوفيق بين هذه الصورة وصورة ريتشارد نيكسون الذي أُعيد انتخابه بأغلبية كاسحة عام 1972 لولاية ثانية، والرجل الذي أكسبته إنجازاته في ميدان السياسة الخارجيَّة، تأييداً يُحسد عليه من كثير من خصومه السابقين.

هذان الوجهان للرئيس نيكسون هما جزء من الشخصية المعقَّدة والتعيسة، ولكن ما يعنينا في المقام الأول هو نيكسون الاستراتيجي في السياسة الخارجيَّة. فقد كانت خبرة نيكسون في الشؤون الدولية هي أقوى أرصدته، كما كانت العلاقات الخارجيَّة الميدان الأكثر أهمية في عمله الرئاسي. وعندما كان نيكسون نائباً للرئيس أيزنهاور لمدة ثماني سنوات، كان موقعه هامشياً بالنسبة لقرارات السياسة الخارجيَّة المهمة التي اتّخذت في الخمسينات. ولكنه اكتسب

شهرة بوصفه عدواً صارماً للشيوعيَّة، ومدافعاً عن دور دولي قوي للولايات المتحدة.

وخلال الفترة التي كان فيها بعيداً عن اتخاذ القرارات السياسية المهمَّة، من عام 1961 وحتى 1968، سافر إلىٰ دول كثيرة وقابل كثيراً من رؤساء الدول. وصادف أن كان في المغرب أثناء حرب حزيران/ يونيو 1967، فبعث ببرقية إلىٰ وزير الخارجيَّة آنذاك دين راسك، تعطي لمحة عن آرائه التي لم تتأثَّر بآراء أولئك المستشارين المتعاقبين في تلك اللحظة:

«آمل مع اندلاع الحرب العربية ـ الإسرائيلية أن تستخدم حكومتنا كل نفوذ ممكن، لتجعل جميع الدول الكبرى تضطلع بمسؤوليتها لحماية السَّلام. دعونا نوضح أن مفتاح السَّلام في الشرق الأَوسط هو الآن في موسكو، وأن الاتّحاد السوفييتي قد عرقل حتى الآن جهود السَّلام في الأُمم المتَّحدة المتعددة الأطراف. كما آمل أيضاً في مراجعتنا لتصرفاتنا في هذا الموقف، أن نتذكَّر بأن مشاعر العرب جميعاً قوية تجاه إسرائيل، فهناك كثيرون لا يتفقون مع عبد الناصر، وأطماعه بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة ولزعامة العالم العربي.

وما أخشاه في الظروف الحالية أننا إذا لم نبرهن على أن تمسّكنا بالسَّلام هو سلام غير متحيِّز، فإننا نعطي بذلك الاتّحاد السوفييتي فرصة لا نظير لها، كي يوسِّع نفوذه في العالم العربي، الأمر الذي يضر بالمصالح الأساسية للولايات المتحدة والعالم الحرّ»[1].

تركت هذه الرحلات إلىٰ الشرق الأَوسط انطباعاً عند نيكسون، إذ أنه يُكثر من الحديث عنها في السنوات التالية. وفي المناقشات حول المنطقة كان

(1) مكتبة ليندون جونسون، 5 حزيران/ يونيو 1967 (لم تعد من المصنَّفات السرِّيَّة في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1982).

يشير إلىٰ محادثاته مع الزعماء الإسرائيليين والمصريين والسعوديين، مؤكِّداً معرفته الشخصية بأشخاص مهمين وببلادهم. وقد استمد نيكسون خبرته في الشؤون الخارجيَّة، أياً كان شأنها، من خلال مناقشاته وخبرته الميدانية بالدرجة الأولى. وكان قليل الصبر بالنسبة للدراسات الأكاديمية أَو المذكرات المسهبة. كان انطوائياً إلىٰ حد كبير، وقلَّما كان يسعى إلىٰ لقاء الآخرين لمناقشة آرائه معهم.

ولم يكن نيكسون يبدي رغبة قوية، على خلاف جونسون، في الانغماس في الأحداث والمعلومات اليومية. وكان يتباهى بعزلته وبقدرته التحليليَّة في رؤيته للمشكلات من خلال سياقها الاستراتيجي الواسع. كما كان معجباً بالقوَّة والصرامة، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أن السياسة الخارجيَّة ينبغي أن تُرسم في السِّرّ، وبحد أدنى من مساهمات الكونغرس والرأي العام فحسب، وكان يفاخر بأنَّه لا يدين للوبي الموالي لإسرائيل بأي فضل، حيث لم يصوِّت له إلاَّ قلة من اليهود[2].

فريق نيكسون

كان من الواضح بدايةً أن الرئيس نيكسون، يميل إلىٰ اتخاذ القرارات الأساسية في السياسة الخارجيَّة. ومن أجل أن يضمن السيطرة على جهاز السياسة الخارجيَّة البيروقراطي الضخم ـ والذي لم يكن يثق به لأنه كان قلعة للديمقراطيين ـ فقد عزم على إعادة تنشيط نظام «مجلس الأَمن القومي»[3]. وقد

(2) Richard M. Nixon, RN: The Memoirs of Richard Nixon (Grosset and Dunlap 1978), P. 435 حصل نيكسون في انتخابات عام 1968 على نحو 17 في المائة من أصوات اليهود، بالمقارنة بحوالي 80 في المائة حصل عليها هيوبرت همفري.

(3) للوقوف على صورة عن مجلس الأَمن القومي في عهد نيكسون، انظر: I. M. Destler, Presidents, Bureaucrats and Foreign Policy: The Politics of Organizational Reform (Princeton University Press, 1972), PP. 121-27.

شهد هذا المجلس الخاص بنيكسون تطوراً كبيراً على مر السنين، وكان المقصود منه في البداية تحقيق غرضين هما: تقديم بدائل أَو خيارات سياسية حقيقية للرئيس، وتوعية الجهاز البيروقراطي بالأفكار الجديدة لسياسة نيكسون الخارجية. ومن أجل تحقيق هذين الهدفين طلب نيكسون عدداً لا مثيل له من الدراسات السياسية في الأشهر القليلة الأولى من ولايته، معظمها في صورة «مذكرات لدراسة الأَمن القومي» (NSSM)، تتم مناقشتها من قِبل «مجموعة مراجعة رفيعة المستوى»[4]، ثم تحال إِلىٰ مجلس الأَمن القومي بكامل أعضائه لاتخاذ قرار بشأنها، ويتم بعد ذلك إصدار مذكرة بقرار صادر عن المجلس. وكان يُشرف على هذا النظام المعقد، الأستاذ الجامعي السابق هنري أ. كيسينجر، مستشار الرئيس نيكسون لشؤون الأَمن القومي.

كان كيسينجر محلِّلاً معروفاً جيداً في ميدان السياسة الخارجيَّة. وقد اكتسب شهرته الأولى عندما نشر عام 1957 كتابه «الأسلحة النووية والسياسة الخارجيَّة» والذي كان له تأثيره الكبير. وأصبح بعد ذلك مستشاراً لكل من إِدارتي كينيدي وجونسون، ولكن أوثق صلاته كانت مع راعيه الأول، نيلسون روكفلر. وكان قبول كيسينجر لمنصب مستشار الأَمن القومي لنيكسون أمراً غير متوقع، وكذلك كان عرض نيكسون. فالرجلان على ما يبدو كانا مختلفين اختلافاً جوهرياً في مزاجيهما وشخصيتيهما، ولكنهما لم يلبثا أن اكتشفا توافقاً فكرياً كبيراً فيما بينهما. إذ كان نيكسون يتصرَّف بالسليقة والحزم، فيما كان كيسينجر تحليلياً وذا دهاء. ومع هذا فقد كانت آراؤهما متماثلة إزاء الدور الدولي للولايات المتحدة، والحاجة إِلىٰ المزاوجة ما بين القوة والديبلوماسية، والربط الوثيق ما بين السياستين الداخلية والخارجيَّة، وخطر الحرب النووية.

وخلال فترة وجيزة كان فريق نيكسون ـ كيسينجر يعمل بسلاسة، وارتفع الأخير من موقع مغمور في قبو البيت الأَبيض، إِلىٰ مكتب يقع في الطابق الأول

(4) كان يطلق عليها أصلاً اسم «المجموعة المشتركة بين الوزارات».

من الجناح الغربي[5]. وكان كلا الرجلين يتمتع بحس عميق تجاه رموز القوَّة وحقائقها. ومع هذا فقد تعمّد نيكسون في السنة ونصف السنة من بداية حكمه، أن يبعد كيسينجر عن الهيمنة على السياسة الشرق أَوسطية، الأمر الذي يعود جزئياً إِلىٰ أصله اليهودي[6].

عيّن نيكسون في منصب وزير الخارجيَّة صديقه الشخصي الحميم وليام ب. روجرز، وهو محام عمل مدعياً عاماً في مكتب أيزنهاور. ولم يكن يتمتع بخبرة خاصة في السياسة الخارجيَّة، كما لم يكن يتمتع بشخصية قوية آمرة. إِلاَّ أنه كان لطيف المعشر، ووقوراً. ولعل هذه الصفات كانت كافية بالنسبة للدور المتواضع الذي اختاره له نيكسون. ومع هذا فقد قرَّر الأَخير أن يعهد إليه بملف الشرق الأَوسط، ربما اعتقاداً منه أن النجاح في هذا المجال غير متوقع، وأن الخلافات الداخلية حوله، يمكن أن تنصب على وزارة الخارجيَّة بدلاً من البيت الأَبيض[7].

كان مساعد وزير الخارجيَّة الجديد لشؤون الشرق الأدنى، وجنوب آسيا شخصية موضع خلاف. إذ أن جوزيف سيسكو، الذي كان قبل ذلك مساعداً لوزير الخارجيَّة لشؤون المنظمات الدولية ينتمي إِلىٰ الحزب

---

(5) كان قوام العاملين مع كيسينجر عدداً من المساعدين الشخصيين المقرَّبين، وأيضاً من المتخصصين في مجالات جغرافية ووظيفيَّة معينة. أما الذين شاركوا في سياسة الشرق الأَوسط فمنهم نائبه ألكسندر هيج، ومساعدان خاصان هما بيتر رودمان وونستون لورد، وكبير المتخصصين في شؤون الشرق الأَوسط هارولد سوندرز الذي كان من العاملين في مجلس الأَمن القومي منذ عهد إِدارة كينيدي.

(6) Nixon, RN, P. 466 أعرب نيكسون عن قلقه من أن كيسينجر سيصادف صعوبة في العمل مع العرب لكونه من أصل يهودي، وقال هنري كيسينجر في كتابه White House Years (Little, Brown, 1979), إن نيكسون «شك» في أن أصلي اليهودي قد يحدو بي إِلىٰ الميل ميلاً شديداً نحو إِسرائيل».

(7) Kissinger, White House Years, P. 348 «كان نيكسون يعتقد أن أي سياسة نشيطة مآلها الفشل، يضاف إِلىٰ هذا أنَّها ستنطوي بكل تأكيد تقريباً على إثارة نقمة مؤيدي إِسرائيل. ومن هنا ارتأى أن من المفيد إبقاء البيت الأبيض بعيداً بقدر الإمكان عن الخط المباشر للنار».

الديمقراطي، ولم يسبق له أن عمل فيما وراء البحار، في حياته المهنية الطويلة في وزارة الخارجيَّة. ومعلوماته عن الشرق الأَوسط، استقاها من السنوات التي خدمها في واشنطن. كان شخصية بيروقراطية كاملة؛ إذ كان يعرف مداخل وزارة الخارجيَّة ومخارجها، كما كان شخصية قيادية، ومتحدّثاً لبقاً وراسم خطط تاكتيكية. وكان يلازمه في العمل بشكل وثيق ألفريد أثيرتون الابن، الذي شغل أولاً منصب رئيس مكتب إسرائيل والشؤون العربية ـ الإسرائيلية، ثم عمل نائباً لمساعد وزير الخارجيَّة لشؤون الشرق الأدنى. وكان أثرتون مثالاً للمتابعة والخبرة والمهارة الحرفية، ويتحلَّى بالبرودة حين يجد أن سيسكو ثائراً.

كان كلاهما يشكِّلان ثنائياً متمكناً في دوائر صنع السياسة الشرق أَوسطية[8].

سياسة نيكسون الخارجيَّة

سرعان ما وضع نيكسون، بمساعدة كيسينجر وبعض أركان وزارة الخارجيَّة، قاعدة للأولويات والتوجيهات الخاصة بسياسة أَمريكا الخارجيَّة. وكان بعضها يمثِّل خروجاً عن السياسات المألوفة، وبعضها الآخر يعكس الاستمرارية وردود الفعل التقليدية للمشكلات المزمنة. ولم يكن ثمة مخرج من أن تتصدر ڤيتنام جدول أعمال نيكسون في ميدان السياسة الخارجيَّة. وكان الشقاق الداخلي حول ڤيتنام، قد أطاح بفرص إعادة انتخاب جونسون وتسبَّب في أزمة ثقة، وأزمة ضمير حادة داخل الولايات المتحدة. وكان نيكسون بدون شك أقل انخداعاً من جونسون بفرص «النصر» في ڤيتنام، ولكن في الوقت

(8) في تلك الفترة كان هناك مديران آخران في المكتب لهما نفوذ في تشكيل سياسة الشرق الأَوسط هما: ريتشارد باركر المسؤول عن الشؤون المصرية، وتالكوت سيلي مدير مكتب شؤون الجمهوريات العربية، وهي تشمل الأردن ولبنان وسوريا والعراق. كما شارك نائب مساعد وزير الخارجيَّة رودجر ديفيز في معظم المداولات الخاصة بالسياسة في تلك الفترة.

نفسه كان يعارض بشدة انسحاباً مفاجئاً للقوّات الأَمريكيَّة[9].

وبعيداً عن ڤيتنام كان نيكسون وكيسينجر، معنيين بالدرجة الأولى بالدول الكبرى، وخاصة الاتّحاد السوڤييتي. وكانت مخاطر الحرب النووية أكثر ما يشغل بال الرجلين، لذا كان كلاهما مأخوذاً بإمكانية إقامة علاقة جديدة مع الاتّحاد السوڤييتي، تساعد على توفير استقرار عالمي وتقليص مخاطر المواجهة. كما كانا مستعدين لتجاوز المنافسة الأيديولوجية الخاصة بالحرب الباردة، وإقامة روابط مع الخصوم تستند إلىٰ المصالح المشتركة.

اشتملت استراتيجية نيكسون لإعادة هيكلة العلاقات بين الدول العظمى على الصِّين أيضاً. كان الاهتمام بالصين ضئيلاً في السنتين الأوليين من ولاية نيكسون، ولكن من الواضح، وبالعودة إلىٰ الماضي، إن الرئيس وكيسينجر كانا يضعان أرضية لانفتاح مثير على بكين. وكان نيكسون يرى أن من شأن الصلة الأَمريكيَّة ـ الصينية، بالإضافة إلىٰ مزايا استعادتها بعد جيل من العداء، أن يكون لها تأثير يدفع السياسة الخارجيَّة السوڤييتية نحو الاعتدال. وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن تحسين الروابط مع كل من موسكو وبكين، قد يساعد على تحقيق تسوية في ڤيتنام، ويضمن أن يكون عصر ما بعد ڤيتنام في آسيا خالياً من النِّزاع نسبياً. وبالتالي فقد أصبحت ڤيتنام والاتحاد السوڤييتي والصين، مرتبطة فيما بينها بوصفها تمثل أولوية اهتمامات إدارة نيكسون. ومن المهم أن نعرف أن العلاقات مع كل من هذه الدول، باتت تدار من البيت الأَبيض على وجه

(9) قبل تعيين كيسينجر في منصبه في البيت الأبيض، كان قد حدَّد استراتيجية وسط الطريق لاتباعها في المفاوضات، وفي فضّ اشتباك القوات الأَمريكيَّة في فيتنام. فقد أعرب في مقال نُشر في كانون الثاني/ يناير 1969 عن همّ كان يستحوذ على إدارة نيكسون طوال فترتها الأولى «إن المناط الآن هو الثقة في الوعود الأَمريكيَّة. وأياً كان العرف الدارج في السخرية من عبارات مثل «المصداقية» و«الهيبة» فما هذه العبارات بألفاظ جوفاء فالأمم الأخرى تستطيع توجيه تصرفاتها بما يتواءم مع تصرفاتنا إن هي استطاعت فقط أن تعتمد على مدى ثباتنا». انـظـر: «The Viet Nam Negotiations,» Foreign Affairs, vol. 47 (January 1969), PP. 211-34.

الحصر تقريباً، فالرئيس يعطي التوجيه العام، فيما يقوم كيسينجر وأركان مكتبه، بوضع تفاصيل السياسات الجديدة ويتابعون تنفيذها.

ثمة موضوع آخر يحتل الأولوية، وهو الشرق الأَوسط، تُرك لوزارة الخارجيَّة التعامل معه. كان يُنظر إلىٰ النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي بصورة عامة على أنه محفوف بالمخاطر، وإن كان موضوعاً معقداً وربما أقل إلحاحاً من مهمات أخرى تواجه الإِدارة. وقد تحقّق في عهد جونسون، كما هو معروف، شيء من الزخم كان من الممكن إجراء بعض التعديل السياسي حوله. وكانت وزارة الخارجيَّة تتوق إلىٰ الاضطلاع بدور قيادي، كما كان بوسعها أن تستند إلىٰ خبرة عريضة. ومن هنا فإن نيكسون، الذي كان لديه بعض الشكوك حول احتمال إنجاز نتائج فورية، قد فوَّض وزارة الخارجيَّة بتطوير ومتابعة سياسة أَمريكيَّة جديدة تجاه النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي. فإن نجحت هذه السياسة تحقَّقت المصداقية للجميع، وإن أخفقت سينجو نيكسون وكيسينجر من الملامة نسبياً.

ويبدو أن آراء نيكسون حول الشرق الأَوسط، تجمع ما بين نزوع شديد إلىٰ مواجهة السوفييت، واعتقاد راسخ بأن الولايات المتحدة، تستطيع أن تنافس موسكو على أفضل وجه، عن طريق «عدم التحيز» في النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي. وكان قلق نيكسون من السوفييت شبيه بموقف كيسينجر، ولكن «عدم تحيّزه» كان أقرب إلىٰ الموقف التقليدي لوزارة الخارجيَّة. وخلاصة القول إنه جسَّد في مخيلته النموذجين المتنافسين، بشأن أفضل السُّبل لمعالجة النزاع العربي ـ الإِسرائيلي. وما بدا أشبه بمعركة عنيفة بين جونسون وروجرز كان يمثِّل بدوره التناقض الذي لم يجد له حلاً، والذي كان يدور في عقل نيكسون[10].

---

(10) يتضمَّن كتاب كيسينجر Kissinger, White House Years, PP. 562-64 أوضح تقييم أجراه للاختلافات بين آرائه الخاصة بشأن الشرق الأَوسط وآراء نيكسون. وأبرزها أن نيكسون =

وعلى النقيض من ذلك كان لدى كيسينجر آراء متطورة، إن لم تكن حسنة الإعداد، حول الشرق الأَوسط. لم يكن الشرق الأَوسط جزءاً من العالم الذي عرفه جيداً. وكان يميل إلىٰ اعتبار قضايا الشرق الأَوسط واقعة، في نطاق المنافسة العريضة بين الولايات المتحدة والسوفييت. ولعل آراءه قد تبلورت في فترة أزمة السويس، عندما استخلص أن سياسة أيزنهاور في وقف التحرّك البريطاني ـ الفرنسي ضد عبد الناصر، كانت سياسة سيئة التوجيه. فقد اعتقد آنذاك أنه لا ينبغي إضعاف الأصدقاء، ومساعدة الخصوم الذين يعتمدون على تأييد السوفييت[11]. ودفعت حقائق عام 1969 كيسينجر إلىٰ أن يساند إسرائيل بقوة إلىٰ أن يحين الوقت الذي يقرِّر فيه العرب الابتعاد عن موسكو.

كان الربط، هو المفهوم المفضل لدى الثنائي نيكسون ـ كيسينجر. وكان هذا يعني ألاّ يجري التفاوض مع موسكو، حول قضايا بمعزل عن قضايا أُخرى. وبدلاً من ذلك ينبغي على الولايات المتحدة، أن تستهدف في محادثاتها مع الاتّحاد السوفييتي، تسوية شاملة للقضايا المطروحة. وينبغي أن يتحقَّق تقدّم على مسرح كل من ڤيتنام، والحدّ من الأَسلحة الاستراتيجيَّة، والشرق الأَوسط. والمفاوضات الجارية في وقت واحد حول جميع هذه القضايا، سوف تعني إمكان تحقيق تسويات؛ مما يُضفي مرونة وتقليصاً للخلافات في المفاوضات. فالتنازل السوفييتي في ڤيتنام، يمكن أن يترافق بتحرّك أَمريكي في الشرق الأَوسط. وقد يكون هذا سليماً من الناحية المنطقيَّة، ولكنه من الناحية العمليَّة نادراً ما يتحقَّق. ومع هذا ظلّ مفهوم الربط أحد المفاهيم الأساسيّة لسياسة نيكسون الخارجيَّة.

أضحت المفاوضات مبدأً آخر في دبلوماسيَّة نيكسون. وكان كلّ من

= كان يعتقد أن السوفييت يعزّزون موقفهم في المنطقة في أعقاب حرب حزيران/ يونيو 1967 وكان كيسينجر يعتقد بأن موقفهم مقضي عليه طالما تم الإبقاء على إسرائيل قوية، وتكرر إظهار عجز السوفييت عن تلبية مطالب العرب.

(11) Kissinger, White House Years, P. 347.

نيكسون وكيسينجر متوافقين في الرأي، بأن القوة والدبلوماسيَّة ينبغي أن يسيرا جنباً إلىٰ جنب، وهو ما يعني أن المفاوضات مع الخصوم، قد تترافق مع التهديدات، أَو الاستخدام الفعلي للقوة العسكرية. وكان كيسينجر بشكل خاص مغرماً بعملية المفاوضات، وقد برهن على أنَّه مفاوض ناجح بصورة مدهشة. وبعد تولّي نيكسون لمنصبه بفترة قصيرة، جرى البدء أَو الإسراع بالمفاوضات حول حلقة واسعة من القضايا ـ الشرق الأَوسط، ڤيتنام، الصين، الأَسلحة الاستراتيجية.

كان الهدف من المفاوضات ـ بلغة نيكسون وكيسينجر ـ إيجاد «هيكل للسَّلام» تستند مقوماته الأساسية على «الانفراج» الأَمريكي ـ السوڤييتي، والحد من التسلح، وأخيراً تطبيع العلاقات الأَمريكيَّة ـ الصينية. وينبغي أن تتحقق هذه المقومات دون الإساءة إلىٰ الحلفاء التقليديين ـ الشركاء في حلف «الناتو» واليابان ـ وبدون اهتمام كبير بالعالم الثالث، حيث يستفاد من الانفراج في الحد من المخاطر على السَّلام العالمي والكامنة في النزاعات المحلية.

من أجل متابعة هذه السياسة الخارجيَّة الطموحة، في وقت كانت تجري فيه استفاقة شعبية واسعة، سعى الرئيس نيكسون للاستجابة إلىٰ المطلب الداعي لعدم اضطلاع أَمريكا بعد الآن بدور الشرطي العالمي، مع تفادي العزلة المفرطة في نفس الوقت. وهذا الموقف المتزامن بصورة دقيقة، في العلاقات الدولية، هو ما بات يُعرف باسم «مبدأ نيكسون»، والتي كانت من مظاهره سياسة «الڤتنمة» ـ أي التدرج في فض اشتباك القوات المقاتلة في ڤيتنام، مترافقاً مع تقديم درجات عالية من المساعدة لنظام سايغون، والبحث بدأب عن تسوية سياسية[12].

(12) لخص الرئيس «مبدأ نيكسون» خلال مؤتمر صحفي عقد في جوام في 25 تموز/ يوليو 1969 وأول بيان عملي لسياسة «الفتنمة» هذه أعلنه نيكسون في خطبة ألقاها في 3 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1969.

وكان أمل نيكسون الكبير في فترة رئاسته الأولى، أن يكون قادراً على إعادة خلق إجماع محلي في الآراء، حول أهداف السياسة الخارجيَّة. وكان اختيار أسلوب وتوقيت كل خطوة مهمة على صعيد السياسة الخارجيَّة، يترافق مع مراعاة نيكسون للرأي العام المحلي.

بدا نيكسون قلقاً إزاء احتمالات انفجار النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي ـ وكان يكرِّر تشبيه هذا النِّزاع بالوضع في البلقان قبل الحرب العالمية الأولى. بيد أن ما أضعف من استعداد نيكسون لمعالجة النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي هو ذلك الجو السياسي الداخلي المسموم الذي أوجدته حرب ڤيتنام. ولم يكن من شأن دبلوماسيَّة الشرق الأَوسط، أن تأتي بآفاق كبيرة من أجل إعادة لمّ شمل هذا الإجماع المشتّت. بل على العكس من ذلك كان القيام بجهد جاد، لحل الخلافات بين إِسرائيل وجاراتها العربيات موضع جدل وخلاف. وبالإِضافة إِلىٰ ذلك لم يكن كبار مستشاري الرئيس على اتفاق حول كيفيَّة العمل في هذا الاتجاه. أما الرأي العام فقد كان متعاطفاً جداً مع إِسرائيل، وما يزال يرى أن الدولة اليهودية هي البطل داوود، الذي يواجه جوليات العربي العدواني الموالي للسوڤييت. كما لم يكن هناك من مبرر استراتيجي ضاغط لمعالجة النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي، نظراً لأن قضية النفط لم تكن بصورة عامة مرتبطة بالصّراع، كما لم يكن يُعتقد أن العرب لديهم خيار عسكري جدي، وبالتالي لم يكن ثمة خطر داهم على المصالح الأَمريكيَّة. أمام هذه الحقائق الظاهرة لم يكن نيكسون مستعداً لأن يسمح لوزارة الخارجيَّة بأن تجسّ نبض الدبلوماسيَّة العربية ـ الإِسرائيلية، كما كان عازفاً عن وضع ثقل منصبه بالكامل، وراء سياسة فعَّالة في هذا الصدد.

جدل حول المصالح

سيطرت على تفكير صانعي السياسة في بداية 1969 مجموعتان من دواعي القلق، فيما كانت الإِدارة قد أخذت على عاتقها أول مراجعة للوضع في الشرق

الأَوسط. وبدا أن الرئيس وكيسينجر كانا قلقين بدرجة كبيرة بسبب العواقب الدولية للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي. وكان نيكسون في وصفه لأوضاع المنطقة، يرسم تكراراً صورة متفجرة فاقعة الألوان. وكان تعبير المواجهة بين القوى العظمى كثيراً ما يرد في المناقشات حول الشرق الأَوسط. وقد قيل إن هذا ما جعل النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي أشد خطراً من ڤيتنام[13].

كان المختصون في وزارة الخارجيَّة، يميلون إِلىٰ الموافقة على أن الوضع في الشرق الأَوسط كان خطيراً، ولكن آراءهم كانت أشد تأثّراً بالتهديدات المحتملة، للمصالح الأَمريكيَّة الناجمة عن تيارات داخل المنطقة. وفي الخارجيَّة كانت تتردد عبارات مثل «تآكل» النفوذ الأَمريكي، و«تدهور» موقع أَمريكا و«راديكالية» العالم العربي، و«الاستقطاب». وكانت النظرة إِلىٰ المنطقة تتسم أحياناً بالتبسيط الشديد من خلال عبارات مثل: الولايات المتحدة مع إِسرائيل والعرب «المعتدلين» يقفون في صف واحد ضد الاتّحاد السوڤييتي والعرب «الثوريين».

أدَّى الجمع ما بيه هذين التصورين، إِلىٰ عدَّة إرشادات توجيهيَّة سياسية، صاغت المقاربة الأَمريكيَّة في الشرق الأَوسط، في الفترة ما بين بداية 1969 وحتى آب/ أغسطس 1970. والشيء الأهم الذي ينبغي ذكره هو ذلك الإجماع الواسع، باستثناء كيسينجر، على ضرورة أن تتبنَّى الولايات المتحدة دوراً دبلوماسياً فعَّالاً، من أجل تشجيع تسوية سياسية تقوم على المبادىء التي يجسّدها قرار الأُمم المتَّحدة رقم 242. ومن هنا ينبغي على الولايات المتحدة، بالتضامن مع دول كبرى أخرى، وخاصة الاتّحاد السوڤييتي، أن تسعى إِلىٰ إشراك الأطراف الإقليمية في عمليَّة تفاوضية، تتمثَّل الخطوة الأولى فيها في صقل مبادىء التسوية، التي سيتم وضعها في مباحثات بين الدولتين العظميين. والنتيجة المرجوة ستكون بالتأكيد أقل من تسوية مفروضة، وهي ما رفضتها

(13) انظر التشبيه الخاص «ببرميل البارود» في كتاب: Nixon, RN, P. 343.

الإدارة، ولكنها ستكون أمراً مختلفاً عن معاهدة سلام عن طريق المفاوضات المباشرة، وهي ما كان يرغب بها الإسرائيليون[14].

كانت وزارة الخارجيَّة تدعو منذ أمد طويل، إلىٰ اتباع سياسة «نزيهة» تجاه النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. وهذا يعني في جوهره انتهاج موقف لا يعتبر ممالئاً للعرب بصورة مكشوفة، ولا ممالئاً لإسرائيل على نحو واضح. وفيما يتعلَّق بشحنات الأَسلحة إلىٰ إسرائيل، فإن المقاربة النزيهة حضّت على ضبط هذه الشحنات، وشجَّعت فيما يتعلَّق بالانسحاب من الأَراضي على إصدار بيان واضح، يعارض استيلاء إسرائيل على الأَراضي التي احتلتها عام 1967. أما فيما يتعلَّق بطبيعة اتفاقية السَّلام فإن المعايير التي تطبق على الالتزامات من الجانب العربي، ينبغي ألاّ تكون صارمة جداً. هذه السياسة الأَمريكيَّة «النزيهة» اعتبرت من وجهة نظر إسرائيل موالية للعرب.

ومن حسن حظ الإسرائيليين، أن كيسينجر كان متشكِّكاً في فضائل عدم التحيز. وشرع الإسرائيليون في وقت مبكر، في تجاوز روجرز لصالح التعامل المباشر مع البيت الأَبيض. وكان كيسينجر يعتقد، خلافاً لروجرز وسيسكو، أن الطريق الدبلوماسي المسدود الذي تظل فيه إسرائيل قوية، من شأنه في النهاية أن يقنع العرب بعدم جدوى، الاعتماد على السوفييت. وعندئذ لا بد أن يتوجهوا إلىٰ الولايات المتحدة طلباً للمساعدة، والتي سيكون ثمنها الابتعاد عن موسكو. ومن وجهة نظر كيسينجر ينبغي عدم إعطاء العرب الانطباع بأن في وسعهم، الاعتماد على الدولتين العظميين في الضغط على إسرائيل لتقديم تنازلات، إلاَّ إذا كانوا على استعداد لتقديم تنازلات بعيدة المدى من جانبهم. وكان كيسينجر يضيق ذرعاً من وجهة النظر التي تقول، أن العرب سيبدون

(14) كان اعتراض الإدارة على إجراء تسوية مفروضة اعتراضاً مزدوجاً: أن الأرجح أنَّها لن تدوم طويلاً لأن الأطراف ستكون قليلة الإحساس بالالتزام بشروطها، كما أن القوى الخارجيَّة ستتعب في محاولة فرضها، وأن مثل هذه التسوية ستقابل مقابلة غير طيبة في هذا البلد.

الاعتدال إذا ما ابتعدت الولايات المتحدة قليلاً عن المواقف الإسرائيلية، وعملت على تقييد إمدادات السلاح إلىٰ إسرائيل[15].

يمكن تلخيص الخلاف الأساسي ما بين وزارة الخارجيَّة وكيسينجر بسهولة. فالخارجيَّة كانت ترى أن التوترات في الشرق الأَوسط، تنجم عن ظروف إقليمية يمكن أن يستغلها السوڤييت لمصلحتهم. ومن أجل تخفيض سقف الخيارات السوڤييتية، كان المسؤولون في وزارة الخارجيَّة يناقشون وجوب محاولة حل النزاعات القائمة، من قِبل الولايات المتحدة. أما كيسينجر فقد كان أقل تفاؤلاً باحتمالات حل النِّزاعات الإقليمية، وكان يعتقد أن التورط السوڤييتي في هذه النِّزاعات هو ما جعلها خطيرة للغاية. ومن منظوره الخاص بتوازن القوى، كان يرى أن أول ما ينبغي عمله، هو تهميش الدور السوڤييتي. ومن دواعي الدهشة أن نيكسون، بدا موافقاً على كلتا المدرستين في التفكير، معتمداً على الظروف.

صناعة السياسة

أعرب الرئيس نيكسون في كانون الثاني/ يناير من عام 1969، عن رأيه بأن الوضع في الشرق الأَوسط، مشحون بأسباب الانفجار. وقد انعكس تفكيره على أفضل وجه، في إجابته على أسئلة وُجِّهت إليه خلال مؤتمر صحفي جرى في 27 كانون الثاني/ يناير 1969، بعد أسبوع واحد من توليه لمنصبه:

أعتقد أننا نحتاج إلىٰ مبادرات جديدة، وزعامة جديدة من جانب الولايات المتحدة، من أجل تهدئة الموقف في الشرق الأَوسط، الذي اعتبره برميل بارود

---

(15) قال كيسينجر في كتابه White House Years, PP. 349-52 «أشك.. في صواب استخدام الضغط الأَمريكي لتحقيق تسوية عامة ريثما نرى بصورة أوضح ماهية التنازلات التي يتقدَّم بها العرب، وريثما نرى أن الذين ينتفعون منها سيكونون أصدقاء لأَمريكا وليس عملاء للسوفييت.. وكان في اعتقادي أن الحدّ من النفوذ السوفييتي هو شرط مسبق لاتباع دبلوماسيَّة فعّالة في الشرق الأَوسط، حتى لا يتسنى غزو التقدم المحرز إلىٰ ضغوطه، وحتى تكتسب الحكومات المعتدلة شيئاً من المجال تناور فيه».

شديد الانفجار يحتاج إلىٰ نزع فتيله. وأنا منفتح الذهن تجاه أية اقتراحات من شأنها تهدئة الوضع، وتقليص احتمال انفجار آخر، لأن الانفجار القادم من الشرق الأَوسط قد ينطوي، كما أعتقد، على مواجهة بين القوى النووية، وهذا ما نريد أن نتجنَّبه[16].

في الأول من شباط اجتمع مجلس الأَمن القومي، لإجراء استعراض شامل للسياسة في الشرق الأَوسط. وهناك ثلاثة بدائل نوقش كل منها باستفاضة في «مذكرة دراسة الأَمن القومي ـ 2»، ألا وهي:

- ترك البحث عن تسوية للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي إلىٰ الفرقاء (المعنيين) والسفير يارينغ.
- انتهاج سياسة أَمريكيَّة أكثر فعالية، تتضمَّن مباحثات أَمريكيَّة ـ سوفييتية.
- الافتراض أن لا سبيل إلىٰ التسوية، وتركيز الجهود على أهداف تقل عن التسوية.

تقرّر اختيار البديل الثاني، وترك البديل الثالث متاحاً باعتباره موقفاً يمكن اللجوء إليه في حال الإخفاق. وحدّدت مناقشات مجلس الأَمن القومي عدة مبادىء ينبغي أن تسترشد بها السياسة الأَمريكيَّة:

- ينبغي أن تشارك أطراف النِّزاع في المفاوضات، في مرحلة ما من هذه العملية. ومع أن الولايات المتحدة لن تتردد في أن تستبق إِسرائيل في التحرك، إلاَّ أن أية اتفاقية نهائية لا يمكن التوصل إليها بدون مشاركة إِسرائيل وموافقتها.
- هدف التسوية اتفاق ملزم، وهو ليس بالضرورة في صيغة معاهدة سلام، ولكنه يتضمن شكلاً من أشكال الالتزامات التعاقدية. ولقد كانت الإِدارة

---

(16) مؤتمر نيكسون الصحفي في 27 كانون الثاني/ يناير 1969، انظر: Department of State Bulletin, Vol. 60 (February 17, 1969), PP. 142-43.

مهتمة بالتوازن المفتقد في التنازلات التي تُطلب من كل طرف. الإسرائيليون يتنازلون عن أراضٍ، فيما يقدم العرب تعهدات باحترام سيادة إسرائيل.

- يجب أن يتم انسحاب القوّات الإسرائيلية إلىٰ الحدود الدولية بين إسرائيل ومصر، مع ترتيب خاص بالنسبة إلىٰ غزة. كما ينبغي أن يتم تحقيق إجلاء إسرائيلي من الضفة الغربية للأردن، مع تعديلات طفيفة في الحدود.
- بعض المناطق الشائكة ينبغي تجريدها من السِّلاح.
- لا بدّ أن يكون للأردن، دور مدني وديني داخل مدينة القدس الموحدة.
- لا بد من تحقيق تسوية لمشكلة اللاجئين.

كما بحثت قضية تقديم ضمان لإسرائيل وتأمين الأَسلحة لها. وقد نظر مجلس الأَمن القومي فيما بعد في استراتيجيتين دبلوماسيتين محتملتين: الأولى أن تتقدَّم الولايات المتحدة بخطة سلام منفردة. وقد رُفضت هذه الاستراتيجية. والثانية، أن الولايات المتحدة، تستطيع أن تنتهج خطة الخطوة ـ خطوة حيث يمكن بمقتضاها، إدخال عناصر معينة للتسوية في المفاوضات بالتدريج. وتم الاعتراف بأن الانسحاب وطبيعة اتفاقية السَّلام، هما مسألتان بالغتا الحرج. ولا بد من إعطاء الأولوية لتطوير أرضية مشتركة في المحادثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية، بهدف إصدار وثيقة مشتركة، يمكن أن تصادق عليها الدول الأربع فيما بعد (القوتان العظميان بالإضافة إلىٰ بريطانيا وفرنسا)، وتسليمها إلىٰ السفير غونار يارنغ لطرحها على الأطراف المحلية[17]. وقد ظلَّت السياسة الأَمريكيَّة

(17) تم الحصول على هذه التفاصيل في مقابلات أجريت مع الذين شاركوا في أول استعراض للسياسة في الشرق الأَوسط أجراه مجلس الأَمن القومي، أما ردّ فعل كيسينجر إزاء هذه المبادرات من جانب وزارة الخارجيَّة، فيمكن الوقوف عليه في كتابه White House Years, على الصفحتين 352 ـ 353. وللوقوف على معلومات أساسية عن مقترحات وزارة الخارجيَّة، بما في ذلك الأدلة على أن الموقف السوفييتي بدأ يظهر أمارات على المرونة في أواسط =

متمسّكة حتى نهاية العام، بهذه الإرشادات التي وُضعت في شباط/ فبراير. وكانت النتيجة الختامية هي «خطة روجرز».

وسرعان ما جرت عدة جولات متزامنة من المفاوضات. وتتابعت اللقاءات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية، في محاولة من الإدارة الأَمريكيَّة لتبديد مخاوف الحكومة الإسرائيلية، التي باتت تتولَّى رئاسة حكومتها غولدا مائير[18]. وما أن بدأت المباحثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية بروح صادقة، حتى أُحيطت إسرائيل علماً بالتقدم في هذه المباحثات، على الرغم من أن هذا النمط من المشاورات، بدأ يضعف بحلول خريف ذلك العام. وفي الختام، باتت محادثات القوى الأربع، تجري في وقت واحد مع المباحثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية.

أدار المباحثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية في البداية، كل من سيسكو والسفير السوفييتي أناتولي دوبرينين، والتي سرعان ما احتلت مركز الصدارة. وقد اجتمعا خلال الفترة ما بين 18 آذار/ مارس و22 نيسان/ أبريل 9 مرَّات. وكان الهدف الأَمريكي من هذه الجولة، تبين ما إذا كان هناك اتفاق على المبادىء العامَّة، يكفي لتبرير محاولة الوصول إلىٰ اقتراح مشترك. وخلال هذه المرحلة، حدَّدت الولايات المتحدة موقفها من التسوية، في وثيقة قدمتها إلىٰ المشاركين في مباحثات الدول الأربع في 24 آذار/ مارس. وكانت النقاط الرئيسية في هذه الوثيقة هي التالية:

- يتم الاتفاق على الحدود النهائية بين الأطراف. ومن الممكن إدخال تعديلات طفيفة على خطوط 1967.

= عام 1969، انظر David A. Korn, Stalemate of Attrition and Great Power Diplomacy in the Middle East, 1967-1979 (Boulder, Colo.: Westview Press, 1992), PP. 150-56.

(18) توفي رئيس الوزراء إشكول في 26 شباط/ فبراير، وخلفته جولدا مائير في رئاسة الحكومة في 17 آذار/ مارس.

- لن تكون هناك تسوية مفروضة.
- تتعاون الدول الأربع بشكل وثيق، مع السفير يارينغ وتعمل من خلاله.
- يتخذ الاتفاق النهائي صورة تعاقدية، يوقع عليها جميع الأطراف.
- يتم تحقيق السَّلام باعتباره جزءاً من تسوية شاملة[19].

اكتسب البند الأخير، المتعلّق بالحاجة إلىٰ تسوية شاملة، أهمية جوهرية. فقد كان يعني أن الانسحاب الإسرائيلي لا يتحقَّق، إلاَّ إذا تحقَّقت جميع عناصر اتفاقية السَّلام على جميع الجبهات. وقد كان يتعارض جذرياً مع إصرار العرب والسوفييت على انسحاب إسرائيل أولاً، وبعد ذلك يمكن بحث إنهاء حالة الحرب والموضوعات الأخرى.

وخلال شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، أخذ الموقف في الشرق الأَوسط يتدهور بشدة. فقد اندلع القتال على طول قناة السويس، وتصاعدت شدة هجمات الفدائيين، وكذلك حدة الانتقام من جانب إسرائيل؛ وأعلن عبد الناصر في بداية شهر نيسان/ أبريل، إلغاء وقف إطلاق النَّار، وانطلاق ما بات يُعرف باسم حرب الاستنزاف[20].

التقى الملك حسين مع نيكسون وروجرز في الثامن من نيسان/ أبريل. وكانت الإدارة تتعاطف مع الأردن، ولكنَّها كانت متأكدة أن الملك، لا يستطيع التحرّك نحو تسوية بدون عبد الناصر. لذا فإنه من أجل مساعدة الأردن كان لا بد من مساعدة مصر. وكان الملك حسين قد حمل معه تنازلاً من عبد الناصر، يمكن أن يمهِّد مسار العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية. فقد أعلن الملك صراحة

---

(19) Hedrick Smith, «Big Four May Meet on Mideast Soon,» New York Times, March 26, 1969, P. 11.

(20) انظر: Yaacov Bar-Siman-Tov, The Israeli-Egyptian War of Attrition, 1969-1970: A Case Study of a Limited War (Columbia University Press, 1980); and Korn, Stalemate, PP. 165-88.

أنه مفوَّض بالتأكيد، على حرية الملاحة في قناة السويس، لجميع الدول في إطار التسوية[21].

وبعد ذلك ببضعة أيام، اجتمع نيكسون بأحد كبار مساعدي عبد الناصر، محمود فوزي، الذي أكَّد على هذه النقطة، وأضاف في جلسة، خاصة أن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي بسبب معارضة سورية للتسوية. وباختصار فإن كلاً من مصر والأردن، قد أعربتا عن استعدادها لإجراء تسوية، حتى ولو لم تكن سورية مستعدّة لذلك. ولكن يبدو أن كيسينجر لم يكن مقتنعاً بما قاله فوزي، عن استعداد مصر لإبداء الكثير من المرونة[22].

جرى نقاش حاسم داخل الإدارة الأَمريكيَّة، حول دور الاتّحاد السوفييتي. فقد رأى بعضهم في وزارة الخارجيَّة، أن الاتّحاد السوفييتي سيكون مستعداً، لاعتبارات تتعلَّق باستراتيجيته العالمية، للتعاون مع الولايات المتحدة في الشرق الأَوسط، حتى ولو سبَّب ذلك لموسكو بعض التوتر في علاقتها مع عبد الناصر. والحق أن الأمل كان معقوداً بشكل خاص، على احتمال أن يُضعف السوفييت من مكانتهم في مصر، بمحاولتهم حمل عبد الناصر على قبول المقترحات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية. وهنا شكَّك كيسينجر في استعداد السوفييت للتضحية بمصالح إقليمية، من أجل تحسين العلاقات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية. وناقش بأن الاتّحاد السوفييتي قد بذل جهداً بالغاً، من أجل تحقيق نفوذ له في الشرق الأَوسط، ومن أجل المحافظة على هذا النفوذ، فقد اعتمد أساساً على توريد الأَسلحة إلىٰ عملاء رئيسيين، وإذا ما تحقَّق السَّلام، فلن تكون هناك حاجة إلىٰ كميات كبيرة من هذا السلاح. ولهذا فليس لدى السوفييت مصلحة في عقد اتفاق سلام حقيقي، وهم يفضِّلون بدلاً من ذلك،

---

(21) انظر: Kissinger, White House Years, P. 362-63 ويؤخذ مما قاله كيسينجر أن الملك حسين كان مستعداً للموافقة على إجراء عمليات تصحيح هامّة في حدود الضفّة الغربية إذا ما استطاع الحصول على غزّة.

(22) المرجع السابق، ص 360 ـ 362.

حالة من «التوتر الخاضع للسيطرة». من هذا المنظور فإن للمباحثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية غرض واحد، كما تراءى لموسكو والقاهرة، وهو ما دفع الولايات المتحدة للضغط على إِسرائيل للانسحاب من أراضٍ عربية، مقابل تنازلات عربية ضئيلة فحسب. أما نيكسون فقد كان متشكِّكاً في نوايا السوفييت، ولكنه شعر بضرورة اختبارهم.

جاءت رحلة وزير الخارجيَّة السوفييتي غروميكو إِلىٰ القاهرة، في الفترة من 10 ـ 13 حزيران/ يونيو بمثابة مؤشر مبكر على النوايا السوفييتية. وقد ذكر أن السوفييت، حضّوا عبد الناصر على القبول بمفاوضات غير رسمية مع الإِسرائيليين، على طريقة مفاوضات الهدنة في رودوس عام 1949.

ظلت مواقف القوتين العظميين حتى أواخر الصيف جامدة[23]، ولكن الوضع في الشرق الأَوسط لم يكن كذلك. فقد تعاظم القتال على طول القناة؛ وكانت إِسرائيل قد تقدمت بصورة غير رسمية، في شهر تموز/ يوليو بطلب مائة طائرة سكاي هوك إضافية، من الولايات المتحدة وكذلك 25 طائرة من طراز فانتوم ـ 4 لتحل محل طائرات الميراج التي رفضت فرنسا أن تبيعها[24]. ثم حدث في الأول من أيلول/ سبتمبر، انقلاب عسكري في ليبيا، قاده ضباط ناصريون صغار أطاح بحكومة الملك إدريس، التي كانت من أكثر الحكومات العربية المحافظة موالاة للغرب. وجاء هذا الحدث، مقترناً مع الانقلاب «الثوري» في السودان في شهر أيار السابق، ليؤكد مخاوف أولئك الذين كانوا يرون ميلاً، إِلىٰ التطرّف والعنف في العالم العربي في غياب أي تقدّم نحو اتفاق سلام.

---

(23) بين 31 تموز/ يوليو و25 آب/ أغسطس علّق السوفييت على مقترحات سيسكو بتاريخ 15 تموز/ يوليو وذلك في محادثات جرت في موسكو مع السفير بيم. لكن السوفييت لم يتخذوا موقفاً جديداً.

(24) تقدمت إِسرائيل بطلب رسمي للحصول على مائة طائرة من طراز «أ ـ 4» وخمس وعشرين طائرة من طراز «اف ـ 4» في 15 أيلول/ سبتمبر 1969.

وفي أوائل أيلول/ سبتمبر وصلت إلىٰ إسرائيل الدفعة الأولى من طائرات ف ـ 4 النفاثة (والتي كان الرئيس جونسون قد وافق على تجهيزها في أواخر عام 1968). وسرعان ما أصبحت هذه الطائرات، رمزاً لا يُدحض عند العرب على التأييد الأَمريكي لإسرائيل، ومن ثم بدأت حملة مكثفة في الوطن العربي للحيلولة دون مزيد من هذه الصفقات.

التقى نيكسون بغولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في 25 أيلول/ سبتمبر. وكانت مائير تتعامل مع نيكسون على أنه صديق كبير للشعب اليهودي، وأبدى نيكسون بالمقابل تعاطفاً كبيراً مع اهتمامات إسرائيل. وطلبت مائير 25 طائرة إضافية من طراز ف ـ 4 و100 طائرة من طراز سكاي هوك «آ ـ 4» ومعونة سنوية مقدارها 200 مليون دولار، للمساعدة على دفع قيمة هذه المشتريات. وكان جواب نيكسون ملتبساً بعض الشيء، واقترح مقايضة «المكونات المادية بمكونات غير مادية»، وهو ما كان يعني، أن ترتبط إمدادات السلاح بتنازلات سياسية[25].

وافق نيكسون أثناء زيارة مائير، على ضرورة إقامة قناة اتصال مباشرة بينهما، تتجاوز وزارة الخارجيَّة. وكان نيكسون مغرماً بمثل هذا النوع من الاتصالات الخلفية، وسرعان ما ارتبط هنري كيسينجر والسفير الإسرائيلي إسحاق رابين، بخط هاتفي خاص. وقد استخدم رابين هذه الوسيلة الأفضل، للاتصال بالبيت الأَبيض كي يسوق الحجج القوية، بضرورة تكثيف إسرائيل لعمليات القصف الجوي في العمق المصري. وبذا أصبح بوسع رابين أن يقول

---

(25) المرجع السابق ص 370 ـ 371، وGolda Meir. My Life: The Autobiography of Golda Meir (London: Futura, 1976). PP. 326-30; and Yitzhak Rabin, The Rabin Memoirs (Little, Brown, 1979) PP. 150-57 ذكرت مائير أن الطلب كان يتعلَّق بثمانين طائرة من طراز سكاي هوك، ولكن الواقع أن العدد كان مائة طائرة.

ـ إذا ما ألحت وزارة الخارجيَّة على ضبط النفس ـ إن مصادره كانت تحرض على ذلك»[26].

استمرت وزارة الخارجيَّة ـ دون أن تتأثر بزيارة مائير ـ في الإلحاح على خطتها الرامية للتوصل إلىٰ موقف مشترك مع الاتّحاد السوفييتي حول المبادىء. وطلب روجرز تفويضاً بأن يبيِّن للسوفييت، الموقف النهائي من انسحاب إسرائيل إلىٰ الحدود الدولية. ووافق نيكسون على ذلك، وسلم سيسكو في 28 تشرين الأول/ أكتوبر السفير دوبرينين الفقرة الأخيرة من وثيقة مشتركة مقترحة، تتضمَّن الموقف الأمريكي النهائي بشأن الانسحاب الإسرائيلي. ولكن الرئيس سعى بأسلوب متميّز، وفقاً لرواية كيسينجر، إلىٰ «تجنّب خسارة هذا الرهان بأن طلب إلىٰ كل من جون ميتشيل وليونارد جارمنت ـ مستشار الرئيس ومرجعه في الشؤون اليهودية ـ أن يطلعا زعماء الطائفة اليهودية حول شكوكه بدبلوماسيَّة وزارة الخارجيَّة. وأوضح نيكسون لهما بقوة بأنه سيحرص على ألاّ تسفر المبادرات التي يفوض بطرحها عن أي شيء»[27].

خطة روجرز(*) وكيف استُقبلت

تألَّفت خطة روجرز، كما باتت تُعرف، من مقدِّمة قصيرة تدعو إلىٰ عقد

---

(26) Rabin, Rabin Memoirs, PP. 156-56; Abba Eban, An Autobiography (Random House. 1977), PP. 464-65; and Gideon Rafael, Destination Peace: Three Decades of Israeli Foreign Policy. A Personal Memoir (Stein and Day, 1981), PP. 210-11.

(27) Kissinger, White House Years, P. 372 ورواية نيكسون الخاصة تختلف عن ذلك وحيث قال: «كنت أعرف أن خطة روجرز لن تنفذ أبداً، ولكنني اعتقدت بأن من الأهمية بمكان جعل العالم العربي يعرف أن الولايات المتّحدة لم ترفض بصورة تلقائية مطالبه المتعلقة بالأراضي المحتلَّة، وأنها لم تستبعد التوصل إلىٰ تسوية الحل الوسط بشأن الإدعاءات المتعارضة. وكنت أعتقد أن وجود خطة روجرز، أنه سيكون من الأيسر على الزعماء العرب أن يقترحوا إعادة فتح العلاقات مع الولايات المتّحدة دون أن يتعرّضوا للهجوم من جانب الصقور والعناصر الموالية للسوفييت في بلادهم» Nixon, RN, P. 479.

(*) عُرفت في الأدبيات السياسيَّة العربيَّة باسم مشروع روجرز ـ المترجم.

«اتفاق ملزم ونهائي بصورة متبادلة» بين مصر وإسرائيل، يجري التفاوض عليه تحت رعاية سفير الولايات المتحدة يارنغ على غرار الإجراءات التي اتبعت عام 1949 في رودويس، وتستند إلىٰ عشر نقاط، جوهرها ما يلي:

1 ـ تنتهي حالة الحرب بين مصر وإسرائيل، ويتم إرساء حالة سلام رسميَّة.

2 ـ يتضمن الاتفاق إقامة مناطق منزوعة السلاح، واتخاذ التدابير الفعَّالة في منطقة شرم الشيخ، لضمان حرية الملاحة في مضيق تيران، والترتيبات الأمنية، والوضع النهائي في غزّة. وضمن هذا الإطار، فإن «الحدود الدولية السابقة ما بين مصر وفلسطين التي كانت تحت الانتداب ستصبح الحدود المضمونة، والمُعترف بها بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة».

3 ـ مع ممارسة مصر لحق السيادة على قناة السويس فإنَّها تؤكّد على حق السفن التابعة لجميع الدول، بما فيها إسرائيل، بحرية المرور عبر قناة السويس دون تمييز أو تدخّل.

4 ـ توافق كل من مصر وإسرائيل معاً على الاعتراف بسيادة كل طرف، ووحدة أراضيه، وحقّه في العيش بسلام ضمن حدود مُعترف بها وآمنة[28].

في العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر قدَّمت كل من الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي نص الخطة إلىٰ مصر. وبعد ذلك ببضعة أيام بعث وزير الخارجيَّة المصري بردّ غير ملزم إلىٰ روجرز، مشيراً فيه إلىٰ بعض العناصر الإيجابية في المقترحات، ولكنه امتنع عن إبداء أي التزام نهائي إلىٰ أن يتم تقديم «صيغة متكاملة» لتسوية شاملة. وكان هذا يعني باختصار أن مصر لم تكن مستعدة للنظر في صفقة ثنائية مع إسرائيل حتى ولو استعادت جميع

(28) من أجل النص الكامل لخطة روجرز انظر www brokingsedu.

أَراضيها[29]. وبعد قرابة شهر بدون وصول ردّ آخر من مصر، أَو رد فعل رسمي من جانب الاتّحاد السوفييتي، قام الوزير روجرز في 9 كانون الأول/ ديسمبر بإعلان العناصر الأساسية لخطة علنية[30]. وفي اليوم التالي رفضت إِسرائيل مقترحات روجرز.

في 18 كانون الأول/ ديسمبر قدمت الولايات المتحدة خطة مشابهة من أجل تسوية أردنية ـ إِسرائيلية إِلىٰ الدول الأربع[31]. بهدف تعزيز موقف الملك حسين في اجتماع القمَّة العربية المقرر عقده في الرباط في اليوم التالي. وقد احتوت الخطة على كثير من النقاط الواردة في وثيقة 28 تشرين الأول/ أكتوبر، بالإِضافة إِلىٰ تعديلات بسيطة كي تلائم الظروف الخاصة بالجبهة الأردنية[32].

---

(29) Mahmoud Riad The Struggle for Peace in the Middle East (Quartet Books, 981), PP. 110-11.

(30) تضمنت خطبة روجرز في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1969 معظم النقاط الواردة في وثيقة 18 تشرين الأول/ أكتوبر وصف فيها سياسة الولايات المتّحدة بأنّها «متوازنة» مؤكداً روابط الصداقة مع كل من العرب والإِسرائيليين وأشار إِلىٰ ثلاثة عناصر أساسية في اتّفاقية منتظرة للسلام:

- أن تكون هناك التزامات بالسلام من جانب الأطراف، بما في ذلك الالتزام بالحيلولة دون الأعمال المعادية التي تنشأ من أراضي كل منها.
- إجراء مفاوضات بأسلوب رودس لإعداد التفاصيل المتعلقة باتّفاقية. والقضايا التي يجري التفاوض عليها بين مصر وإِسرائيل تشمل الضمانات في منطقة شرم الشيخ، وإقامة مناطق منزوعة السلاح، وعمل الترتيبات النهائية في غزَّة.
- في إطار السلام والاتّفاقيات المتعلقة بالأمن، يشترط انسحاب القوات الإِسرائيلية إِلىٰ الحدود الدولية بين مصر وإِسرائيل.
- ويمكن الوقوف على النص الكامل للخطبة في: «Text of Speech by Secretary Rogers on U.S. Policy in Middle East,» New York Times, December 10, 1969, P. 8 See also Korn, Stalemate, PP. 158-81.

(31) كان نيكسون قد سمح بتقديم مقترحات لاتّفاقية إِسرائيلية أردنية في 17 كانون الأول/ ديسمبر، ولكن يؤخذ مما قاله كيسينجر (في كتاب (White House Years, P. 376 أنه بعث في نفس الوقت بتأكيد لجولدا مائير عن طريق ليونارد جارمنت «بأننا لن نذهب إِلىٰ أبعد من ذلك، وبأننا لن نلح على مقترحنا».

(32) النقاط 1 و2 و4 و5 و7 و8 و9 و10 من وثيقة 28 تشرين الأول/ أكتوبر قد كرّرت بصورة أساسية في مقترح 18 كانون الأول/ ديسمبر.

فالحدود الدائمة، على سبيل المثال ستكون «مُقاربة» لخط الهدنة الذي كان قائماً قبل حرب 1967، مع السماح بتعديلات تقتضيها «الملائمة الإدارية والاقتصادية». يضاف إلىٰ هذا أن النقطة الرابعة في وثيقة 18 كانون الأول/ ديسمبر قد أكَّدت على أن إسرائيل والأردن سيقومان بتسوية مشكلة القدس، مع الاعتراف بأن المدينة ستكون موحدة، وأن البلدين سيشاركان في المسؤوليات المدنية والاقتصادية لإدارة المدينة. كما نصَّت النقطة الثامنة على المبادىء التي يسترشد بها في تسوية مشكلة اللاجئين، التي تسمح بالعودة أو إعادة التوطين مع التعويض. ويتم الاتفاق على الحصة السنوية للاجئين الذين تتم إعادتهم بين الطرفين[33]. وقد ذكر أن الملك حسين كان مسروراً بهذا الاقتراح الأمريكي.

في 22 كانون الأول/ ديسمبر أصدر مجلس الوزارء الإسرائيلي بياناً جاء فيه: «إن إسرائيل لن تكون ضحية من جانب أية دولة، أو لسياسة متفق عليها بين دول، وهي سترفض أية محاولة لفرض حل إلزامي عليها... والاقتراح المقدم من الولايات المتحدة لا يمكن تفسيره من قِبل الحكّام العرب، إلاَّ بأنَّه محاولة لإسترضائهم على حساب إسرائيل»[34]. وفي الوقت الذي كان روجرز يستنكر فيه الاستخدام الإسرائيلي لكلمة «استرضاء»، سلّم السوفييت في اليوم التالي مذكرة رسمية تتضمَّن رفضاً لمقترحات روجرز بكاملها تقريباً[35].

---

(33) وارد في Arab Report and Record, December 16-31, 1969, Arab Report and Record, December 16-31, 1969, P. 549.

(34) Ibid, P. 545.

(35) نشرت المذكرة السوفييتية. في جريدة «النيويورك تايمز» بتاريخ 13 نيسان/ أبريل 1970. ويؤخذ مما قاله وزير خارجية مصر، أنه بالنظر إلىٰ رفض إسرائيل للمقترحات لم يعد هناك سبب قوي يدعو مصر لقبولها» لأن معنى هذا تقديم مزيد من التنازلات في إطار تسوية كانت لدينا شكوك في أن تحمل الولايات المتّحدة إسرائيل على قبولها Riad, Struggle for Peace, P. 114 «وقد جاء رفض موسكو لخطة روجرز بعد محاورات مستفيضة مع المسؤولين المصريين في موسكو، ومنهم نائب الرئيس أنور السادات، ووزير الحربية فوزي، ووزير الخارجيَّة رياض. ويؤخذ مما قاله رياض أن السوفييت كانوا منزعجين من تصاعد القتال بطول قناة السويس، ولكنهم لم يروا أي تناقض بين تقديم الأسلحة لمصر لتحرير سيناء وبين السعي إلىٰ =

وضع الرفضان الإسرائيلي والسوفييتي لخطة روجرز، وعدم موافقة مصر، نهاية مفاجئة لأول مبادرة من جانب الإدارة الأمريكيَّة تجاه الشرق الأوسط. وبموت هذه المبادرة تلاشى الأمل في أن تساعد دبلوماسيَّة «الربط»، على تقديم مفتاح للسلام في تلك المنطقة. لقد جرت، ولم تكن هذه المرة الأولى، إعادة تقويم أساسية للسياسة تجاه النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. ومع أن مقترحات روجرز ظلَّت البيان الأوضح عن التسوية السلمية التي يفضّلها الأمريكيون، إلاَّ أنَّها لم تعد الأساس العملي لسياسة أمريكيَّة إزاء النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي.

إعادة التقييم

أخفقت مبادرة روجرز لعام 1969 على نحو واضح، مرحلياً على الأقل. إذ لم يكن هناك من يتقبلها، إذا استثنينا الأردن، وكان ردّ الفعل الإسرائيلي بشكل خاص عدوانياً للغاية. فأين كان الخطأ؟ توافق معظم صانعي السياسة، في استرجاعٍ لصورة الماضي، على أنَّه كان من السذاجة الافتراض أن الولايات المتحدة ستستطيع أن تفرِّق ما بين الاتّحاد السوفييتي ومصر أثناء عملية المفاوضات. وقد كان مبرر المحادثات بين القوتين، أنه سيكون من الأسهل بالنسبة لهما الوصول إلىٰ اتفاق مبادىء، بالمقارنة مع مصر وإسرائيل، وأنَّهما تستطيعان أن تستخدما نفوذهما بصورة بنَّاءة، لجعل مواقف «زبونتيهما» أكثر اعتدالاً. وهذا المفهوم كان يتفق على نحو جيد، مع تأكيد نيكسون على «الربط» و«الردع» و«المفاوضات».

وحتى لو أمكن إقناع السوفييت بالتوقيع على خطة روجرز، فلم يكن من الواضح مطلقاً، ما إذا كان من الممكن زحزحة الموقف الإسرائيلي. وكان

= التوصّل إلىٰ تسوية سياسية. والواقع أنه قد روى عن ليونيد بريجنيف أنه بذل خلال هذه الاجتماعات وعوداً بعيدة المدى، وعرض إرسال ستين طياراً سوفييتياً وصواريخ «سام 3» وبطاريات بأطقمها Riad, Struggle for Peace, P. 113.

كيسينجر يعارض الخطة بقوة، موحياً لرابين أن واشنطن سترحب بحملة عسكرية إسرائيلية أكثر عدوانية ضد عبد الناصر. وإذا لم يكن نيكسون مستعداً لتأييد روجرز تأييداً كاملاً، ومن الواضح أنه لم يكن مستعداً لذلك، لم يكن يتوقع من الإسرائيليين أن يمتثلوا. فقد كان النزاع بين روجرز وكيسينجر، وتناقض نيكسون مع نفسه، يعنيان أن خطة روجرز لم يكن أمامها أية فرصة للنجاح.

لعبت السياسة المحلية الأمريكيَّة دورها أيضاً. فقد كان كيسينجر ونيكسون، يحترمان قوة دعم الكونغرس لإسرائيل، وما تحظى به من دعم أيضاً لدى الرأي العام بصورة عامة. وكان كيسينجر يرى من الخطل، بل وربما الخطر، أن تحاول الولايات المتحدة تحسين علاقاتها مع خصميها ـ الاتّحاد السوفييتي ومصر ـ بالضغط على صديقتها إسرائيل. ولئن كانت مثل هذه الأمور ممكنة من أجل التوصّل إلى اتفاقية سلام حقيقيَّة، فلا ينبغي أن تكون جزءاً من الأسلوب التفاوضي الأمريكي القياسي. وعلى السوفييت والعرب، بدلاً من ذلك، أن يتعلَّموا أن ممارسة النفوذ الأمريكي على إسرائيل، مشروط بضبط النفس والاعتدال من جانبهما.

كانت الدروس المستخلَصَة من فشل خطة روجرز عام 1969 واضحة جيداً في بداية 1970. وأول هذه الدروس أنَّه إذا كان من المستحيل التفريق ما بين الاتّحاد السوفييتي ومصر، فعلى واشنطن من الآن فصاعداً أن تتعامل مباشرة مع عبد الناصر عند الضرورة بدلاً من التعامل معه عن طريق موسكو. وثانيها أنَّه طالما لم تُقابل التنازلات الأمريكيَّة بتنازلات مماثِلة، فإن الخطوة التالية يجب أن تأتي من جانب السوفييت أو المصريين. إذ لن يكون هناك المزيد من التنازلات الأمريكيَّة من جانب واحد. وتستطيع كل من الولايات المتحدة وإسرائيل أن تظلا متماسكتين، إلى أن يستكمل «الجانب الآخر» عملية إعادة التقييم الخاصَّة به، وأن يستنتج أن استئناف المفاوضات الجادة أمر مطلوب.

وثالث هذه الدروس، أن أية مبادرة أَمريكيَّة قادمة ستكون أقل تقيداً بالحرفية القانونية، وأقل علنية، وربما أقل طموحاً. أما نهج التسوية الشاملة (الرزمة) فهو وإن كان أكثر إغراء من الناحية النظرية، إلاَّ أنه ببساطة شديد التعقيد. فالإخفاق في قضية واحدة قد يحول دون تحقيق النجاح في أية قضايا أخرى. لذا لن يؤخذ بعين الاعتبار من الآن فصاعداً إلاَّ المبادرات الأكثر تواضعاً.

حدث تطوران بعد ذلك هدَّدا هذا الإجماع الجديد بالسرعة ذاتها التي ظهر بها. أولهما، أن القتال في الشرق الأَوسط تصاعد بحدة في ربيع عام 1970، ولا سيما بعد أن دخلت صواريخ «سام 3» أرض ـ جو السوفييتية إلىٰ مصر، وتغلغل إسرائيل في العمق المصري، وضرب أهداف قريبة من القاهرة، وإيفاد عشرة آلاف مستشار سوفييتي إلىٰ مصر، وظهور الطيارين المقاتلين السوفييت، وهم يقومون بتوفير الغطاء الجوي فوق عمق الأَراضي المصرية[36]. والتطور الثاني هو الضغط الداخلي على إدارة نيكسون للتخلي عن خطة روجرز، والموافقة على طلب إسرائيل بالحصول على 100 طائرة «آ ـ 4» (سكاي هوك) و25 طائرة ف ـ 4 (فانتوم) بسرعة. ومع اقتراب انتخابات الكونغرس، ارتفعت أصوات أعضاء مجلس النوَّاب والشيوخ بشكل خاص تأييداً لإسرائيل.

باتت الإدارة تواجه الآن مشكلتين مُلحّتين في النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. الأولى اتخاذ مبادرة سياسية ما، لإنهاء القتال والشروع بمباحثات حول التسوية. والثانية الاستجابة لمطالب إسرائيل من السلاح، وخاصة مع تنامي تورط السوفييت في النِّزاع. وأدرك المسؤولون في وزارة الخارجيَّة أنَّهم يواجهون أزمة حادة. فإذا أرادت الولايات المتحدة أن تتخذ مبادرة سياسية ذات مصداقية تجاه عبد الناصر، فإن عليها أن تكون غير منحازة. وكان هذا أمراً عسيراً للغاية، في وقت كانت تقوم فيه الطائرات النفَّاثة الأَمريكيَّة الصنع، بقصف ضواحي القاهرة

(36) Korn, Stalemate, PP. 174-92.

بدون عقاب، وكان الإسرائيليون يعلنون فعلاً أن هدفهم هو إسقاط عبد الناصر. وفي الوقت نفسه لم يكن بوسع الولايات المتحدة أن تقف إلىٰ أجل غير مسمى تشاهد الأَسلحة، والأفراد السوفييت يتدفقون على مصر بدون ردّ فعل. وكان ردّ الفعل هذا يرتبط إلىٰ حد كبير بالسياسة الكونية بمقدار اتصالها بالشرق الأَوسط. وقد أصرّ كيسينجر بشكل خاص على هذه النقطة الأخيرة، كما أن تأثيره على نيكسون كان في صعود. وهذه الطبيعة الانفصامية إلىٰ حدّ ما في السياسة الأَمريكيَّة التي ستتجلَّى في الأشهر السبعة القادمة كانت تعود بجذورها إلىٰ ذلك التنازع البيروقراطي والتنازع في المفاهيم.

استئناف الدبلوماسيَّة ومتابعة إرسال الأَسلحة إلىٰ إسرائيل

جاءت الدلائل الأولى للنغمة الجديدة في السياسة الأَمريكيَّة تجاه الشرق الأَوسط، بعد إجهاض جهود روجرز، في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1970، وحاول الرئيس نيكسون من خلال عدة بيانات عامة، أن يُصلح العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية، وأن يحذِّر الاتّحاد السوفييتي من عواقب سياسته غير المتعاوِنة في المنطقة. وفي الثلاثين من الشهر المذكور فاجأ نيكسون العاملين معه والإسرائيليين، بأنه سيعلن قراره بشأن طلبات الأَسلحة الإسرائيلية المعلقة في غضون 30 يوماً. وكانت مسألة، تزويد إسرائيل بالسِّلاح قد أضحت حادة بشكل خاص، في أعقاب القرار الفرنسي ببيع ليبيا ما يزيد على 100 طائرة نفَّاثة من طراز ميراج، بعضها كان مخصصاً في الأصل لإسرائيل.

وفيما كان نيكسون يسعى إلىٰ إصلاح الأمور مع إسرائيل، كان الرئيس عبد الناصر يعمل على تسريع تدفق الأَسلحة، والمساعدات من الاتّحاد السوفييتي. وفي أوائل كانون الثاني/ يناير شرع الإسرائيليون، آخذين أخيراً بنصيحة سفيرهم في واشنطن، بحملة قصف جوي مكثفة في العمق المصري، بقصد إكراه عبد الناصر على إبعاد بعض قوَّاته عن منطقة القناة الحسَّاسة،

وكذلك بهدف كشف ضعفه أمام شعبه[37]. وقرَّر عبد الناصر رداً على ذلك القيام بزيارة سرية إلىٰ العاصمة السوفييتية. واستناداً إلىٰ المصادر المصرية فإن عبد الناصر لم يطلب فقط، دفاعاً صاروخياً فعَّالاً ضد طائرات الفانتوم الإسرائيلية، بل طلب أيضاً أفراداً وطيارين سوفييت للتأكد من أن شبكة الصواريخ تُدار بصورة فعَّالة، في الوقت الذي يعكف فيه المصريُّون على التدريب على الأَسلحة الجديدة[38]. وكان رد السوفييت إيجابياً، وتدفقت في شهر آذار/ مارس أعداد كبيرة من المستشارين، وكميات ضخمة من السِّلاح على مصر.

لم يكن تصعيد الدور السوفييتي في الصّراع مفاجأة تامة في واشنطن. إذ أن رئيس الوزراء كوسيغين، كان قد أكَّد في رسالة بالغة الصراحة إلىٰ نيكسون في 31 كانون الثاني/ يناير: «نود أن نعلمكم بكل صراحة أنه إذا استمرت إسرائيل في سياستها المغامرة بضرب أَراضي ج. ع. م والدول العربية

---

(37) نقل رايموند أندرسون عن ديان في مقاله المنشور في جريدة «النيويورك تايمز»، Raymond H., Anderson, «Israeli Jets Raid Suburbs of Cairo; Shoppers Watch,» New York Times, January 29, 1970, P. 1, قوله أن من أغراض قصف مصر بالطائرات إيقاف الشعب المصري في عقر داره على حقيقة الحرب» فنحن نقول لهم: «انظروا الآن. إن زعماءكم لا يفعلون بكم خيراً». وقد التقطت نفس هذه الفكرة في التعليقات التي أفضت بها رئيسة الوزراء مائير لجريدة «لوموند» بتاريخ 18 ـ 19 كانون الثاني 1970.

(38) هناك جدل حول ما تقرر فعلاً أثناء زيارة السادات لموسكو في كانون الأول/ ديسمبر، وحول ما أحرزه عبد الناصر بزيارته في الشهر التالي. انظر: (Mohamed Heikal, The Road to Ramadan Quadrangle Books, 1975) PP. 89-80 وانظر أيضاً: Uri Ra'anan, «The USSR and the Middle East: Some Reflections on the Soviet Decision-Making Process,» ORBIS, vol. 17 (Fall 1973), PP. 946-77 ففي هذا المرجع ما يرجح أن قرار إرسال القوات السوفييتية قد اتخذ قبل زيارة عبد الناصر. وأياً كانت الحقيقة، فالبادي أن معظم المسؤولين في واشنطن كانوا يعتقدون بأن القصف الإسرائيلي في العمق كان هو السبب في تعظيم الدور السوفييتي في القتال. ومن هنا كانوا مترددين في تأييد الطلب الإسرائيلي للحصول على مزيد من طائرات «اف ـ 4» في الربيع، على الرغم من الحشد السوفييتي. انظر Korn, Stalemate, PP. 189-97.

الأخرى، فإن الاتّحاد السوفييتي سيضطر إلىٰ العمل على أن تكون تحت تصرف الدول العربية، الوسائل التي تساعدها على الردع الملائم على المعتدي الغاشم»[39].

نقل كيسينجر رسالة كوسيغين إلىٰ نيكسون منوّهاً بأنّها أول تهديد سوفييتي لإدارته. وأوصى كيسينجر بجواب قاس، وهو الجواب الذي كان منتظراً في 4 شباط/ فبراير[40]. ورفض الرئيس نيكسون محاولة السوفييت وضع اللوم على إسرائيل وحدها بسبب القتال، ودعا إلىٰ إعادة إحياء فورية لوقف القتال، وإلىٰ تفاهم حول الحدّ من شحنات الأسلحة إلىٰ المنطقة.

ويبدو أن نيكسون الذي جُوبه بموقف سوفييتي صارم، كان ميّالاً إلىٰ اتخاذ قرار مبكر وإيجابي بشأن طلبات السِّلاح الإسرائيلية. وكان سائر الجهاز البيروقراطي يعارض بصورة عامة، تزويد إسرائيل بمزيد من طائرات الفانتوم، بحجّة أن التفوّق العسكري الإسرائيلي ما يزال واضحاً، وأن شحنات السِّلاح السوفييتي كانت رداً على الحملة الإسرائيلية الطائشة، بضرب العمق المصري بطائرات الفانتوم[41].

وفي شهر آذار/ مارس، وبعد عدة بوادر من جانب السوفييت تدل على الاعتدال، التقى كيسينجر برابين ليعلمه بقرار وشيك، يقضي بتجميد طلبات إسرائيل من الطائرات. كما أبلغ رابين في الوقت نفسه أن الإمدادات الجديدة من الطائرات ستأتي في الوقت المحدد، على ألاّ تقترن عمليات التسليم بكثير من الجعجعة. ثم التقى رابين نيكسون الذي أعاد التأكيد على تلك النقاط،

---

(39) النص الكامل للمذكرة السوفييتية وارد في «Nixon-Kosygin Letters,» Arab Report and Record, March 1-15, 1970, P. 167l.

(40) Kissinger, White House Years, PP. 560-61.

(41) كان من رأي رئيس الأركان المشتركة أن الطائرات المائة من طراز «أ ـ 4» ينبغي بيعها، دون الطائرات «اف ـ 4».

وحذره بأن على إسرائيل أن تأخذ في الحسبان، في هجومها، صواريخ مصر الجديدة المنتشرة من نوع سام ـ 3[42].

وأخيراً أعلن وزير الخارجيَّة روجرز في 23 آذار/ مارس عن قرار الرئيس نيكسون بتجميد طلب إسرائيل للحصول على 100 طائرة من طراز «آ ـ 4»، و25 طائرة من طراز «ف ـ 4» حتى إشعار آخر. وعرض من باب التعويض إئتمانات اقتصادية بقيمة 100 مليون دولار[43].

اقتراب من مصر

في محاولة للبناء على المصداقية المحدودة التي تولَّدت لدى العرب، بالنسبة لقرار (تجميد بيع) الفانتوم قرَّرت الإدارة، إيفاد جوزف سيسكو إلىٰ القاهرة، من أجل إجراء محادثات مباشرة مع عبد الناصر. وكان السوفييت قد ذكروا أن عبد الناصر مستعد لتقديم تنازلات، وأن على الأمريكيين أن يكتشفوا ذلك بأنفسهم. وحاول سيسكو خلال إقامته في القاهرة من 10 ـ 14 نيسان/ أبريل، أن يدعو عبد الناصر أساساً إلىٰ محاولة التعامل مع الولايات المتحدة على أنَّها وسيط نزيه[44]. ومع أن عبد الناصر لم يكن لديه إلاَّ القليل من

---

(42) Rabin, Rabin Memoirs, PP. 169-72; and Kissinger, White House Years, PP. 568-70.

(43) كما أن عبد الناصر حذّر في أواسط شباط/ فبراير من أن الولايات المتّحدة، ستخسر مصالحها الاقتصادية في العالم العربي خلال عامين إذا هي وافقت على بيع طائرات نفّاثة إضافية من طراز الفانتوم إلىٰ إشرائيل. انظر:

James Reston, «Excerpts from Interview with President Gamal Abdel Nasser of the U.A.R.» New York Times, February 15. 1970, P. 18.

(44) يؤخذ من تقرير سيسكو عن الاجتماع بعبد الناصر يوم 12 نيسان/ أبريل 1970 أن الزعيم المصري في حالة ذهنية شديدة المرارة. وقد جاء في تقرير سيسكو إن عبد الناصر قال إنه «ليس لدي ثقة في حكومة الولايات المتّحدة. والولايات المتّحدة قوية، ولا ترى الجمهورية العربية المتحدة أماناً لها إلاَّ في الاتّحاد السوفييتي الذي ينبغي أن نعتمد عليه اعتماداً تاماً. وقال عبد الناصر إنه لذلك يؤثر إجراء حوار من خلال السوفييت بدلاً من أن يكون مباشرة مع الولايات المتّحدة». وبرغم العبارات الجافة، كان عبد الناصر ـ كمألوف عادته ـ ودوداً =

الأسباب، التي تدعوه أن يأمل الكثير من الولايات المتحدة، إلاَّ أن معاناته من الخسائر الفادحة في مواصلة القتال مع الإسرائيليين، وتزايد اعتماده على السوفييت، قد جعلاه يرى أن اتخاذ موقف إيجابي من الأمريكيين، ربما يحول دون إرسال شحنات جديدة من طائرات الفانتوم إلىٰ إسرائيل. وجاء جواب عبد الناصر إلىٰ سيسكو في خطابه في الأول من أيار/ مايو والذي دعا فيه الولايات المتحدة إلىٰ اتخاذ مبادرة سياسية جديدة[45].

أحدثت زيارة سيسكو، وخطبة عبد الناصر، نقطة تحوّل في جانب من جوانب الدبلوماسيَّة الأمريكيَّة، ودفعت بوزارة الخارجيَّة، طوال الأشهر الثلاثة التالية، إلىٰ بذل جهود مكثّفة لإعادة إقرار وقف إطلاق النَّار. وكان ثمة خيط سياسي متواز، ومترابط جزئياً يشمل كلاً من إمدادات السلاح إلىٰ إسرائيل، وتنامي التورط السوفييتي في مصر. وقد تولى البيت الأبيض الإشراف على هذا الجانب من السياسة. وكان نيكسون قد أنكر استخدام إمدادات السِّلاح كنوع من

= تجاه سيسكو، وقال إنه يريد الإبقاء على الباب مفتوحاً، وأضاف إنه على استعداد لإبرام سلام مع إسرائيل، ولكن ذلك لم يتم إلاَّ إذا تمت تلبية جميع مطالب العرب. انظر برقية سيسكو التي تضمَّنت تقريراً عن اجتماع 12 نيسان/ أبريل 1970. برقية وزارة الخارجيَّة، القاهرة 803 و13 نيسان/ أبريل 1970، سرية/ لا توزع (لم تعد من المصنَّفات السرِّيَّة في 3 أيلول/ سبتمبر 1990).

(45) جاء في نداء «أخير» من عبد الناصر ردّده في خطاب إلىٰ الرئيس نيكسون في اليوم التالي قوله: «إن الولايات المتّحدة إذ تتخذ خطوة واحدة أخرى في الطريق إلىٰ تأكيد التفوّق العسكري لإسرائيل، تفرض على الأمة العربية مساراً لا رجعة فيه وعلينا أن نستخلص منه النتيجة الضرورية. إن هذا سيؤثّر في علاقات الولايات المتّحدة الأمريكيَّة بالأمة العربية لعقود من الزمان، وربما لمئات من السنين.. ولن نغلق الباب بصورة نهائية أمام الولايات المتّحدة الأمريكيَّة على الرغم من الإساءات إلينا، وعلى الرغم من القنابل والنابالم وطائرات الفانتوم.. أقول للرئيس نيكسون إن لحظة حاسمة في العلاقات العربية الأمريكيَّة أصبحت وشيكة. فإما أن تكون هناك قطيعة إلىٰ الأبد، وإما أن تكون هناك بداية أخرى جادّة ومحددة. إن التطورات الوشيكة لن تؤثّر في العلاقات العربية الأمريكيَّة وحسب، ولكنها ستكون ذات آثار أوسع وأبعد مدى». يظهر جزء من النص في: «Nasser Appeals to Nixon on U. S. Arab Relations,» Arab Report and Record, May 1-15, 1979, P. 276.

الضغط على إسرائيل، بيد أن هذه الأسطورة قد سقطت في الأشهر التالية.

كان النصف الثاني من شهر نيسان/ أبريل فترة مهمَّة في الشرق الأَوسط، وكذلك بالنسبة للسياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة عموماً. ففي المنطقة حالت أعمال العنف في الأردن دون زيارة سيسكو لعمان، وطلب الملك حسين استبدال السفير الأَمريكي هناك. وفي مصر شوهد الطيّارون السوفييت لأول مرة وهم يقومون بدوريات قتالية في 18 نيسان/ أبريل. وبعد بضعة أيام بدأ الرئيس نيكسون يخطِّط للقيام بتحرّك عسكري جريء، ومثير للخلافات في كمبوديا. وبدأت هذه العمليَّة في 30 نيسان/ أبريل، وسرعان ما اندلع العنف في حرم الجامعات، واستقال عدد من مساعدي كيسينجر المقرَّبين من مناصبهم. وساد واشنطن جو من التوتر الشديد. وفي خضم هذه الأجواء، ورغم انشغال نيكسون بقضايا أخرى، فقد أمر أخيراً بإجراء تحقيق كامل حول الدور السوفييتي المتزايد في مصر.

وفي 21 أيار/ مايو التقى نيكسون بوزير الخارجيَّة الإسرائيلي أبا إيبان، حيث أكَّد له أن تدفق المعدات العسكرية إلىٰ إسرائيل سوف يُستأنف بهدوء وحض على عدم الإعلان عن ذلك. ولم يعط التزاماً محدّداً بشأن طائرات «آ ـ 4» و«ف ـ 4»، ولكنه أوضح أن ما تبقى من طائرات بموجب اتفاق عام 1968 سوف تُسلّم بدون شروط[46]. وبالمقابل طلب نيكسون بياناً إسرائيلياً علنياً، يشير إلىٰ درجة من المرونة بالنسبة لشروط التسوية. وجاء هذا البيان وشيكاً عندما أعلنت رئيسة الوزراء مائير رسمياً، أن إسرائيل مستمرة في قبول قرار الأُمم المتَّحدة 242 أساساً للتسوية، وأنَّها ستوافق على صيغة ما تشبه صيغة رودوس للمباحثات[47].

---

(46) كرّرت هذه النقطة في خطاب من الرئيس نيكسون إلىٰ رئيسة الوزراء مائير بتاريخ 20 حزيران/ يونيو 1970، بعد طرح مبادرة روجرز الثانية بوقت قصير. انظر: Rafael, Destination Peace, P. 215.

(47) كان في اعتقاد مائير أن إسرائيل لم تقبل مطلقاً قرار الأُمم المتَّحدة 242، على الرغم من =

اجتمع مجلس الأَمن القومي في العاشر، والثامن عشر من حزيران/ يونيو/ يونيو لمناقشة الوضع في الشرق الأَوسط[48]. وفوَّض الرئيس وزيره روجرز[*]، بأن يطلب من الفرقاء المعنيين الموافقة على وقف لإِطلاق النَّار لمدة 3 أشهر على الأقل، واستئناف المباحثات تحت رعاية السفير يارينغ. وتم هذا في 19 من حزيران/ يونيو[49]. وكشف روجرز عن المبادرة علناً في 25 حزيران/ يونيو.

وكان رد إِسرائيل الفوري هو رفض النداء. بيد أن السفير رابين امتنع عن تسليم مذكرة الرفض الرسمي، وفي غضون الشهر التالي كرَّس البيت الأَبيض جهداً كبيراً، لحثّ الإِسرائيليين على القبول بالمبادرات الجديدة[50].

وكانت الخطوة الأولى في الحملة، إِعادة التأكيد للإِسرائيليين على استمرار شحنات الأَسلحة. وهذا ما تم بموجب رسالة بعث بها نيكسون إِلىٰ غولدا مائير في 20 حزيران/ يونيو. ونُقل عن كيسينجر أنَّه قال في 26 حزيران/ يونيو:

«نحاول التوصّل إِلىٰ تسوية بطريقة تعزِّز الأنظمة المعتدلة، وليس الأَنظمة

= أن سفير إِسرائيل لدى الأُمم المتَّحدة فعل ذلك علانية في عام 1968. انظر: Rafael, Destinations Peace, P. 215.

(48) اندلعت في الأسبوع الثاني من حزيران/ يونيو أَزمة صغيرة في الأردن، عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش باحتجاز رهائن، منهم أَمريكيون، في فندقين في عمّان، وفي 12 حزيران/ يونيو أمر الرئيس نيكسون الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً بأن تكون في حالة تأهّب.

(*) بموجب مذكرة مجلس الأَمن القومي رقم 62.

(49) انظر نص خطاب روجرز إِلىٰ وزير الخارجيَّة المصري رياض بتاريخ 19 حزيران/ يونيو 1970 في جريدة «النيويورك تايمز» بتاريخ 23 تموز/ يوليو 1970، ص 2 وانظر أيضاً: U. S. Initiative toward Peace in the Middle East,» Department of State Bulletin, vol. 63 (August 10, 1970). PP. 178-79.

(50) للوقوف على تفاصيل الرد الإِسرائيلي انظر: Michael Brecher, Decisisions in Israel's Foreign Policy (Yale University Press, 1975), chap. 8.

الراديكاليَّة. كما نحاول إقصاء الوجود العسكري السوفييتي، ولا أقصد المستشارين بالدرجة الأولى، بل الطيارين والأفراد المقاتلين قبل أن تترسخ أقدامهم»[51].

على الرغم من استمرار امتناع الإدارة عن التزامات جديدة بشأن الطائرات، إلاَّ أنَّها أصبحت الآن مستعدة لمساعدة إسرائيل في ضرب صواريخ سام بمعدات متطورة جديدة. وأمر الرئيس أيضاً في 10 تموز/ يوليو بشحن طائرات «آ ـ 4» و«ف ـ 4» المتبقية من العقد القديم إلىٰ إسرائيل بخطى متسارعة[52].

وكان الرئيس عبد الناصر قد سافر إلىٰ موسكو في 29 حزيران/ يونيو، طلباً للاستشفاء بالدرجة الأولى. وأثناء وجوده هناك ناقش مع الزعماء السوفييت الاقتراح الأَمريكي، وذكر أنه أعلمهم بنيته القبول به[53]. وكان من شأن هذا، كحدّ أدنى، أن يتيح له فرصة لالتقاط الأنفاس حتى يستكمل بناء «حائط الصواريخ». وبالتالي فقد وافق عبد الناصر بعد فترة قصيرة من عودته من موسكو، في 22 تموز/ يوليو، على مبادرة روجرز التي أُعلن عنها في 19 حزيران/ يونيو[54]، بدون شروط. وفي 26 من تموز/ يوليو وافق الأردن كذلك[55].

---

(51) Marvin Kalb and Bernard Kalb, Kissinger (Little, Brown, 1974), P. 193.

(52) تمّ تسليم جميع الطائرات النفَّاثة بموجب عقد كانون الأول/ ديسمبر 1968 قبل نهاية شهر آب/ أغسطس 1970. انظر: Tab Szulc, «U. S. Mideast Plan Urges Both Sides to «Start Talking», New York times, June, 26, 1970, P. 1 ويؤخذ مما جاء في هذا المقال أن تطمينات مجدّدة أعطيت للإسرائيليين بأنه سيسمح لهم بشراء طائرات إضافية إذا فشل اقتراح وقف إطلاق النار بتاريخ 19 حزيران/ يونيو، أَو إذا انهار.

(53) Heikal, Road to Ramadan, P. 93 - 95.

(54) قبلت مصر شفاهة الاقتراح الأَمريكي «بلا قيد أَو شرط» أما الرد التحريري الرسمي اللاحق فقد اتسم بالتحفّظ نوعاً ما.

(55) ما دام الأردن وإسرائيل يحترمان وقف إطلاق النار بصورة رسمية، فللمرء أن يسأل =

كان على الولايات المتحدة الآن أن تحصل على جواب إسرائيلي إيجابي، أو تخاطر بانهيار دبلوماسيَّتها في الشرق الأوسط. في 23 تموز/ يوليو كتب الرئيس نيكسون رسالة إلىٰ رئيسة الوزراء مائير يحضّها فيها على قبول إسرائيل بالاقتراح، وقدَّم لها عدداً من الالتزامات المهمّة: أولها أن الولايات المتحدة لن تصرّ على موافقة إسرائيل على التفسير العربي لقرار الأُمم المتَّحدة 242. وثانيها أن إسرائيل لن تُرغم على قبول تسوية لمشكلة اللاجئين، يمكن أن تغيّر جوهرياً من الطابع اليهودي للدولة أو يعرض أمنها للخطر. وثالثها، وهو أهمها في تلك المرحلة بالنسبة للإسرائيليين، أنه لن يُطلب من إسرائيل أن تسحب قوَّاتها من المناطق المحتلة، «حتى يتحقَّق اتفاق سلام تعاقدي مُلزم ومُرضٍ لكم». وبالإضافة إلىٰ ذلك وعد نيكسون بالاستمرار في تزويد إسرائيل بالسِّلاح.

سعت رئيسة الوزراء مائير في جوابها إلىٰ الحصول على ضمانات، بأن يُسمح لإسرائيل بالحصول على صواريخ شرايك وطائرات الفانتوم، وأن تُسحب مبادرة روجرز، وأن تستخدم الولايات المتحدة حق الفيتو ضد أية قرارات معادية لإسرائيل في الأُمم المتَّحدة[56]. وتلقت إسرائيل التزاماً أمريكياً

= عن السبب، في أن الأردن قد أدرج ضمن مبادرة رورجز الثانية. ويبدو أن الرد هو أن الولايات المتّحدة كانت ترغب في أن تتأكّد من أن كلا من مصر والأردن سيلتزم بالسيطرة على الفدائيين، الذين كان يتوقع منهم معارضة أي تسوية سلمية تستند إلىٰ خطة رورجز. وعند قبول الملك حسين لاقتراح روجرز بتاريخ 19 حزيران/ يونيو، كما يفهم بكل وضوح بأنّه سيعتبر مسؤولاً عن منع جميع أعمال العنف الناشئة من أراضيه. وقد أفهم مجلس وزرائه قبل قبوله للاقتراح أن هذا يعني مزيداً من المصادمات العسكرية مع الفدائيين.

(56) Michael Brecher, Decisions in Israel's Foreign Policy (Yale University Press, 1975), PP. 493-94; and Ariyeh Tsimaqi, «The Message That Tipped the Balance,» Yedi'ot Aharonot, July 31, 1970. P. 4.

وقد وصل الخطاب إلىٰ إسرائيل في 24 تموز/ يوليو.

Brecher, Decisions in Israel's Foreign Policy, P. 495 يضاف إلىٰ هذا أن الرئيس نيكسون قال في مؤتمر صحفي في 30 تموز/ يوليو أن الولايات المتّحدة «ملتزمة بالمحافظة على =

فيما يتعلّق بالسِّلاح فقط، وكان هذا على ما يبدو كافياً لمائير كي توافق على المبادرة الأَمريكيَّة الصادرة في 31 تموز/ يوليو، مع تحفظات واضحة[57]. وكان الطيارون الإِسرائيليون قد أسقطوا في اليوم السابق أربع طائرات سوڤييتية من نوع ميغ ـ 21 فوق مصر.

وفي السابع من آب/ أغسطس دخل وقف إِطلاق النَّار لمدة 3 أشهر حيّز التنفيذ، مع اشتراط توقف الأعمال القتالية في منطقة عرضها 50 كيلومتراً على كلا جانبي قناة السويس. وفي وزارة الخارجيَّة كان هناك شعور عام بالفرحة، إِلاَّ أن ذلك الشعور لم يدم طويلاً[58].

نهاية توازن دقيق

مرّت سياسة إِدارة نيكسون في الشرق الأَوسط، في الفترة ما بين كانون الثاني/ يناير 1969 وآب/ أغسطس 1970 بمرحلتين. ففي غضون السنة الأولى كان ثمة توافق واضح في الآراء، حول ضرورة تصدر وزارة الخارجيَّة لعملية التفاوض مع الاتّحاد السوڤييتي، لوضع مجموعة من المبادىء التي تحدِّد بشيء

= توازن القوى في الشرق الأَوسط. وقد أيّد هذا التصريح واحد وسبعون عضواً في مجلس الشيوخ في خطاب موجّه إِلي تلقيته اليوم». ومضى نيكسون فأكّد لإِسرائيل من جديد أنّها لن تواجه خطر حشد عسكري خلال وقف إِطلاق النار، إذ سيكون هناك توقف عسكري تام خلال هذه الفترة. نص المقابلة الصحفية وارد في: «President Nixon's News Conference of July 30,» Department of State Bulletin, vol. 63 (August 17, 1970), PP. 185-87 وهناك خطاب موقّع عليه من ثلاثة وسبعين عضواً في مجلس الشيوخ أُرسل إِلىٰ وزير الخارجيَّة روجرز في أول حزيران/ يونيو يحثّ على بيع مائة طائرة من طراز «أ ـ 4» وطراز «اف ـ 4» ونص هذا الخطاب والتوقيعات منشور في: Congressional Quarterly Weekly Report. Vol. 28 (June 5, 1970), P. 1475.

(57) انظر خطبة رئيسة الوزراء مائير في الكنيست، 4 آب/ أغسطس 1970، منشورة في جريدة الجيروزاليم بوست، 5 آب/ أغسطس 1970، ص 3.

(58) انظر نص اتّفاقية وقف إِطلاق النار في: Arab Report and Record, Augsut 1-15, 1970, P. 457 أما الردود المصرية الأردنية والإِسرائيلية على اقتراح روجرز بتاريخ 19 حزيران/ يونيو، فمنشورة في المصدر السابق على الصفحات 458 ـ 460.

من التفصيل، شروط التسوية العربية ـ الإسرائيلية. واتخذت الإدارة، كجزء من هذه السياسة، موقفاً متشدّداً من اتفاقات تسليح جديدة مع إسرائيل.

كانت هذه السياسة تنطوي على مفهومين متناقضين ضمناً. الأول يرى أن الشرق الأَوسط هو قضية من قضايا السياسة الدولية بالدرجة الأولى، وهو ما يمثّل وجهة نظر نيكسون وكيسينجر بشكل واضح. وقد أبرزت وجهة النظر هذه خطورة المواجهة بين القوتين العظميين، والرغبة في محادثات أَمريكيَّة ـ سوفييتية. أما وجهة النظر الأخرى فقد شدَّدت على الروابط الإقليمية أكثر مما شدَّدت على «الروابط» العالمية. كما أكَّدت على أن مركز أَمريكا في الشرق الأَوسط يتآكل، وأن الراديكاليَّة(*) في المنطقة باتت حتمية في غياب اتفاقية سلام. وقد ظلَّت هاتان المقاربتان متوافقتين في سياسة واحدة في ظل استمرار السوفييت في التعاون، وبقاء النِّزاع الإقليمي ضمن حدود يمكن التحكّم بها.

بدأت المرحلة الثانية من مراحل السياسة الشرق ـ أَوسطية مع إخفاق «خطة روجرز»، وتصاعد التورط السوفييتي في مصر في بداية 1970. وكان التحوّل في السياسة نتيجة لهذين التطورين في الشرق الأَوسط، والنفوذ المتنامي لهنري كيسينجر في سياسة الشرق الأَوسط الذي ما انفكّ ينتقد طريقة روجرز في معالجة دبلوماسيَّة تلك المنطقة.

أدَّى احتدام القتال على طول القناة، والدور المتصاعد للفدائيين الفلسطينيين في الأردن، إلىٰ التأكيد على مخاوف خبراء وزارة الخارجيَّة. وكان رأيهم أن أفضل سبيل لدفع هذه التوجهات بعيداً، هو طرح مبادرة دبلوماسيَّة جديدة، أقل طموحاً في مداها هذه المرة من «خطة روجرز»، وأقل اعتماداً على تعاون السوفييت. وهذا ما أدَّى إلىٰ طرح اقتراح مباشر على كلا الجانبين في 19 حزيران/ يونيو، يقضي «بوقف إطلاق النَّار وبدء المباحثات».

(*) المقصود بالراديكالية هنا الاتجاهات «الثورية» واليسارية ـ المترجم.

تعرَّضت وجهتي النظر ـ وزارة الخارجيَّة، والبيت الأَبيض ـ هاتين لخطر الاصطدام بقضية واحدة، وهي إمداد إسرائيل بالسِّلاح. فاتفاقيات السِّلاح الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية الجديدة يمكن أن تدفع عبد الناصر إلىٰ رفض المبادرة الأَمريكيَّة، وتقدِّم للعرب «الثوريين» حججاً قوية يستخدمونها ضد الولايات المتحدة.

أدرك نيكسون ذلك الخطر، لذا فقد عالج مشكلة الأَسلحة بحذر[59]. وحاول قبل كل شيء أن يضمن أن تكون إمدادات السِّلاح إلىٰ إسرائيل، متلازمة مع موافقة إسرائيلية على المبادرة الأَمريكيَّة الجديدة.

مع دخول وقف إطلاق النَّار حيّز التنفيذ في 7 آب/ أغسطس، بدا لكل من وزارة الخارجيَّة والرئيس، أنهما يمكن أن يشعرا بالرضى لأن سياساتهما المفضلة قد تكلَّلت بالنجاح. ولكن في غضون أيام بدأ انتهاك شروط وقف إطلاق النَّار، وظهرت بوادر أزمة جديدة. وتداعى التوازن الضعيف الهشّ ما بين وزارة الخارجيَّة وكيسينجر، الذي عارض مبادرة وقف إطلاق النَّار[60]. ومع انتهاء الأَزمة التالية كان كيسينجر قد اكتسب نيكسون إلىٰ صفه، أما أولئك العاملون في الخارجيَّة الذين كانوا يدعون إلىٰ عدم التحيّز، فقد أُبعدوا عملياً عن مركز الحدث.

مع صمت المدافع على طول قناة السويس، في 7 آب/ أغسطس 1970، بدأ طور جديد من أطوار النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. ومن دواعي السخرية أن

---

(59) من ذلك مثلاً أن نيكسون أكّد في مؤتمره الصحفي بتاريخ 20 تموز/ يوليو 1970 أهمية مبادرة السَّلام التي كان يجري إعدادها وقتذاك بقوله «هذا هو السبب الذي من أجله لم نعلن عن أي بيع للطائرات أَو تسليم للطائرات إلىٰ إسرائيل في هذا الوقت، لأننا نريد إتاحة كل فرصة للنجاح أمام مبادرة السلام المذكورة» جريدة «النيويورك تايمز»، 21 تموز/ يوليو 1970، ص 16.

(60) انظر: William Safire, Before the Fall: An Inside View of the Pre-Watergate White House (Doubleday, 1975), P. 394.

وقف إطلاق النَّار، قد أطلق العنان لقوى سارعت إلىٰ تقويض آفاق محادثات السلام، ودفعت بالأَزمة ـ بدلاً من ذلك ـ إلىٰ مخاطرة لا سابق لها بالنسبة لإدارة نيكسون.

فخلال شهري آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر كان نيكسون ومستشاره للأمن القومي كيسينجر، مستغرقين على نحو متزايد في أَزمة الشرق الأَوسط. وكانا ينظران بارتياب إلىٰ النوايا السوفييتية، وحين شرعا في إعادة صياغة السياسة الأَمريكيَّة في خضم الحرب الأهلية الأردنية، كان التطور الأَمريكي ـ السوفييتي يهيمن على تفكيرهما. وكانت النتيجة وضع توصيف جديد للقضايا في الشرق الأَوسط، وتفهّم منقح للديناميكيّات السياسية في المنطقة، حيث باتت العلاقة الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية تعتبر مفتاح محاربة النفوذ السوفييتي في العالم العربي وتحقيق الاستقرار.

وكان من وجهة نظر إدارة نيكسون أن أَزمة الأردن قد عُولجت بنجاح: فقد بقي الملك حسين في السلطة، وسُحق المقاتلون الفدائيّون، وتعزَّزت العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية، وأجبر الاتّحاد السوفييتي على التراجع واضعاً أصدقاءه السوريين تحت الضغط الأَمريكي ـ الإسرائيلي. وجاءت وفاة عبد الناصر أخيراً، عند اقتراب الأَزمة من نهايتها، لتفتح الطريق كما بدا أمام سياسة خارجيَّة مصرية أكثر اعتدالاً. وقد تبيَّن أن هذه الصورة كانت زائفة من عدة وجوه، ولكنَّها ظلّت لفترة تقارب ثلاث سنوات مسوّغاً لسياسة أَمريكيَّة جديدة، تهدف بالدرجة الأولى إلىٰ تقليص النفوذ السوفييتي في مصر، وذلك من خلال الإمداد السخي لإسرائيل بالسِّلاح الأَمريكي.

خطف الطائرات

عندما وافقت كل من مصر والأردن وإسرائيل، على وقف لإطلاق النَّار ترعاه الولايات المتحدة في أواخر تموز/ يوليو 1970، كان ذلك بمثابة إشارة خطر بالنسبة للفدائيين الفلسطينيين. وكان الفدائيون قد نجحوا منذ شهر شباط/

فبراير 1970 فصاعداً، في تحجيم سلطة الملك حسين إلىٰ حدّ أنهم أصبحوا حقاً دولة داخل دولة. أما الآن فقد أصبح مركزهم معرضاً للخطر نظراً لأن الرئيس عبد الناصر، سندهم الأكبر، قد انضم إلىٰ الملك حسين في تسوية سياسية لا يمكن إلاّ أن تكون على حسابهم.

وصلت حركة الفدائيين إلىٰ منعطفات حاسمة في أواخر شهر آب/ أغسطس عام 1970، عندما عقدت دورة طارئة لـ «المجلس الوطني» في عمان[61]. فقد طالبت بعض المجموعات المتطرّفة بالإطاحة بالمملكة الهاشمية، ولكن حركة «فتح»، كبرى المنظمات الفلسطينية بزعامة عرفات استمرت في المناورة كسباً للوقت. وقبل أن يتحقَّق أي إجماع قامت «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» (PFLP) المنفردة، التي يقودها جورج حبش، بخطف ثلاث طائرات تجارية نفَّاثة في السادس من أيلول/ سبتمبر. وفي التاسع منه خطفت طائرة أخرى وجهت إلىٰ «مطار ورسون» في الصحراء الأردنية[62]. وبلغ مجموع الرهائن الذين احتجزتهم الجبهة حوالي 500 رهينة كان بينهم كثير من الأَمريكيين.

كان الهدف المعلن للجبهة هو إجبار إسرائيل على تحرير الفدائيين الأسرى الذين تعتقلهم. أما الهدف الأبعد فهو أن الجبهة كانت تسعى إلىٰ إظهار التقدّم على المجموعات الفلسطينية الأخرى، بالظهور بمظهر الأشد تصلّباً منها. والأخطر من ذلك أن «الجبهة» كانت تحرّض على المجابهة، ما بين الحركة الفدائية والحسين، بمساندة من العراق وسورية. وكان للعراق ما يقارب

---

(61) انظر: William B. Quandt and others, The Politics of Palestinian Nationalism (University of California Press, 1973), PP. 124-28.

(62) علّقت منظّمة التّحرير الفلسطينية عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اللجنة المركزية بصورة مؤقتة بسبب إقدامها دون إذن على خطف الطائرات، ولكنها رحّبت بعودتها بمجرد اندلاع نيران القتال في 16 أيلول/ سبتمبر.

20 ألف جندي في الأردن، أما الجيش السوري فقد اخترق الحدود في مسيرة سهلة إلىٰ عمّان استغرقت يومين.

كانت الولايات المتحدة قلقة بشأن موقف الملك حسين الذي ازداد ضعفاً. وكذلك الوضع في لبنان كان باعثاً على القلق. ولم يكن من المستبعد أن يسيطر الراديكاليون على هذين البلدين المعتدلين، حالما يبدو عبد الناصر مستعداً لتسوية مع إسرائيل. وفي 17 حزيران/ يونيو اجتمع «مجلس الأَمن القومي» لمناقشة احتمالات التدخل العسكري الأَمريكي، إذا ما تعرّض لبنان أَو الأردن للتهديد. واستناداً إلىٰ ما ذكره كيسينجر فإن نيكسون تحدَّث عن هذين الاحتمالين قائلاً: «دعونا نفترض أن لبنان أَو الأردن تقدما إلينا بطلب للمساعدة في أواخر هذا الصيف.. عندئذ يحين الوقت لاختبار مصداقية الولايات المتحدة في المنطقة. وسيكون السؤال الحقيقي: هل نتصرَّف؟ ينبغي أن يدرس عملنا من هذا المنطلق. علينا أن نكون مستعدين.. فهل المسألة مسألة عسكرية أم مسألة مصداقيتنا كقوة في المنطقة؟»[63].

وبعد ذلك ببضعة أيام اجتمعت «مجموعة واشنطن للعمل الخاص» (WSAG)، وهي لجنة رفيعة المستوى تابعة لمجلس الأَمن القومي، تجتمع في وقت الأزمات ويرأسها كيسينجر، من أجل وضع خطة لهذه الاحتمالات في الشرق الأَوسط. وكانت الاستنتاجات باعثة على الكآبة: ستجد الولايات المتحدة صعوبة في إرسال قوَّات أرضية كبيرة إلىٰ المنطقة، بدون الوصول إلىٰ قواعد في شرق المتوسط. وقد يوفر الأسطول السادس قدراً من الدعم الجوي إذا كان متواجداً، وإلاَّ فإن القدرات العسكرية الأَمريكيَّة لن تكون مجدية. وإذا تطلّب الأمر خياراً عسكرياً جاداً، فإن إسرائيل هي في وضع أفضل بكثير لتأمين القوَّات الأَرضية والغطاء الجوي معاً، وخاصة في غضون فترة وجيزة، ولكن تلك المسألة تتسم بالحساسيَّة من الناحية السياسية.

---

(63) Kissinger, White House Years,. P. 597.

لا يرغب أي نظام عربي أن تكون إسرائيل هي المنقذ إذا كان هناك بديل آخر. بيد أن الحسين كان رجلاً واقعياً، وقد ذهب بعيداً في استطلاع موقف الولايات المتحدة في بداية آب/ أغسطس حول سلسلة الخيارات المتاحة، بما في ذلك التدخّل الإسرائيلي، إذا ما تحرّكت القوّات العراقية ضده. وفي نهاية شهر آب/ أغسطس أبلغ الملك السفارة الأمريكيّة في عمّان بأنّه قد يتخذ قريباً إجراءات حاسمة ضد الفدائيين، وأنّه يأمل أن يكون قادراً على الاعتماد على الولايات المتحدة.

عندما جوبه الحسين بتحدي خطف الطائرات، حاول أن يكسب الوقت عسكرياً. ولم تكن خياراته جذّابة. فهو إن وقف مكتوف الأيدي فإن الجيش الأردني قد يتحرّك من تلقاء نفسه لمواجهة الفدائيين، وبذا يقضي على سلطته. وإذا أقدم على عمل ما فقد تتدخّل سورية أو العراق. وكان الحسين يعرف أن الجيش كفيل بمعالجة أمر الفدائيين وحدهم، ولكن ماذا عن أصدقائهم؟ لذا كان الحسين مضطراً للتطلّع إلىٰ تأييد محتمل ضد تدخل خارجي، وهذا يعني تأييد الولايات المتحدة وإسرائيل.

كان رد الفعل الأمريكي الأولي تجاه خطف الطائرات حذراً. وشعر روجرز أنه لا يمكن فعل الكثير. أما نيكسون فكان، على النقيض من ذلك، يريد استغلال الأزمة باعتبارها ذريعة لضرب الفدائيين، وذهب بعيداً في هذا الاتجاه، إلىٰ حد قصف معاقل الفدائيين بالقنابل. وأفاد وزير الدفاع ميلفين ليرد أن الطقس لم يكن ملائماً لمثل هذه الهجمات، ولم يعد نيكسون إلىٰ إثارة هذا الموضوع ثانية. ولكن نيكسون كان مستعداً في بداية الأزمة، لاستخدام القوة الأمريكيّة أكثر من استعداده لتشجيع تدخّل إسرائيلي[64]. إذ كان من الضروري

(64) المرجع السابق ص 602 ـ 606، و: Seymour M. Hersh, The Price of Power: Kissinger: in the Nixon White House Years (Summit Books, 1983), P. 235.
Kissinger, White House Years, P. 606.

على الأقل البرهنة على ضرورة تحرير مئات الأَمريكيين في عمّان. أَو لعل فرصة تسنح لإنقاذ الرهائن ـ الذين أطلق سراح الكثيرين منهم في الأيام الأولى من الأَزمة ـ تلوح في الأفق. وكان نيكسون، إذا ما نظر أبعد قليلاً، يستطيع أن يرى مبرراً في استخدام القوة الأَمريكيَّة في شرقي المتوسط لردع تحركات السوفييت والسوريين والعراقيين.

ولما كان نيكسون مصمِّماً على اتخاذ موقف صارم، فقد أمر بسلسلة من التحرّكات العسكرية المتصاعدة حثيثاً كتعبير متعمّد على النوايا، ولتوفير قدرة تدخّل معتدلة إذا لزم الأمر. وفي 10 أيلول/ سبتمبر وضعت الفرقة 82 المحمولة جواً في مدينة فورت براغ، بولاية كارولينا الشمالية في حالة شبه تأهّب، وطارت ست طائرات نقل عسكرية من طراز «سي ـ 130» من أوروبا إلىٰ قاعدة إنجيرليك في تركيا، حيث ستكون مستعدّة لإجلاء الأَمريكيين من الأردن. وفي اليوم التالي بدأت وحدات من الأسطول السادس تغادر الميناء، كجزء من عملية أطلق عليها البيت الأَبيض اسم «احتياطات روتينية لأغراض الإجلاء في موقف كهذا». كما طارت 4 طائرات أخرى من نوع «سي ـ 130»، تحرسها 24 طائرة نفَّاثة من طرز ف ـ 4، إلىٰ تركيا. وفي اليوم نفسه كان الفدائيون قد فجَّروا الطائرات، ونقلوا الـ 54 رهينة المتبقين، 34 منهم كانوا أَمريكيين، إلىٰ مكان مجهول[65].

في 15 أيلول/ سبتمبر أبلغ الملك حسين البريطانيين، الذين اتصلوا فيما بعد بالولايات المتحدة، أنَّه سيشكِّل حكومة عسكرية بقصد التحرّك ضد الفدائيين. وأشار إلىٰ أنه قد يحتاج إلىٰ دعوة الولايات المتحدة وغيرها

(65) انظر: Elmo R. Zumwalt, Jr.., On Watch: A Memoir (Quadrangle, 1976), PP. 295-96, وفي هذا المرجع يورد المؤلف تقريراً عن اجتماع فريق العمل الخاص في واشنطن يوم 10 أيلول/ سبتمبر، وهو الاجتماع الذي عارض فيه ديفيد باكارد أي شكل من أشكال التدخل البري من جانب القوات الأَمريكيَّة في الأَزمة.

للمساعدة. وعندما وصل الخبر إلىٰ واشنطن سارع كيسينجر إلىٰ عقد اجتماع لفريق العمل الخاص في واشنطن في الساعة 10,30 ليلاً. وصدرت الأوامر بإجراء مزيد من التحرّكات العسكرية، حيث تتوجّه حاملة الطائرات «ساراتوغا» إلىٰ شرقي المتوسط، لتنضم إلىٰ «انديبندنس» أمام الساحل اللبناني، وتوضع الوحدات المحمولة جواً في ألمانيا الغربية في حالة شبه تأهّب، ويطير مزيد من طائرات «سي ـ 130» إلىٰ تركيا. وعلى الرغم من هذه الاستعدادات فقد تقرَّر ألاّ تحاول الولايات المتحدة بمفردها إنقاذ الرهائن، وإن كانت الإدارة مصمِّمة على إبقاء الملك حسين في السلطة(66).

الحرب الأهلية في الأردن

مع اندلاع القتال العنيف في الأردن بين الجيش والفدائيين في يومي 16 و17 أيلول/ سبتمبر واجهت الولايات المتحدة فجأة، مجموعة جديدة من المخاطر في الشرق الأوسط. فمن ناحية كان من الممكن أن يشعل الصّراع في الأردن فتيل حرب عربية ـ إسرائيلية إذا ما تدخّلت إسرائيل مباشرة. ومن الممكن عندئذٍ أن تنجر إليها كل من مصر والاتّحاد السوفييتي، وهو ما قد يؤدي إلىٰ مواجهة أمريكيَّة سوفييتية، وهذا ما كان يخشاه نيكسون وكيسينجر على الدوام. ويماثل هذا في الخطورة الإطاحة بالملك حسين؛ مما يعني أن يُهزم صديق حميم للولايات المتحدة على يد القوى الثورية المسلَّحة بأسلحة سوفييتية. وحتى لو لم يكن الاتّحاد السوفييتي متورِّطاً مباشرة فإن رمز انتصار الفدائيين سيؤول لمصلحة موسكو.

---

(66) Kalb and Kalb, Kissinger, P. 197, Henry Brandon. The Retreat of American Power: The Inside Story of How Nixon and Kissinger Changed American Foreign Policy for Years to Come (Doubleday, 1973), P. 133; Frank Van der Linden, Nixon's Quest for Peace (Robert B. Luce, 1972), P. 77; and Kissinger, White House Years, PP. 610-12.

كان نيكسون يرغب بوضوح أن يقوم الحسين بسحق الفدائيين، ولكنه كان يريد أيضاً أن يظل النِّزاع محصوراً ضمن الأردن. وكان الدور الأَمريكي في نظره ونظر كيسينجر هو تشجيع الحسين على العمل، وكبح جماح الإِسرائيليين من المشاركة في التحرّكات العسكرية. وفي الوقت نفسه فإن استعراضاً أَمريكياً وإِسرائيلياً للقوة يمكن أن يردع السوريين والعراقيين والسوفييت. وكان من الصعب تحقيق التوازن ما بين ضبط النفس والمشاركة في الحرب، فالإِسراف في أي منهما من جانب الولايات المتحدة أَو إِسرائيل يؤدي إِلىٰ نتيجة عكسية. وكان عنصر التوقيت ورصد الأحداث الجارية على الساحة أمرين ضروريين، كما كان تحقيق درجة عالية من التنسيق فيما بين الأردن والولايات المتحدة وإِسرائيل أمراً حيوياً.

كانت تحرّكات نيكسون الأولى هي التحذير من تدخّل خارجي. وفي 16 أيلول/ سبتمبر ألقى خطبة قوية عن النظام والقانون، في جامعة ولاية كنساس أدان فيها الفدائيين. ثم طار إِلىٰ شيكاغو، حيث التقى كيسينجر وسيسكو لمعرفة آخر الأخبار عن الأَزمة. وكانت هناك آراء متضاربة في مجمع الاستخبارات حول احتمال تدخّل سوري أَو عراقي. وقد استبعد هذا الاحتمال بصورة عامَّة.

ولكن يبدو أن نيكسون كان يفكِّر بطريقة مختلفة، فقد التقى في 17 أيلول/ سبتمبر مرتين مع رؤساء تحرير الصحف الصادرة في شيكاغو، لمناقشة الأَزمة في الأردن. وسارعت صحيفة صن ـ تايمز في ذلك المساء إِلىٰ نشر موضوع يلخص آراء نيكسون. وجاء فيها أن «الولايات المتحدة مستعدّة للتدخّل مباشرة في الحرب الأردنية، إذا ما تدخلت سورية والعراق في النِّزاع وأخلتا بالتوازن العسكري، لغير مصلحة القوَّات الحكومية الموالية للحسين»[67]. وكان في تقدير نيكسون أن بقاء الحسين أمر ضروري بالنسبة لجهود التسوية السلمية الأَمريكيَّة. كما أن تدخّل

(67) Chicago Sun-Times, September 17, 1970; and Hedrick Smith, «Nixon Hints He May Act If Outsiders Join the Fihght,» New York Times, September 19, 1970, P. 1.

إسرائيل ضد الفدائيين عمل خطير، وإذا ما دخلت سورية أو العراق المعركة فإن الولايات المتحدة ستتدخّل. وذُكر أن نيكسون أعلم رؤساء التحرير بأنّه لن يكون بالأمر السيء، أن يعتقد السوفييت بأنّه قادر على اتخاذ إجراء غير عاقل أو متهوّر[68]. تلك كانت عقيدة نيكسون: كن صارماً، واجعل خصومك في حالة انعدام وزن، وكن غامضاً بحيث لا يمكن التنبؤ بتصرفاتك. فإذا حالفك الحظ فلن يعمد أحد عندئذٍ إلىٰ اختبارك ليعرف ما إذا كنت تخادع.

التقى نيكسون ومائير في 18 أيلول/ سبتمبر وأجريا محادثات وصفتها «صحيفة نيويورك تايمز»، بأنّها أهم محادثات جرت بين الولايات المتحدة وإسرائيل منذ 22 عاماً. وكانت العلاقات بين البلدين قد وُصفت بأنّها «منخفضة بصورة غير عادية»، بسبب الخلاف على وقف إطلاق النّار وضبط عمليّة توريد السّلاح[69]. والواقع أن الوضع كان أقل من ذلك سوءاً. فقد ساعد الوعد الذي أعطاه نيكسون بإيلاء طلبات المعونة لإسرائيل «اهتمامه المتعاطف» في تهيئة الوضع لتحسّن كبير في العلاقات بين البلدين في الأيام التالية. ولاح في ضوء التطورات التي تلت، أنه كان من المستغرب ألا يبحث نيكسون مع مائير احتمال التدخّل في الحرب الأردنية، تاركاً هذا الأمر لكيسينجر وسيسكو وروجرز، لأنه احتمال كان ما يزال بعيداً. فالملك كان يبدو في موقع أقوى في الأردن والسوفييت يتصرّفون بتعقّل.

لم تصل التقارير الأولى عن التدخّل السوري المدرع في العمق الأردني إلىٰ واشنطن، إلاّ في يوم السبت 19 أيلول/ سبتمبر[70]. وقد سارع الاتّحاد

---

(68) Brandon, Retreat of American Power, P. 134.

(69) Terence Smith, «Washington Reported Weighing $500-Million in Aid for Israelis,» New York Times, September 18, 1970, P. 1.

(70) Kissinger, White House Years, P. 618 حرص السوريون على إظهار تدخّلهم في صورة عمل من قِبل وحدات من جيش التحرير الفلسطيني، وتم طلاء الدبّابات على وجه السرعة برموز جيش التحرير الفلسطيني.

السوفييتي إلىٰ التحذير من أي تدخّل خارجي في الأردن، وانضم إلىٰ الرئيس عبد الناصر في الدعوة إلىٰ وقف إطلاق النَّار. وقام القائم بالأعمال السوفييتي في واشنطن بإعلام وزارة الخارجيَّة أنهم يحثون السوريين على ضبط النفس، وأنَّهم غير متورطين في الهجوم بأي شكل. وقام كيسينجر بنقل هذه الأنباء إلىٰ نيكسون في كامب ديڤيد. ولكن نيكسون لم يتأثَّر بتلك الأنباء وكان متشكّكاً. فسورية، الخاضعة للسوڤييت، ترسل بدباباتها إلىٰ الأردن. فهل يمكن أن يتحقَّق هذا بدون مباركة ضمنية على الأقل من جانب السوڤييت؟ ومن المرجح أن نيكسون كان يعتقد أن السوڤييت هم الذين يحرِّضون سورية[71]. وأياً كانت الحقيقة فإن التحركات الدبلوماسيَّة والعسكرية الأَمريكيَّة استهدفت منذ ذلك الحين حمل السوڤييت على الضغط على السوريين لسحب قوَّاتهم.

إدارة الأَزمة

أمر نيكسون باتخاذ عدَّة إجراءات عسكرية ردّاً على التدخّل السوري. وبالإضافة إلىٰ ذلك كانت الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة منشغلة في 20 أيلول/ سبتمبر بمهمتين حيويتين. وكانت الأولى طلب الملك حسين الملحّ بمساعدة أَمريكيَّة ضد سورية. وكان الوضع في عمان تحت السيطرة، ولكنه في شمال البلاد كان يُنذر بالخطر. وفي ساعة متأخرة من الليل بتوقيت الأردن طلب الملك حسين تدخّلاً جوياً وبرّياً من أية ناحية ضد الدبابات السورية[72].

اجتمع فريق العمل الخاص ـ WSAG ـ في واشنطن في الساعة 7 مساء للنظر في طلب الملك الاستثنائي. واستناداً إلىٰ أقوال كيسينجر فقد «جرت

---

(71) استمد أكبر الأدلة ضرراً عن التواطؤ السوفييتي في عملية التدخل من الأنباء القائلة بأن المستشارين العسكريين السوفييت رافقوا وحدات الدبابات السورية حتى الحدود الأردنية.

(72) كانت الاتصالات في عمان بين السفارة الأَمريكيَّة والقصر الملكي شديدة الصعوبة. فاستخدمت أجهزة اللاسلكي والتليفون اللاسلكي المتنقل، وكثيراً ما كان الفدائيون يتنصّتون على المحادثات الحسَّاسة.

مراجعة سريعة للآراء المؤيِّدة والمعارضة للتدخّل العسكري الأَمريكي، عزَّزت قناعتنا أن أفضل استخدام لقوَّاتنا هو تطويق التدخل السوفييتي في عمليات إسرائيلية. ومن أجل أن نكون فعَّالين في التدخّل بمفردنا، كان علينا أن نشرك احتياطينا الاستراتيجي بالكامل؛ وعندئذٍ ستمتد خطوطنا إلىٰ ما يقرب من نقطة الانكسار في مسرحين (للعمليات) متباعدين كل البُعد، ونصبح مكشوفين أمام أي طارىء جديد. ولا بدّ أن تدخل قوَّاتنا بدون سلاح ثقيل، وبدعم جوي فقط من حاملات الطائرات»[73].

استدعى نيكسون كيسينجر من الاجتماع، في حوالي الساعة 7,50 مساء كما دعا أعضاء فريق العمل الكبار الآخرين إلىٰ مكتبه في الساعة الثامنة. وبعد فترة وجيزة تلقَّى نائب كيسينجر، ألكسندر م. هيغ، مكالمة من السفير البريطاني تحمل أنباء تفيد، بأن الملك يطلب الآن توجيه ضربات جوية مباشرة. كما أبلغ «فريق واشنطن للعمل الخاص» بأن مدينة إربد قد سقطت في أيدي القوَّات السورية[74]. ورداً على هذه التطورات أوصى فريق العمل الخاص بوضع اللواء المحمول جواً في ألمانيا، والفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً في أعلى درجات التأهّب، وأن تطير طائرة استطلاع من إحدى الحاملات إلىٰ تل أبيب لالتقاط معلومات عن الأهداف، وإعطاء أشارة بأن العمل العسكري الأَمريكي قد يكون وشيكاً[75].

وفي حوالي الساعة 9,30 ليلاً ذهب كيسينجر ومعه سيسكو للقاء نيكسون، الذي تصادف وجوده في حديقة البولينغ في «مبنى المكتب التنفيذي القديم». وافق نيكسون على توصيات «فريق العمل»، كما وافق على أهمية إجراء اتصال مع السفير رابين.

---

(73) Kissinger, White House Years, P. 620.

(74) Van der Linden, Nixon's Quest for Peace, PP. 81-82; and Kissinger, White House Years, P. 621.

(75) Kissinger, White House Years, P. 622.

في تلك اللحظة كانت غولدا مائير ورابين في نيويورك، في حفل عشاء لجمع التبرعات. وفي الساعة العاشرة تمكّن كيسينجر من الاتصال هاتفياً مع رابين، حيث أخبره أن الملك قد طلب المساعدة، ولكن الولايات المتحدة بحاجة ماسّة إلىٰ معلومات استخباراتية حول المواقع السورية قبل أن تتمكّن من الرد. فهل تستطيع إسرائيل إرسال طائرات استطلاع عند شروق الشمس؟ وسأل رابين ما إذا كانت الولايات المتحدة تفضل هجوماً جوياً إسرائيلياً. فقال كيسينجر إنه يفضل أولاً أن يرى نتائج الاستطلاع. عند هذه اللحظة، كما يقول كيسينجر، وصلت رسالة جديدة من الملك حسين، واضطر إلىٰ قطع المكالمة[76].

تحدَّثت رسالة الملك الجديدة عن وضع يتدهور بسرعة، وعن حاجة ماسّة لضربات جوية. كما قد يحتاج الأمر إلىٰ قوّات أرضية. تحدَّث كيسينجر إلىٰ روجرز، واتفقا كلاهما تقديم توصية إلىٰ نيكسون، تقضي بمصادقة الولايات المتحدة على ضربة جوية إسرائيلية. وعاد سيسكو وكيسينجر إلىٰ ممر البولينغ من أجل الحصول على موافقة الرئيس الوشيكة. واتصل كيسينجر ثانية برابين ليعلمه هذه المرة أن الولايات المتحدة، سوف تحبِّذ ضربة إسرائيلية جوية، إذا تأكّد الاستطلاع الإسرائيلي أن سورية تحتل إربد بقوّات مدرعة كبيرة[77]. وقبيل منتصف الليل اتصل رابين ثانية حاملاً جواب غولدا مائير:

---

(76) المرجع السابق ص 623. ولكن رابين في مذكراته (Rabin, Rabin Memoirs,. P. 187) يسوق رواية مختلفة بعض الشيء، إذ يزعم أن كيسينجر نقل طلب الملك بشأن الضربات الجوية الإسرائيلية، وطلب رداً إسرائيلياً مباشراً. وعندئذ سأل رابين عما توصي به الولايات المتّحدة، فقال كيسينجر إنه سيعود إلىٰ الاتصال به. ويقول رابين إن كيسينجر اتصل بعد ساعة قائلاً: «إن حكومة الولايات المتّحدة تقر الطلب وتؤيده» وسأل رابين: «هل تنصح أنت إسرائيل بالإقدام على ذلك؟» فرد عليه كيسينجر قائلاً: «نعم، بشرط دراستكم الخاصة للموضوع».

(77) Kissinger, White House Years, P. 623, See also Kalb and Kalb, Kissinger, PP. 202-07, and Benjamin Welles, «U. s. Israeli Military Action on Jordan Was Envisioned,» New York Times October 8, 1970, P. 1.

إسرائيل ستقوم باستطلاع جوي عند انبلاج الصباح. وقد لا تكون العمليات الجوية كافية، ولكن إسرائيل لن تتخذ أية خطوة أبعد بدون مشاورات.

في وقت مبكر من يوم 21 أيلول/ سبتمبر اتصل رابين بالبيت الأبيض ليقول إن إسرائيل لا تعتقد أن الضربات الجوية وحدها كافية؛ إذ ثمة حاجة إلىٰ عمليات أرضية أيضاً. اتصل كيسينجر بنيكسون، وبعد فترة قصيرة من التداول أملى نيكسون رسالة إلىٰ رابين قال فيها، استناداً إلىٰ رواية كيسينجر: «لقد عزمت على ذلك. لا تسأل أي شخص آخر. قل له أن يمضي»[78]. تشاور كيسينجر بعد ذلك مع كل من روجرز وليرد اللذين كان لديهما تحفظات. وافق نيكسون بتردّد على عقد اجتماع لمجلس الأَمن القومي بكامل أعضائه في الساعة 8,45 صباحاً. وقد حضر الاجتماع كلٌّ من ليرد وروجرز وباكارد وتوماس موريير (رئيس هيئة الأركان) وكيسينجر. وكان موريير معارضاً لتدخل برّي أَمريكي لعدم توفر قدرة على ذلك. من هنا فإنه إذا كان لا بد من عمل بري فإن على إسرائيل أن تعمل. وكانت تقديرات المخابرات الواردة من إسرائيل، تقدّر وجود ما بين 250 إلىٰ 300 مدرعة سورية في منطقة إربد[79]. وقرَّر نيكسون أخيراً أن يقوم سيسكو بإبلاغ رابين، أن الولايات المتحدة قد وافقت من حيث المبدأ، على عمل برّي إسرائيلي بشرط معرفة رأي الملك والتشاور معه مسبقاً[80].

ومع تطور الأحداث أعد الإسرائيليون خطة لإرسال 200 مدرعة إلىٰ إربد، مصحوبة بضربات جوية. وتتعهد إسرائيل بأن تسحب قواتها من الأردن

---

(78) Kissinger, White House Years, P. 625.

(79) لم تكن لدى الولايات المتّحدة قدرات مستقلّة على جمع الاستخبارات الجوية حتى تتابع سير المعركة. وكان عليها أن تعتمد على الطلعات الجوية الاستطلاعية الإسرائيلية، وعلى التقارير الإسرائيلية الأردنية بشأن ما يجري في ساحة المعركة.

(80) Kissinger, White House Years, P. 626. يؤكد كيسينجر أنّه لم يكن سعيداً كل السعادة بهذا القرار، إذ قد يكون من المستحيل الاتصال بالملك حسين لتحديد آرائه إذا ما تدهور الموقف تدهوراً حاداً.

بمجرد انتهاء العمليَّة العسكرية. ونقل كيسينجر وسيسكو إلىٰ رابين ما يفضله الملك، وهو أن تكون العمليات الأَرضية الإِسرائيلية داخل سورية وليس في الأردن. وكان عمل كهذا يعتبر أشد خطورة بالنسبة للإِسرائيليين، إذ قد يستفز المصريين على القيام بعمل عسكري على طول القناة، أَو حتى تهديدات سوڤييتية بالتدخّل. ولهذا فقد طلب رابين التزاماً أَمريكياً بمنع تدخّل سوڤييتي ضد إِسرائيل، وبوعد بالمساعدة إذ ما هاجمت مصر.

كان اليوم التالي، الثلاثاء 22 أيلول/ سبتمبر، يوماً حاسماً. فقد كانت إِسرائيل، بتشجيع أَمريكي ولكن دون اتفاق ملزم، تتحفّز للعمل. أما حسين فقد أمر أخيراً سلاحه الجوي الصغير، بعد أن ضمن مساندة إِسرائيل والولايات المتحدة، بمهاجمة المدرعات السورية حول إربد، وهو ما حقَّقه بنتائج مرضية[81]. وبعد ظهيرة ذلك اليوم، شرعت المدرعات السورية بالانسحاب من الأردن. وبات التدخّل الإِسرائيلي أقل إلحاحاً. وأبلغ الملك ـ بالشيفرة ـ السفير براون أن تدخلاً إِسرائيلياً «في الجو» سيكون عملاً جيداً، ولكن ينبغي توجيهه إِلىٰ «الأَرض» في مكان آخر[82]. أي أن ضربة جوية إِسرائيلية أمر مرغوب فيه، ولكن التدخل البرِّي ينبغي أن يوجه إِلىٰ سورية وحدها. ولم تكن إِسرائيل راغبة في القيام بهجوم برِّي ضد سورية، وعند نهاية النهار كانت آفاق تدخل إِسرائيلي أَو أَمريكي قد تلاشت بالفعل[83].

---

(81) لم يتدخّل السلاح الجوي السوري بقيادة اللواء حافظ الأسد، ولا تدخلت القوات العراقية في الأردن التي كانت تواجه فعلاً فرقة كاملة من الجيش الأردني.

(82) أسيء تفسير معنى هذه الرسالة في: Kalb and Kalb, Kissinger, P. 204.

(83) كان ألكسندر هيج هو الوحيد من محللي أَزمة الأردن الذي قال إن الضربات الجوية الإِسرائيلية حدثت فعلاً، وكانت مجدية في تحويل مجرى المعركة. ويقول هيج في البداية إن إِسرائيل «ربما» تكون قد دمّرت بعض الدبابات السورية، ولكنه يقرّر بعد ذلك بفقرتين «أن الضربات الجوية الإِسرائيلية بالإِضافة إِلىٰ الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة القوية المعزّزة بمناورات عسكرية ذات مصداقية والتي أوحت بأن قوات جوية وبحرية وبرية أَمريكيَّة طاغية ستدخل المعركة إذا لزم الأمر، حفظت نظام الملك حسين، وحفظت معه السَّلام الهش في المنطقة». =

وبحلول يوم الأربعاء، كانت المرحلة الحرجة من الأَزمة الأردنية قد ولّت. وبعد العصر بقليل، اجتمع نيكسون مع روجرز وكيسينجر في المكتب البيضاوي، وأثناء مناقشتهم للأَزمة تلقوا أنباء تفيد، أن المدرعات السورية قد غادرت الأردن. وسرعان ما صدر بيان عن البيت الأَبيض يرحب بالانسحاب السوري، وطلب إِلىٰ سيسكو أن يتصل برابين للحصول على تأكيد منه، بأن إِسرائيل لن تقوم بتحرك عسكري[84]. وكان الأردنيون قد سيطروا على الموقف، ولم يعد ثمة حاجة إِلىٰ تدخّل خارجي. أما بالنسبة للولايات المتحدة وإِسرائيل فقد كانت الأَزمة بحكم المنتهية. وقد احتفل نيكسون بذلك، بأن لعب الغولف يوم الخميس في «نادي الشجرة المشتعلة الريفي» مع روجرز، وجون ميتشيل، المدعي العام، وجورج ميني، رئيس اتحاد العمال/ ومؤتمر المنظمات الصناعية. وفي اليوم التالي أُعلن في الأردن عن وقف إطلاق النَّار. في تلك الفترة كان الرئيس المصري عبد الناصر، يحاول ترتيب وقف مستقر لإطلاق النَّار، وصيغة جديدة للتعايش بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكان عبد الناصر يخالف الفدائيين في معارضتهم لمبادرة روجرز، وفي رغبتهم بالإطاحة بالملك حسين، ولكنه لم يكن يريد أن يرى منظمة التحرير تسحق

= انظر: Alexander M. Haig, Jr., with Charles McCarry, Inner Circles, How America Changed the World. A Memoir (Warner Books, 1992), P. 251 وأكّدت جميع المقابلات التي أُجريت مع جوزيف سيسكو وألفريد آثرتون وهارولد سوندرز وريتشارد هلمز والمعلومات المستمدة من الجنرال الإِسرائيلي أهارون ياريف أنه لم تقع أي ضربات جوية إِسرائيلية.

أما نيكسون فتتراءى ذكرياته المستعادة عن أَزمة الأردن في الحكاية التالية: فإذ كان نيكسون يتحدث تليفونياً مع كيسينجر أثناء حرب تشرين عام 1973 قال عن أَزمة الأردن: «لقد لعبنا حقاً لعبة جهنمية دون أي أوراق لعب على الإطلاق». انظر: Walter Isaacson, Kissinger: Biography (Simon and Schuster, 1992), P. 517.

(84) يؤخذ مما قاله كيسينجر في ص 631 من كتابه White House Years أنه تم إخطار إِسرائيل رسمياً في 25 أيلول/ سبتمبر بأن «جميع جوانب الآراء المتبادلة فيما بيننا بشأن هذا الغزو السوري للأردن لم تعد قابلة للتطبيق.. فإن نشأ موقف جديد، وجب إجراء تبادل جديد للآراء».

على يد القوّات الأردنية. ومن هنا فقد دعا الحسين وعرفات والزعماء العرب الآخرين إلىٰ القاهرة، للتوصّل إلىٰ اتفاق ينظِّم وجود منظّمة التحرير في الأردن، ويحول دون مواجهات أخرى، وتم توقيع الاتفاق في 27 أيلول/ سبتمبر. وفي اليوم التالي سقط عبد الناصر مريضاً، وهو يودع آخر ضيوفه في المطار. وعاد إلىٰ منزله حيث توفي بصدمة قلبية بعد بضع ساعات. وبوفاته انتهت حقبة في السياسة العربية. ومن دواعي المصادفة، أن وفاته ترافقت مع بدء علاقة استراتيجية أَمريكيَّة ـ إسرائيلية جديدة.

في أعقاب الأَزمة

اعتبرت محصلة الأَزمة الأردنية على نطاق واسع، نتيجة ناجحة للسياسة الأَمريكيَّة. ومن المؤكد أن نيكسون وكيسينجر قد صوراها على هذا النحو، وهو ادعاء له ما يسوغه في ضوء الأهداف الأَمريكيَّة المعلنة. فقد أضحى الملك حسين مستقراً في السلطة، وتعرّض الفدائيون لإضعاف شديد، وتم إنقاذ جميع الرهائن. واستطاع الأردن أن يردّ التدخّل العسكري السوري، دون تورّط إسرائيلي أَو أَمريكي. وامتنع الاتّحاد السوفييتي عن التدخّل المباشر، بعد أن قامت الولايات المتحدة باستعراض حازم للقوة. وأضحت العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية أقوى من أي وقت مضى. بيد أن محصلة هذه الأَزمة، التي جاءت متوافقة مع الأهداف الأَمريكيَّة، لم تحظ إلاَّ باهتمام قلّة من الناس لدراسة هذه التطورات، ومدى مسؤولية التصرّفات الأَمريكيَّة أَو الإسرائيلية عنها، كما لم تُدرس عن كثب المقدمات المنطقية للسياسة الأَمريكيَّة. ويبدو أن السياسات الناجحة، لا تستأثر بالتمحيص النقدي الذي تستأثر به حالات الإخفاق.

أما العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية التي وصلت إلىٰ درجة متدنية في أواسط عام 1970، فقد حلَّقت إلىٰ مستوى رفيع غير مسبوق بسبب أَزمة الأردن. وكان قد جرى جدل طويل داخل الجهاز البيروقراطي حول السياسة التي تتبع تجاه إسرائيل. ورأت الحكمة التقليديَّة، في وزارة الخارجيَّة، أن

التأييد الأَمريكي لإِسرائيل كان عقبة في وجه العلاقات الأَمريكيَّة ـ العربية، وأن الولايات المتحدة بتقديمها المعونة الاقتصادية والعسكرية إِلىٰ عدو العرب، قد هيأت للاتّحاد السوڤييتي، فرصة لتوسيع نفوذه في الشرق الأَوسط. ورغم تساؤل بعضهم حول ما إذا كان ينبغي على الولايات المتحدة الدفاع عن وجود إِسرائيل، فقد كان يرى الكثيرون أن اتباع سياسة «نزيهة»، بحيث لا تتحيّز الولايات المتحدة دوماً إِلىٰ جانب إِسرائيل، أَو تقوم بدور المورد الأساسي للأَسلحة إليها، هو أفضل ضمان لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن إِسرائيل كانت تسبِّب إحراجاً لسياسة الولايات المتحدة، أكثر مما تشكِّل رصيداً استراتيجياً لها. وحتى لو كانت إِسرائيل قوة عسكرية لا يُستهان بها، فإن هذه القوة يمكن استخدامها في الدفاع عن إِسرائيل فقط، وليس للنهوض بالمصالح الأَمريكيَّة في أماكن أخرى في المنطقة.

كان الإِسرائيليُّون يستاؤون عموماً، من فكرة أن تأييد إِسرائيل يستند بالدرجة الأولى إِلىٰ عوامل محلية، أَو إِلىٰ شكل مبهم من الالتزام الأخلاقي. كما كانوا يرفضون منطق الداعين إِلىٰ سياسة غير منحازة، الذين يعتبرون إِسرائيل عبئاً على الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة في الشرق الأَوسط. وقد بدأ الإِسرائيليون يناقشون، وخاصة بعد الانتصار الإِسرائيلي العسكري الكاسح عام 1967، بأن إِسرائيل قوية تمثِّل مصلحة استراتيجية لأَمريكا.

ما جاء في أعقاب أَزمة الأردن، أوجد فترة مؤقتة من الاستقرار النسبي. فقد ظل وقف إِطلاق النَّار ساري المفعول على سائر الجبهات. واستعاد الملك حسين سلطته بنجاح في الأردن، الذي طُرد منه من تبقَّى من الفدائيين في تموز/ يوليو 1971. وازدهرت العلاقات الأَمريكيَّة ـ الأردنية، الأمر الذي أفضى إِلىٰ تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة، وبات الأردن يُعامل كشريكٍ إِقليميٍ للولايات المتحدة. وكانت مهمة الأردن الخاصة، في نظر الملك

حسين، تتمثَّل في العمل على استقرار الدول العربية النفطيَّة الصغيرة في الخليج، نيابة عن المصالح الأَمريكيَّة، بعد رحيل البريطانيين عام 1971[85]. وقد مَنَح نيكسون وكيسينجر الملك حيّزاً من التشجيع، وزادا من المعونة المقدَّمة للأردن تبعاً لذلك. ووفقاً لمبدأ نيكسون فإن كلاً من إسرائيل والأردن وإيران قد برزت، من وجهة نظر واشنطن الرسمية، كدول تحافظ على السَّلام. وكانت المساعدات وإمدادات السِّلاح لشركاء الولايات المتحدة هؤلاء، بمثابة بديل عن الحضور الأَمريكي العسكري المكلف في المنطقة، أَو عن تدخل عسكري بغيض.

بدت اتجاهات ما بعد أَزمة الأردن مواتية في أماكن أخرى من الشرق الأَوسط. ففي سورية قام الفريق حافظ الأسد، بإبعاد جناح حزب البعث الذي كان له الضلع الأكبر بالتدخّل في الأردن عن السلطة، وذلك في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1970. وجاءت التقارير الإخبارية لتشير إلىٰ أن زعماء سورية الجُدد أكثر اعتدالاً، أَو على الأقل أكثر حذراً، من النظام السابق. أما السَّادات فقد اعتبرته واشنطن بمثابة حاكم أفضل بالمقارنة مع عبد الناصر؛ فهو على الأقل أدنى مكانة في العالم العربي من مكانة عبد الناصر، وبالتالي أقل إثارة للمتاعب على وجه الاحتمال. ولعله سيلتفت إلىٰ مشكلات مصر المحلية، بدلاً من التشجيع على الثورات في أماكن أخرى. وهذا ما كان أمل صانعي السياسة في واشنطن لفترة طويلة، كما كان مسوغاً أساسياً لبرامج المساعدة التي قدّمت لمصر في أوائل الستينات.

دروس مستفادة

أوجدت النتيجة النهائية للتطورات الإقليمية التي نجمت عن أَزمة الأردن،

---

(85) في عام 1968 أعلن البريطانيون أنهم سينهون وجودهم العسكري شرقي السويس بنهاية عام 1971. وقد أدّى هذا إلىٰ تخطيط مسهب داخل البيروقراطية حول كيفية سدّ الفراغ الناشىء عن ذلك.

إحساساً بوجود تواطؤ ما بين إسرائيل والولايات المتحدة. أما المخاوف التي استحوذت على صانعي السياسة، بين عامي 1967 و1970 من جراء انتشار الراديكالية، والاستقطاب، والمواجهة فقد تبددت جميعاً بعد أيلول/ سبتمبر 1970. وبدت المنطقة الآن مستقرة نسبياً، ومفتاح هذا الاستقرار هو توازن عسكري يميل بدون شك لصالح إسرائيل. وجاء التهديد الرئيسي المتبقي من استمرار الوجود العسكري السوفييتي في مصر وسورية. ومن هنا أصبح الهدف الأساسي للسياسة الأمريكيَّة ـ الإسرائيلية، أن توضح للسادات أن الوجود العسكري السوفييتي في بلاده، يمثِّل عقبة أمام استعادته لسيناء. والأسلحة السوفييتية المقدمة لمصر ستقابلها أسلحة أمريكيَّة تقدّم لإسرائيل، الأمر الذي سيغلق الخيار العسكري أمام السادات. وطالما بقي الوجود العسكري السوفييتي مستمراً في مصر، فإن الولايات المتحدة لن تقوم إلاَّ بمحاولات دبلوماسيَّة فاترة لتحقيق تسوية.

في استرجاع لأحداث الماضي، يستطيع المرء أن يلمس، أن السياسة الأمريكيَّة باتت أسيرة، للنجاح المتصور في معالجة أزمة الأردن. وكان من الواضح أن البُعد العالمي للنزاع، هو ما كان كيسينجر ونيكسون يهتمّان به بالدرجة الأولى. وهما في تجاهلهما للاتجاهات الإقليمية، قد أساءا الحكم على القوى ذاتها، التي كانت حريّة بأن تدفع في غضون ثلاث سنوات، إلى اندلاع حرب أخطر بكثير من ذلك. وفي تلك الفترة أقدمت وزارة الخارجيَّة على عدة جهود دبلوماسيَّة غير مجدية، ولكن نيكسون وكيسينجر، وقد أخذا على عاتقهما مهمة سياسة الشرق الأوسط خلال أزمة الأردن، فإنَّهما أحجما عن التخلي عن السلطة لروجرز وسيسكو. وكانت النتيجة سلسلة من المبادرات الفاترة من جانب وزارة الخارجيَّة، التي افتقرت إلى تأييد البيت الأبيض، مما أدَّى ببساطة إلى تفاقم الشعور بالإحباط لدى العرب، فيما تعزّز الإحساس الذاتي بالرِّضى لدى كل من إسرائيل وواشنطن.

ربما ضاعت عدة فرص مهمة لتحقيق تسوية سياسية للنزاع في غضون تلك الفترة. وقد أخفق كل من نيكسون وكيسينجر في ملاحظة هذه الفرص، لأنَّهما وقعا في فخ من التصورات، هو من صنع أيديهما إلىٰ حد كبير. وإن فترة «دبلوماسيَّة المراوحة في المكان» الممتدة من عام 1970 وحتى 1973، لن تُعتبر في حوليات السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة سياسة مستنيرة. فقد أسفر النجاح في الأردن عام 1970، من عدة نواح، عن سلسلة من الإخفاقات في السنوات التالية، تتوجت بحرب تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973.

دبلوماسيَّة المراوحة في المكان عند كيسينجر

مع استمرار وقف إطلاق النَّار على طول قناة السويس، واستعادة الملك حسين لسلطاته في الأردن، ووفاة الرئيس عبد الناصر، بدا الموقف في الشرق الأَوسط لصانعي السياسة الأَمريكيين أقل خطورة، وأسلس إدارة من أي وقت مضى منذ حرب 1967. فقد انتهى خطر المجابهة الأَمريكيَّة ـ السوفييتية، وبقيت المصالح الأَمريكيَّة سليمة في تلك الفترة العصيبة، وقلّ الإلحاح على التقدّم بمبادرات دبلوماسيَّة أَمريكيَّة جديدة.

كانت وزارة الخارجيَّة، قبل نشوب أَزمة الأردن، هي المسؤول الأول عن صياغة سياسة، تجاه النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي وإدارتها. ولكن بعد ذلك أخذ نيكسون وكيسينجر يضطلعان بدور أكثر أهمية، وخاصة من خلال تأكيدهما على البُعد السوفييتي للنزاع الإقليمي، ورغبتهما في إقامة علاقة وثيقة مع إسرائيل. وطوال السنوات الثلاث التالية، امتنع البيت الأَبيض عن المشاركة، في الشؤون اليومية لدبلوماسيَّة الشرق الأَوسط، ولكنه ظل يراقب وزارة الخارجيَّة بيقظة، لضمان عدم قيامها بنشاط زائد. ونجح كل من نيكسون وكيسينجر أخيراً، في تقويض مبادرات وزارة الخارجيَّة، وفي فرض إشراف كامل على السياسة تجاه الشرق الأَوسط.

من أجل أن نفهم هذا الفصل غير الموفق من الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة ما بين

أَزمة الأردن وحرب تشرين 1973، لا بدّ أن يستذكر المرء انشغال الإدارة الكثيف في أجزاء أخرى من العالم. فقد انصرف صانعو السياسة، بعيداً عن الشرق الأَوسط إِلىٰ مناطق ذات أولوية أكبر. فحرب ڤيتنام كانت ما تزال دائرة، ولكن كيسينجر بدأ في أيار/ مايو 1971 سلسلة من المحادثات السرِّيَّة، مع ممثلين ڤيتناميين رفيعي المستوى، في محاولة للوصول إِلىٰ تسوية تفاوضية. وفي موازاة هذه المباحثات المهمَّة، كان نيكسون وكيسينجر يخطِّطان لانفتاح بالغ الأهمية نحو بكين، تجسّد في زيارة سرية إِلىٰ الصين قام بها كيسينجر في تموز/ يوليو 1971. وأخيراً كانت تجري مفاوضات جادة مع الاتّحاد السوفييتي، حول الحد من الأَسلحة الاستراتيجية.

وقد عُولج كل مجال من هذه المجالات الثلاثة، بحيث يستطيع نيكسون في عام 1972، أي عام انتخابات الرئاسة، أن ينوّه بمنجزات ملموسة: زيارتان إِلىٰ بكين وموسكو، وأمل في وضع نهاية للحرب في ڤيتنام. وفرضت حتميات سنة الانتخابات ذاتها سقفاً منخفضاً للغاية، بالنسبة للاهتمام بالشرق الأَوسط[86]. ففي غياب أية فرصة للتوصل إِلىٰ اتفاق تفاوضي هناك ركَّز نيكسون بدلاً من ذلك، على إِبقاء الميزان العسكري لصالح إِسرائيل، ليحول بذلك دون اندلاع قتال غير مرغوب فيه، الأمر الذي يكسبه امتناناً كبيراً من مؤيدي إِسرائيل في الولايات المتحدة.

محادثات يارينغ والعلاقات الأَمريكيَّة ـ الإِسرائيلية

أثناء مراجعة المسؤولين الأَمريكيين للسياسة في الشرق الأَوسط ما بعد أَزمة الأردن، قام هؤلاء بتفحّص عدة مقاربات بديلة، بما في ذلك مقاربة

(86) انظر: Henry Kissinger, The White House Years (Little, Brown, 1979), حيث يقول كيسينجر في صحة 1285 «إن الذي جعلني انغمس في تنفيذ دبلوماسيَّة الشرق الأَوسط في خاتمة المطاف هو أن نيكسون لم يكن يعتقد بأن في وسعه المخاطرة بتكرار أَزمة الشرق الأَوسط في سنة الانتخاب، ولهذا طلب مني أن أتولى الأمر، ولو في سبيل الإبقاء على الأمور هادئة».

للتعامل مع الفلسطينيين مباشرة، قبل أن يتقرَّر استئناف مبادرة روجرز المتوقفة في شهر حزيران/ يونيو السابق[87]. بيد أن العلاقة الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية ستظل وثيقة هذه المرَّة. فقد كان كيسينجر، بشكل خاص، يشعر أنَّه إذا كانت إسرائيل ستقدم تنازلات، فينبغي أن يكون ذلك من موقع قوة وثقة بالنفس، وليس تحت الضغط الأَمريكي.

كانت الخطوة الأولى في المبادرة الأَمريكيَّة الجديدة جذب إسرائيل ثانية إلىٰ محادثات يارينغ، وتمديد وقف إطلاق النَّار إلىٰ ما بعد موعد انتهائه في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي 15 تشرين الأول/ أكتوبر وافق نيكسون على صفقة أَسلحة بقيمة 90 مليون دولار لإسرائيل تتضمَّن أَسلحة مضادة للدروع، وطائرات استطلاع وأنواعاً أخرى من السِّلاح[88]. بالإضافة إلىٰ هذا قرَّرت الإدارة، اعتماد مبلغ إضافي مقداره، 500 مليون دولار في السنة المالية الجارية لتغطية نفقات الأَسلحة[89]. وكانت إسرائيل متلهفة بشكل خاص، على تلقي ضمانة بإمدادها بطائرات عالية الأداء في عام 1971، وطلبت 54 طائرة من نوع ف ـ 4 و120 طائرة من نوع آ ـ 4. كما أخذ الإسرائيليون يلحون على عقد

---

(87) في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1970 أفضى كيسينجر وسيسكو إلىٰ الصحافة بموجز بيانات أساسية عن الوضع في الشرق الأَوسط بعد أَزمة الأردن. وقد تحدَّث سيسكو عن مسألة الفلسطينيين بقوله: «إن الفلسطينيين يفكِّرون بصورة أكبر فأكبر تفكيراً ينصرف إلىٰ كيان ما، حيثما كان ذلك.. بحيث إذا ما تطلعت إلىٰ السنين الخمس المقبلة. وعلى فرض أننا قادرون على حفظ الاستقرار في هذه المنطقة. فسيكون ذلك عملاً على أساس اتخاذ العرب لموقف مؤداه عش ودع غيرك يعيش، بمعنى أن يكونوا مستعدين للعيش إلىٰ جوار إسرائيل، وأن تلبي إسرائيل ولو جزءاً من المطالب العربية فيما يتعلَّق بالأراضي المحتلَّة، وأخيراً إعطاء الحركة الفلسطينية القدرة على التعبير، والأرجح أن يكون ذلك في شكل كيان ما».

(88) سعت الإدارة إلىٰ تحقيق تفاهم حول الشروط التي يجوز لإسرائيل بمقتضاها استخدام الأسلحة الجديدة.

(89) William Beecher, «U. s. Officials Say Israelis Will let 180 Modern Tanks». New York Times, October 24, 1970, P.1 وقَّع نيكسون الاعتماد الإضافي للدفاع، بما في ذلك قروض لإسرائيل قدرها 500 مليون دولار في 11 كانون الثاني/ يناير 1971.

اتفاقيات عسكرية طويلة الأجل، تحول دون ما حدث في السنتين السابقتين من توقف دوري في توريد السِّلاح، وما رافق ذلك من منازعات.

على الرغم من القرار الأَمريكي بإمداد إسرائيل بكميات كبيرة من السِّلاح، فقد وافق الرئيس المصري الجديد أَنور السَّادات، على تمديد وقف إطلاق النَّار في أوائل شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ثلاثة أشهر أخرى. وتوقع أن تُستأنف محادثات يارينغ في غضون تلك الفترة، وأن تُسفر عن نتائج. كما شرع الاتّحاد السوفييتي ومصر في إبداء الاهتمام بالضمانات الخارجيَّة، باعتبارها جزءاً من تسوية سلمية.

بعد عدة مساجلات حادَّة ما بين نيكسون ومائير، أعلنت الأخيرة في 28 كانون الأول/ ديسمبر عن أن إسرائيل ستعود أيضاً إلىٰ محادثات يارينغ. وتذكر مائير أن الولايات المتحدة، قدَّمت التزامات للمحافظة على ميزان القوى في الشرق الأَوسط، وأن إسرائيل سيسمح لها بالتفاوض بحرِّيَّة بدون أن تخشى من أن تكون الولايات المتحدة طرفاً في أي جهد من جانب الأُمم المتَّحدة لتقرير الحدود أَو الشروط الخاصة بتسوية مشكلة اللاجئين. وزعمت أن الولايات المتحدة أيَّدت مبدأ أن يكون لإسرائيل حدوداً يمكن الدفاع عنها، وأن إسرائيل ينبغي أن تكون قوية، وألا تُكره على الانسحاب إلىٰ خطوط 4 حزيران/ يونيو 1967، وألاّ تلتزم بالموافقة على صيغة عربية لتسوية مشكلة اللاجئين. والأكثر من ذلك أن يتم إنهاء النِّزاع، بالتزام تعاقدي مُلزم بالسَّلام. وإلىٰ، أن يتحقَّق ذلك لن ينسحب جندي إسرائيلي واحد من خطوط وقف إطلاق النَّار. وأخيراً ألا تعدل شروط مرجعية يارينغ[90].

(90) خطبة مائير في الكنيست كما وردت في:

Lawrence L. Whetten, The Canal War: Four-Power Conflict in the Middle East (MIT Press, 1974), P. 142; and Tad Szulc, «U.S. Officials says a Series of Commitments Won Israelis Return to Mideast Peace Talks at the U.N.,» New York Times, January 1, 1971, P. 8. =

رد الفعل المصري

في الوقت الذي كانت تجري فيه المراسلات بين نيكسون وإسرائيل، كان نيكسون وروجرز على اتصال بالسَّادات أيضاً. وكان الأخير قد بعث برسالة في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر إلىٰ نيكسون، وصلته يوم 14 كانون الأول/ ديسمبر، ينوّه فيها باهتمام مصر بمباحثات يارينغ. وأجابه نيكسون شفوياً عن طريق محمود فوزي في 22 كانون الأول/ ديمسبر، وبعد يومين أعلن السَّادات عن طريق الوزير المفوض الأمريكي في مصر، دونالد بيرغيس أنه مهتم بالسَّلام اهتماماً حقيقيّاً. وكان السَّادات قد بدأ يحظى باهتمام أوفر من قِبل المسؤولين في واشنطن، بعد أن كانوا ينظرون إليه بشيء من الاستخفاف[91].

كان يارينغ على اتصال مع وزير الخارجيَّة المصري محمود فوزي في وقت مبكر من ذلك الشهر. وكان المصريون أكثر اهتماماً بمعرفة الدور الذي تستعد الولايات المتحدة للقيام به، ونوع التسوية التي تتصوّرها، أكثر من اهتمامهم بتلقي اقتراحات إسرائيلية عن طريق يارينغ. وكان لديهم قناعة راسخة بأن إسرائيل ليست إلاَّ امتداداً للولايات المتحدة، بحيث أن الولايات المتحدة إذا حبَّذت انسحاباً إسرائيلياً كاملاً، فإن إسرائيل لن تملك سوى الانصياع.

= وانظر أيضاً: Shlomo Aronson, The Politics and Strategy of Nuclear Weapons in the Middle East: Opacity, Theory, and Reality, 1960-1991. An Israeli Perspective (State University of New York Press, 1992), P. 146 لعل آرونسون مؤلف هذا الكتاب كان يضع هذه التفاهمات نصب عينيه عند إشارته إلىٰ اتّفاقية عام 1971 بشأن «الحدود الآمنة» التي تضمنت الاعتراف الأمريكي بالقدرة النووية لإسرائيل. ولكن آدونسون لم يستند إلاَّ إلىٰ مقابلة أجراها مع السفير السابق سميحا دينيتز، ولم ترد إشارة في أي مصدر آخر إلىٰ الأسلحة النووية.

(91) لم يكن الكثير معروفاً في واشنطن عن السادات عندما أصبح رئيساً. أما ترجمة حياته التي أعدتها وكالة المخابرات المركزية فكانت أقل مدعاة للفخار. فقد أبرزت أن السادات توجّه إلىٰ السينما ليلة قيام الثورة المصرية في عام 1952، مما يعني ضمناً بأن هذا هو أسلوبه السياسي النمطي. وقد تناول السادات هذه الحادثة بصراحة في كتابه Revolt on the Nile (John Day, 1957).

وفي 27 كانون الثاني/ يناير بعث روجرز برسالة إلىٰ محمود رياض عن طريق بيرغيس، ناشده فيها تمديد وقف إطلاق النَّار، واعداً بأن إسرائيل ستقدم «أفكاراً موضوعية» جديدة تتعلَّق بالتسوية السلمية بعد ذلك مباشرة. وأكَّد روجرز أن الآراء التي عبَّر عنها في خطبته في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1969 ما تزال سارية المفعول، وأن الولايات المتحدة ما تزال مستعدّة لبذل «جهد شامل لمساعدة الأطراف على التوصل إلىٰ تسوية هذا العام».

وعندما وصلت هذه التطمينات إلىٰ السَّادات، أعلن في شباط/ فبراير أنه سيوافق على تمديد وقف إطلاق النَّار لمدة شهر. ومع أن السَّادات قد انتقد الولايات المتحدة بشدة بسبب «انحيازها الكامل لإسرائيل»، فقد تقدم مع ذلك «بمبادرة مصرية جديدة تعتبر الالتزام بها، معياراً حقيقياً للرغبة في تنفيذ قرارات مجلس الأَمن»، وتابع يقول:

نطلب في الفترة التي نمتنع فيها عن إطلاق النَّار، أن يتحقَّق انسحاب جزئي للقوَّات الإسرائيلية على الضفة الشرقية لقناة السويس كمرحلة أولى، ضمن جدول زمني يُعد فيما بعد، لتنفيذ الأحكام الأخرى الواردة في قرار مجلس الأَمن. وإذا تحقَّق ذلك في هذه الفترة، سنكون على استعداد للشروع فوراً في تطهير قناة السويس، وإعادة فتحها أمام الملاحة الدولية خدمة للاقتصاد العالمي. ونعتقد أننا بهذه المبادرة سنحوِّل جهود المبعوث يارينغ، من عبارات مبهمة إلىٰ إجراءات محدّدة[92].

والواقع أن مبادرة السَّادات سرعان ما حلّت محل مهمَّة يارينغ، ولكن ليس قبل أن أقدم يارينغ على آخر مسعى له. ففي الثامن من شباط/ فبراير، كان يارينغ قد تقدَّم بمذكرة إلىٰ مصر وإسرائيل، يطلب فيها منهما تقديم «التزامات متوازية ومتزامنة». وطلب من إسرائيل أن توافق من حيث المبدأ، على

(92) يمكن الوقوف على نص خطبة السادات في 4 شباط/ فبراير 1971 في: New Middle East, March 1971, PP. 32-35.

الانسحاب إلىٰ الحدود الدولية السابقة بين مصر وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، مع مراعاة ترتيبات الأَمن وحرية الملاحة في قناة السويس ومضيق تيران. وطلب من مصر الدخول في اتفاق سلام مع إسرائيل يتضمن إنهاء حالة الحرب، واحترام استقلال إسرائيل، وحقّها في العيش بسلام داخل حدود آمنة ومُعترف بها، وعدم التدخّل في شؤونها الداخلية.

في 15 شباط/ فبراير ردَّت مصر بالموافقة على جميع النقاط التي أوردها يارينغ، وأضافت عدداً آخر منها. أما رد إسرائيل فلم يأت إلاَّ في 26 شباط/ فبراير. وقد رحَّبت إسرائيل بتعبير مصر الذي لا سابق له عن استعدادها للدخول في اتفاق سلام مع إسرائيل، ولكن ردها على مسألة الانسحاب الشائكة كان فظاً؛ إذ جاء فيه: «إن إسرائيل لن تنسحب إلىٰ خطوط ما قبل 5 حزيران/ يونيو 1967». وعرضت إسرائيل بدلاً من ذلك التفاوض دون شروط مسبقة. ولكن مصر اعتبرت رفض إسرائيل قبول مبدأ الانسحاب الكامل، بمثابة شرط مسبق غير مقبول. وفي مواجهة هذه الظروف انتهت مباحثات يارينغ بصورة مفاجئة[93].

مبادرة اتفاقية القناة المرحلية

فيما كان يارينغ يبذل مسعاه الأخير، لحمل الأطراف على الاتّفاق على الخطوط العريضة لتسوية شاملة، بدأت المقاربة البديلة القائمة على اتّفاق جزئي يتعلَّق بقناة السويس، يكتسب اهتماماً متزايداً. وبذا لم يؤد انهيار مباحثات يارينغ إلىٰ فراغ دبلوماسي. ذلك أن فكرة «الاتّفاق المرحلي» التي تردَّدت بعض الوقت في الكواليس، انتقلت الآن إلىٰ مركز الصدارة.

ما إن أعلن السَّادات مبادرته، حتى حثّت واشنطن الإسرائيليين على أخذ

---

(93) فيما يتعلَّق بمذكرة يارنج ومعها الردود المصرية والإسرائيلية انظر: Arab Report and Record, March 1-15, 1971, PP 158-59. وقد حثت الولايات المتّحدة إسرائيل بقوة على ألا تدرج العبارة المتعلّقة برفض الانسحاب إلىٰ خطوط ما قبل 5 حزيران/ يونيو 1967.

هذا الاقتراح على محمل الجد. وكانت مصر تلح على رد سريع. وفي 9 شباط/ فبراير، صرَّحت غولدا مائير، بأن إسرائيل على استعداد للنظر في فكرة إعادة فتح القناة، ولكن إسرائيل لن تسحب قوَّاتها من خطوط وقف إطلاق النَّار الحالية، ما لم يتم التوصل إلىٰ تسوية شاملة. وبعد ثلاثة أيام، طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة، أن تنقل رسالة إلىٰ مصر تكرِّر فيها، اهتمام إسرائيل ببحث موضوع إعادة فتح القناة. وتم إرسال هذه الرسالة في 14 شباط/ فبراير.

بعد رحلة سرية قام بها السادات إلىٰ موسكو (في 1 و2 آذار/ مارس) بعث برسالة مطوّلة إلىٰ نيكسون في 5 آذار/ مارس، شرح فيها الأسباب التي دعته إلىٰ عدم تجديد وقف إطلاق النَّار، الذي سينتهي مفعوله بعد يومين من ذلك التاريخ. والأهم من ذلك، أنَّه ناشد نيكسون إطلاق مبادرة لتحقيق اتِّفاق مرحلي، على غرار ما ورد في خطابه يوم 4 شباط/ فبراير. أخذ نيكسون اقتراح السَّادات على محمل الجد، وأصدر أوامره إلىٰ وزارة الخارجيَّة، للشروع في دراسة فكرة التسوية المرحلية بشأن القناة.

ما إن بدأت المبادرة الأَمريكيَّة تشقّ طريقها، حتى شكا الإسرائيليون من أن اتِّفاقيات السِّلاح يجري تأخيرها، كوسيلة من وسائل الضغط على إسرائيل[94]. وفي 13 آذار/ مارس، صرَّحت غولدا مائير علانية، في معرض ردّها على أسئلة حول خريطة السَّلام في إسرائيل، أن إسرائيل يجب أن تحتفظ بشرم الشيخ، وبطريق يفضي إليها، وأن يجري تجريد سيناء من السِّلاح، كما ينبغي تعديل الحدود حول إيلات، وعدم عودة المصريين إلىٰ غزَّة، وأن تظل مرتفعات الجولان السورية تحت السيطرة الإسرائيلية، وأن تبقى القدس موحدة، وأن يتم إجراء تعديلات على الحدود مع الضفَّة الغربية[95].

---

(94) Hedrich Smith, «Israel Denounces Plans of Jarring and U. S. on Sinai, «New York Times, March 11, 1971, P. 1.

(95) Meir interview in The Ti,es (London), March 13, 1971, P. 1 أثارت تعليقات مائير مناقشة مثيرة داخل إسرائيل، واتهمها حزب جاحال اليميني بأنَّها شديدة التساهل.

يفهم من هذه الآراء المتبادلة، أنَّه كان من الصعب تركيز الدبلوماسيَّة على اتِّفاقية جزئية، ومحدودة بشأن قناة السويس وتخفيض القوَّات. فقد كان كل جانب راغباً في الوقوف على رأي الجانب الآخر بشأن القضايا الأوسع، وهي قضايا عندما تُطرح تصبح الهوة سحيقة، ولا سيما حول مسألة الأَرض.

وفي محاولة لإعادة المحادثات حول قناة السويس والاتِّفاق الجزئي، شجَّعت الولايات المتحدة الإِسرائيليين على تحديد موقفهم كتابة. وأعلنت، كبادرة استمالة، في 19 نيسان/ أبريل عن إِرسال 12 طائرة أخرى من نوع ف ـ 4 إِلىٰ إِسرائيل[96]. وفي اليوم نفسه قدَّمت إِسرائيل اقتراحاً يتضمن الشروط التالية:

- بعد إِعادة فتح القناة ينبغي السماح للسُّفن، والبضائع الإِسرائيلية بالمرور فيها.
- يكون وقف إِطلاق النَّار غير محدود التوقيت جزءاً من أي اتفاق مقبل.
- تحتفظ إِسرائيل بالسيطرة على خط بارليف على طول القناة.
- تخفِّف مصر من قوَّاتها إِلىٰ الغرب من القناة.
- لا يعتبر خط الانسحاب المقرّر في الاتِّفاقية المرحلية حدوداً نهائيّة.

وبالإِضافة إِلىٰ ذلك، طلبت إِسرائيل من الولايات المتحدة تأييداً مطلقاً لموقفها، وتأكيداً جديداً للضمانات التي وردت في خطابي نيكسون في 23 تموز/ يوليو 1970، و3 كانون الأول/ ديسمبر 1970. وبعد ذلك بيومين بعث نيكسون بالتأكيد المطلوب، ولكنه امتنع عن تقديم التأييد الكامل. وقيل للمصريين أنه تم استلام الاقتراح الإِسرائيلي، ولكن محتوياته لم تُعلن فوراً.

وكان رد فعل السَّادات على ما نُشر في الصحف عن الاقتراح الإِسرائيلي

---

(96) William Beecher, «U. S. Selling Israel 12 More F-14 Jets; Weighs New Bid,» New York Times, April 20, 1971, P. 1.

اجتماعه ببيرغيس، ومايكل ستيرنر، رئيس مكتب مصر في وزارة الخارجيَّة الأَمريكيَّة، في 23 نيسان/ أبريل. وقال السَّادات لهما أنه ينبغي السماح للقوَّات المصرية بعبور القناة، ولا بد أن تسيطر مصر على ممري متلا والجدي لأهميتهما الاستراتيجية، وأن من الممكن إنشاء مناطق مجرَّدة من السِّلاح، وأن إِسرائيل تستطيع أن تبقى في شرم الشيخ في المرحلة الأولى، ولكن ينبغي التوصّل إِلىٰ تسوية في غضون 6 أشهر. وقال السَّادات إن إِسرائيل إذا لم تكن مستعدّة للتخلّي عن الممرَّات، فعلى الولايات المتحدة أن تنهي مبادرتها.

لو أُخذ بيان السَّادات بحرفيته لتوقف المسعى الأَمريكي. إذ من الواضح أن إِسرائيل لم تكن مستعدة لقبول هذه الشروط. واستخلص البيت الأَبيض أن ثمَّة فرصة ضئيلة للاتِّفاق، ولكن وزارة الخارجيَّة لم تشأ أن تتخلَّى عن مساعيها بسهولة. إذ قرّر روجرز، آملاً أن يعدل السَّادات من موقفه، السَّفر إِلىٰ الشرق الأَوسط، وبذا كان أول وزير خارجيَّة أَمريكي يزور مصر وإِسرائيل منذ 1953.

وصل روجرز إِلىٰ القاهرة في 14 أيار/ مايو، في وقت كان فيه الوضع السياسي الداخلي للسادات مهتزاً بعض الشيء. إذ كان قبل يومين قد طرد علي صبري، الأمين العام للاتّحاد الاشتراكي العربي. ولما كان صبري معروفاً بموالاته للسوفييت، فقد لقيت إزاحته ترحيباً من الأَمريكيين، وفي هذا الجو جرت المباحثات مع السَّادات على ما يرام. كان السَّادات مهذباً وساحراً، وراغباً فيما يبدو بإظهار المرونة.

جوبه روجرز بصعوبة أكبر في إِسرائيل. كان الإِسرائيليون لا يميلون إِلىٰ روجرز شخصياً، ويشكّون في أنَّه موالٍ للعرب. ومع هذا فقد كانت المناقشات مفصلة، وسرعان ما وصلت إِلىٰ القضايا الأساسية. كيف يمكن الربط ما بين اتِّفاق جزئي، وتسوية سلمية شاملة؟ لم تكن إِسرائيل راغبة في هذا الربط، في حين أن السَّادات كان يرغب في الحصول على جدول زمني لانسحاب إِسرائيلي

كامل، يكون الاتِّفاق الجزئي فيه مجرد خطوة أولى. إلىٰ متى سيستمر وقف إطلاق النَّار؟ كانت إسرائيل ترى تمديداً غير محدود، في حين كانت مصر تفضل تجديداً قصيراً. كم ستبتعد إسرائيل في انسحابها عن القناة؟ بضعة كيلومترات، أم عند منتصف الطريق إلىٰ سيناء؟ كيف سيتم الإشراف على الاتِّفاق؟ هل سيسمح للقوَّات المصرية بعبور القناة؟ وهل سيسمح للسفن الإسرائيلية باستخدام القناة بعد فتحها؟ حول كل نقطة من هذه النقاط كانت مواقف الطرفين متباعدة تماماً. وكان موشيه دايان وزير الدفاع الإسرائيلي، يشعر بخطر الجمود في الموقف، وقد أجرى بعض التعديلات على الموقف الإسرائيلي في مباحثاته مع سيسكو. إذ قال إن إسرائيل ستكون مستعدة لقبول وجود مدنيين، وتقنيين مصريين على الطرف الشرقي للقناة، وليس قوَّات عسكرية، وأضاف بأن بلاده ستوافق عندما يُعاد فتح القناة، على إجراء مباحثات لانسحاب القوَّات الإسرائيلية[97]. وقد فُوِّض سيسكو بالعودة إلىٰ مصر لمناقشة هذه الأفكار مع السَّادات، وإبلاغ إسرائيل بنتائج مباحثاته.

وفي القاهرة عرض سيسكو عدداً من الأفكار، التي كان يأمل أن تردم الهوة بين الطرفين[98]. وأبدى السَّادات استعداده للبحث، في أن تكون هناك قوة مصرية محدودة فقط على الضفة الشرقية للقناة، ووعد بإرسال مساعده الثقة، محمود فوزي إلىٰ واشنطن، حاملاً رده على مقترحات سيسكو الأخرى. وبعد بضعة أيام. وبعد أن فرغ السَّادات من عزل بعض وزرائه الأساسيين

---

(97) Whetten, Canal War, PP. 182-83; Peter Grose, «Israeli Cabinet Briefed on Rogers Talks,» New York Times, May 10, 1971, P. 3.

وقد وردت خطبة مائير بتاريخ 9 حزيران/ يونيو 1971 في: «Israel Asks U. S. for New Arms Deal,» New York Times, June 10, 1971, P. 9.

(98) قال السادات في وقت لاحق في حديث له مع دي بورشغراف الذي نُشر بعنوان «Sadat: We Are Now Back to Square One: أن سيسكو قام من قبيل التوضيح برسم خطوط على خارطة سيناء تبين عمق الانسحاب الإسرائيلي. واقترح السادات مرابطة قوات حفظ السَّلام التابعة للأمم المتَّحدة بين الخطين المصري والإسرائيلي.

لتآمرهم عليه[99]، طلب إيضاحاً لبعض النقاط التي أثارها سيسكو: هل يصح الافتراض أن الإسرائيليين قد يعتبرون خط الانسحاب شرق الممرات؟ وردّ سيسكو في 18 أيار/ مايو، بأن مثل هذا الخط ليس مُستبعداً، وأن هناك شيئاً من المرونة في الموقف الإسرائيلي.

لا بدّ أن روجرز وسيسكو قد تأكّدا أن موقفهما كان دقيقاً للغاية. فهما مع المصريين كانا يحاولان تقديم الاقتراحات الإسرائيلية بأكثر مما تتضمَّن فعلاً. ومع الإسرائيليين كانا يطرحان البيانات المصرية على أفضل وجه. وبدلاً من أن يحقِّقا النجاح في إقناع أي طرف بحسن نوايا الطرف الآخر، بدا أنَّهما يفقدان المصداقيَّة وخاصَّة مع الإسرائيليين. وإذا كان فقدان المصداقية قد تأخّر قليلاً عند المصريين، فإن الطرفين في النهاية كان لديهما شعور كبير بالخداع. وفي تلك الأثناء كان تأكيد البيت الأبيض لكل من روجرز وسيسكو آخذاً في التضاؤل بسرعة[100]. وقد تأكّد للسادات بعد وقت قصير، أنَّه لا يستطيع أن يعتمد على نيكسون، وسرعان ما تخلّى عن مبادرته.

كيسينجر يتولى المهمَّة

أدَّى إخفاق التسوية المرحلية المتعلِّقة بالقناة، إلى النهاية الفعلية لإشراف كل من روجرز وسيسكو على رسم السياسة الخاصة بالشرق الأوسط. وإذا كان

---

(99) كان من ضمن هؤلاء الوزراء سامي شرف المسؤول عن أمن الرئاسة، وشعراوي جمعة وزير الداخلية والفريق محمَّد فوزي وزير الدفاع.

(100) انظر الصفحات 1278 ـ 1280 من كتاب كيسينجر White House Years للوقوف على انتقاد كيسينجر للجهد المبذول لإحياء محادثات يارنج. وقد وصف هذا الجهد بأنَّه «نشاط مقصود لذاته يهدف إلى وضع مواعيد نهائية محدّدة تحديداً ذاتياً، ولا يمكن الوفاء بها إلاَّ بالتجاوز عن خلافات لا سبيل إلى التوفيق بينها، وهذه بدورها تجعل حدوث الانفجار أمراً لا مفر منه بدرجة أكبر.. والهدف الذي أتوخاه هو الوصول إلى حالة توقف ريثما تحثّ موسكو على التوصل إلى حل وسط، أو ريثما يقرّر نظام عربي معتدل أن الطريق إلى التقدّم هو عبر واشنطن ـ وهذا أفضل».

هناك أية مبادرات جديدة فسيضطلع بها من الآن فصاعداً كل من نيكسون وكيسينجر[101].

كان كيسينجر ينتقد منذ البداية الطريقة التي عالجت فيها وزارة الخارجيَّة أَزمة الشرق الأَوسط. وهو لم يكن معجباً بالوزير روجرز، كما لم يكن متحمساً للخطة التي حملت اسمه. أما موقفه من سيسكو فقد كان أكثر تعقيداً. فقد كان معجباً حقاً بمساعد وزير الخارجيَّة وذكائه، ولكنه كان يشعر أنه نشيط أكثر مما ينبغي، وتاكتيكي أكثر منه استراتيجي، وأنَّه أكثر اهتماماً بالأمور الإجرائية منه بالجوهر. ويبدو أن أكبر أخطاء سيسكو أنه لم يخضع بشكل كاف لسلطة كيسينجر.

استخلص كيسينجر، فيما يتعلَّق بالمسعى الخاص بالتسوية المرحلية، عدداً من الدروس التي أرشدت دبلوماسيَّته الخاصة بعد حرب تشرين/ أكتوبر 1973. فقد كان يعتقد أن الولايات المتحدة قد انغمست في جوهر المفاوضات بسرعة كبيرة. وما إن حدث ذلك حتى بات دور المفاوِض غير المتحيِّز عرضة للخطر. إذ لا يصح أن تتقدَّم الولايات المتحدة بتوصيات جوهرية، إلاَّ عندما يكون الطرفان قريبين من الاتفاق.

وكان لدى كيسينجر قناعة راسخة بأن المفاوضات كي تنجح، لا بدّ أن تجري سرّاً. ويبدو تحقيق ذلك مع كل من العرب والإِسرائيليين صعباً دوماً، ولكن روجرز وسيسكو تعمّدا إجراء الكثير من المفاوضات تحت أضواء

---

(101) في الصفحة 1285 من كتاب كيسينجر المعنون White House Years يؤرخ في سيطرته العملية على سياسة الشرق الأَوسط من هذا الوقت. ويشير إلىٰ أن رابين اتصل به في أكتوبر تشرين الأول/ أكتوبر 1971 للحثّ على أن تكون له مشاركة شخصية في مفاوضات الاتفاق المرحلي، حيث يقول: «قال لي بصورة سرية أن إسرائيل قد تكون أكثر مرونة في شروطها لو كنت مشتركاً، وكانت لديها تطمينات رئاسية بأن الطلبات لن تكون بلا حدود» (ص 1287). وفي نفس الوقت كان مبعوث مصري يطلب من كيسينجر مقابلة هيكل.

العلانية. وعندما جرت المحافظة على السِّرِّيَّة، كما جرى أثناء مباحثات روجرز في القاهرة، كان البيت الأَبيض هو من بقي في الظلام[102]!.

كانت فكرة اتفاق مرحلي لا يرتبط بشروط تسوية نهائية، فكرة جذَّابة للغاية لدى كيسينجر. وكان متلهفاً على نحو خاص لتحقيق اتِّفاق كهذا، إذا ما ضمن مغادرة المستشارين العسكريين السوفييت لمصر. بيد أن نهج الاتِّفاق المرحلي لم يلبث، من الناحية العملية، أن ارتدّ إِلىٰ مفهوم التسوية الشاملة مع الانسحاب من القناة، باعتباره المرحلة الأولى فقط من مراحل اتِّفاق شامل. ولهذا فإن تعلّق كيسينجر الأولي بتلك المقاربة لم يلبث أن خبا في شهر نيسان/ أبريل، ومع حلول الصيف بات مستعداً للقناعة بأنَّها لا أمل لها بالحياة، حتى ولو أدَّى ذلك إِلىٰ بعض المخاطرة في العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية.

كذلك عارض كيسينجر منطق وزارة الخارجيَّة، الذي كان جوهره أن حجب الأَسلحة عن إِسرائيل، كفيل بحملها على اتخاذ مواقف معتدلة في المفاوضات. وكان يرى أن ذلك لا يؤدي إِلاَّ إِلىٰ شعور أقل بالأمن، وبالتالي يدفعهم إِلىٰ أن يكونوا أكثر عناداً. كما أنَّه يزيد من آمال العرب مع استمرار تدفق الأَسلحة السوفييتية، على كل من مصر وسورية بكميات كبيرة. أما إِسرائيل فإنَّها لن تكون معتدلة إِلاَّ إذا شعرت أنها قوية، ولن يعود العرب إِلىٰ الدبلوماسيَّة بطريقة جديَّة، إِلاَّ إذا رأوا أن الأَسلحة السوفييتية لا تبشِّر بحلّ عسكري. وأخيراً كان كيسينجر يشير أن موقف الإِسرائيليين سليم، وقوي حين يرفضون تقديم تنازلات لمصر، ما دام الوجود العسكري السوفييتي هنا قائماً بهذه الضخامة. ليطرد السادات السوفييت وعندئذ يمكن أن تبدأ مباحثات السَّلام[103].

---

(102) Henry Tanner, «U. S. Assures Israel on Sinai Memo, New York Times, June 30, 1971, P. 3.

(103) Kissinger, White House Years, PP. 1280-89.

بدأ أمل كيسينجر باحتمال إضعاف مكانة السوفييت في الشرق الأَوسط، يزداد منذ نشوب الحرب الأهلية في الأردن. فالسَّادات، كان قد تحرّك ضد مستشاريه، الذين يفترض أنَّهم موالون للسوفييت، وقام الأردن بتصفية من تبقَّى من فلول منظمة التحرير في البلاد، والأهم من ذلك فقد دُحر الانقلاب الشيوعي في السودان ـ في شهر تموز/ يوليو ـ بفضل التدخّل المشترك المصري ـ الليبي.

وسرعان ما تبيَّن للسادات أنَّ التعامل مع روجرز وسيسكو، لا طائل تحته بعد الآن. فبعد المباحثات التي جرت بين روجرز ورياض في شهر أيلول/ سبتمبر 1971، أخذ السَّادات يتَّصل بكيسينجر ونيكسون عبر الوسطاء، بمن فيهم مستشاره لشؤون الأَمن القومي حافظ إسماعيل[104]. بيد أن خط الاتصال هذا، الذي تجاوز وزارة الخارجيَّة معتمداً على قنوات استخباراتية، لم يستخدم إلاَّ نادراً في الأشهر التالية وإن كان متاحاً عند اللزوم.

كانت العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية في تلك الفترة أقوى من أي وقت مضى. وكان نيكسون طوال عام 1972 قادراً على تصوير إدارته على أنَّها مسانِد قوي لإسرائيل. فقد ساعدت اتِّفاقيات التسليح على تخفيف التوترات. ووضع الطرفان خلافاتهما وراء ظهريهما، واقترب السفير رابين كثيراً من تأييد ترشيح نيكسون ضد منافسه الديمقراطي.

وخلال أواخر عام 1971 وعام 1972 لم يكن مضمون السياسة الأَمريكيَّة في الشرق الأَوسط، أكثر من مجرد تأييد سافر لإسرائيل. وقام البيت الأَبيض بإبلاغ وزارة الخارجيَّة صراحة، بعدم التفكير بأية مبادرات جديدة إلاَّ بعد الانتخابات. وفي تلك الأثناء كان نيكسون يُعد نفسه لجني ثمار المفاوضات

---

(104) انظر: Heikal, Road to Ramadan, PP. 140, 152-55. ويؤرخ كيسينجر بدء الاتصالات مع السادات عن طريق القناة الخلفية بربيع عام 1972. انظر: Kissinger, White House Years, P. 1276.

التي أجراها كيسينجر مع الصينيين والسوفييت، إذ بدا من الواضح أن السياسة الخارجيَّة الناجحة ستكون عنصراً رئيسياً في حملة إعادة انتخابه.

دبلوماسيَّة القمم

عند نهاية شهر شباط من عام 1972، سافر الرئيس نيكسون إلىٰ بيكين، للقاء الزعيم ماوتسه تونغ ورئيس الوزراء تشو إن لاي. ولم تكن المناسبة مناسبة تاريخية فقط بالنسبة للعلاقات الأَمريكيَّة ـ الصينية، بل اكتسبت أيضاً أهمية أكبر. فقد كان نيكسون وكيسينجر يحاولان تعديل العلاقات بين القوى العظمى، من أجل توفير الاستقرار وتجنّب حرب نووية. وكانا يفترضان أن الاتّحاد السوفييتي سيظل الخصم الأول للولايات المتحدة، ويمثِّل التهديد الأكبر لمصالحها. ومن أجل كبح جماح الاتّحاد السوفييتي، كانت الولايات المتحدة مستعدة لتطوير علاقاتها مع منافس موسكو الرئيسي وهو الزعامة الصينية. تلك كانت ضربة تقليديَّة في سياسة توازن القوى، فإن نجحت فسوف تعطي قيمة جوهرية لسياسة الانفراج التي كان يروِّج لها الرجلان على نطاق واسع. ولهذا كانت بيكين محطة مهمة على الطريق إلىٰ موسكو، التي كان يتوقع أن يزورها نيكسون في شهر أيار/ مايو.

تحوَّلت التطورات في ڤيتنام، ما بين قمتي بيكين وموسكو، نحو ما يُنذر بأسوأ الأمور. فقد دفع الڤيتناميون الشماليون بقوَّات نحو المنطقة المجرَّدة في 30 آذار/ مارس، وحقَّقت القوَّات الشيوعية على مدى بضعة أسابيع مكاسب كبيرة. وردت الولايات المتحدة على ذلك بتشديد القصف الجوي، وبتقديم تنازل مهم للڤيتناميين الشماليين، أثناء مباحثات كيسينجر في موسكو في أواخر شهر نيسان/ أبريل[105]. وفي 8 أيار/ مايو اتخذ نيكسون قراراً كان موضع جدل يقضي باستئناف القصف الشديد لڤيتنام الشمالية، وزرع الألغام البحرية في

Tad Szule, «Behind the Vietnam Cease-Fire Agreement,» Foreign Policy, no. 15 (105) (Summer 1974), PP. 34-41.

ميناء هايفونغ، آملاً بذلك إلىٰ قطع تدفق إمدادات السلاح على هانوي. وكان يدرك أن من شأن هذا أن يضع الولايات المتحدة في نزاع مكشوف، مع كل من الاتّحاد السوفييتي والصين. وكان عدد كبير من مستشاريه على قناعة بأن بريجينيف، سيجد نفسه مضطراً لإلغاء مؤتمر القمَّة المُزمع عقده. ولكن نيكسون بقي صامداً في موقفه، وابتلع السوفييت كرامتهم واستقبلوا نيكسون في موسكو في 22 أيار/ مايو.

أحد الآمال الكبرى لسياسة نيكسون ـ كيسينجر الخارجيَّة كان معقوداً على الانفراج بين الدول العظمى، لأنَّه سيكون في صالح السياسة الأَمريكيَّة في، أماكن أخرى من العالم. وبدا أن القمتين تؤكدان هذا الاعتقاد بأنه لا الصينيُّون ولا السوفييت سيسمحون للتطورات في ڤيتنام، أن تقف حجر عثرة في طريق مصالحهم في التعامل مع الولايات المتحدة. ولربما تقتنع موسكو أيضاً، بأن تخضع سياستها الشرق أَوسطية، لمقتضيات الانفراج. وقد كان نيكسون وكيسينجر، يستعدان لاستكشاف هذه الإمكانية كوسيلة لتقليص فرص المواجهة بين الدولتين العظميين في الشرق الأَوسط، آملين بتقليص النفوذ السوفييتي في مصر.

كان هذا يمثِّل من حيث الجوهر عودة إلىٰ مفهوم الربط الذي كان الموجه لمبادرة روجرز ـ سيسكو لعام 1969، أما الآن فقد توفَّرت عناصر أكبر يمكن البناء عليها في العلاقة الأَمريكيَّة ـ السوفييتية، وخاصة مع التوصّل إلىٰ معاهدة للحد من الأَسلحة الاستراتيجية النووية. ويساوي ذلك في الأهمية، من وجهة نظر كيسينجر، حقيقة أن روجرز وسيسكو لن يكون لهما يد في المباحثات مع الروس حول الشرق الأَوسط.

وكان هدف كيسينجر الواضح، هو الوصول إلىٰ اتِّفاق مع القيادة السوفييتية، حول مجموعة من المبادىء تصلح إطاراً لتسوية عربية ـ إسرائيلية. وبعد ذلك سيحصل على تأييدها للشروع في عملية تفاوضية خطوة ـ خطوة

تستند إلىٰ هذه المبادىء، تاركة القضايا الأساسية كالرسم النهائي للحدود لتفاوض الأطراف نفسها[106].

وفي المذكرة المشتركة التي صدرت في 19 أيار/ مايو، أعاد البَلَدان تأكيدهما على تأييد قرار الأُمم المتَّحدة 242، ومهمة يارينغ ووجدا أن «تسوية النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي»، سوف تفتح آفاق تطبيع الوضع في الشرق الأَوسط، وتسمح على نحو خاص بالنظر إلىٰ خطوات أبعد، من أجل تحقيق استرخاء عسكري في المنطقة»[107].

جاءت قراءة المبادىء الأساسية والمذكرة المشتركة في القاهرة، لتؤكّد أشد مخاوف السَّادات. فلقد اتفق كل من الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي، على تجميد الوضع في الشرق الأَوسط خشية الإضرار بعلاقاتهما. فتحت ستار الانفراج، أقنعت الولايات المتحدة الاتّحاد السوفييتي بتقليص دعمه للعرب. وهذا ما يفسِّر عزوف السوفييت عن تقديم أَسلحة متطورة، وتأخير الإمدادات، وهما أمران كانا يقضّان مضجع السَّادات على مدى شهور.

كان السَّادات يعي، أن الأَمريكيين ينظرون إلىٰ الوجود السوفييتي في مصر على أنَّه عقبة في وجه السَّلام. وكان روجرز قد أثار هذا الموضوع في شهر أيار/ مايو. والآن وقد عُرفت نتائج لقاء القمّة، فقد بدا واضحاً للسادات أن السوفييت لن يضغطوا على الأَمريكيين دفاعاً عن مواقفه. وفي شهر حزيران

---

(106) للوقوف على نص الاتِّفاقية، انظر صفحة 1494 من كتاب كيسينجر White House Years وفي غير هذا الموضوع قلّل كيسينجر من أهمية هذه المبادىء قائلاً إنه اتبع في محادثاته مع جروميكو «تاكتيك التأخير» (الصفحتان 1247 ـ 1248). وانطباعي هو أن كيسينجر أخذ هذا الأسلوب مأخذاً أكثر جدية إلىٰ حد ما، ويكاد يكون من المؤكد أن نيكسون عمل نفس الشيء. والمبادىء وإن كتبت بعبارات عامة، فإنَّها ـ على ما يقول كيسينجر ضمناً ـ لم تردد قرارات الأُمم المتَّحدة كالببغاء.

(107) أدرجت نصوص كل من المبادىء الأساسية والبيان المشترك في: United States Foreign Policy, A Report of the Secretary of State (April 1973), PP. 598-603.

قدّم وزير الدفاع السعودي، الأمير سلطان، تقريراً عن محادثاته مع كل من نيكسون وكيسينجر، يفيد بأنّه ما لم يتم التخلّص من الوجود السوفييتي في مصر، فإن الأَمريكيين لن يمارسوا الضغط على إِسرائيل لتقديم تنازلات[108].

من غير المعروف أي عامل من هذه العوامل كان أكثر ضغطاً على السَّادات، ولكنه في بداية تموز/ يوليو كان قد عزم على التصرّف. ففي 8 تموز/ يوليو أبلغ السَّادات السفير السوفييتي بأنه يطلب مغادرة معظم الخبراء والفنيين السوفييت من مصر. وأعلن السَّادات عن قراره هذا رسمياً يوم 18 تموز/ يوليو. وكان على ما يزيد عن عشرة آلاف سوفييتي أن يغادروا مصر، وكان هذا ما تمنّاه كل من كيسينجر والإِسرائيليين على وجه الدقّة.

ردّ الفعل على طرد المستشارين السوفييت

إذا كان الدافع الأول للسادات بإعلانه عن طرد المستشارين السوفييت من مصر، هو أن يعبِّد الطريق أمام دور دبلوماسي أَمريكي فعَّال، فقد اختار وقتاً غريباً لاتخاذ هذه الخطوة الضخمة[109]. فنيكسون كان في خضم حملة انتخابية، ولم يكن مستعداً لتعريض تفوقه الواضح على السيناتور جورج مكغافرن للخطر، بالإقدام على سياسة خلافية في الشرق الأَوسط. وكان هو وكيسينجر يقدِّران أهمية خطوة السَّادات، وقاما من خلال «قناة خلفية» بإبلاغ

---

(108) Heikal, Road to Ramadan, PP. 183-84; and «Arab Aide's Talk with Nixon Called Factor in Sadat's Decision,» New York Times, July 24, 1972, P. 2.

(109) Uri Ra'anan, «The USSR and the Middle East: Some Reflections on the Soviet Decision-Making Process,» ORBIS, vol. 17 (Fall 1973), PP. 946-77, أثار هذا المرجع التساؤل عما إذا كان السادات قد اتخذ المبادرة بمطالبة المستشارين بالخروج. وقد أثار رعنان بعض النقاط المحيرة، ولكن يبدو أنه قلّل من تقدير مدى نقمة السادات على السوفييت. انظر أيضاً: David Kimche, The Last Option Nasser, Arafat and Saddam Hussein. The Quest for Peace in the Middle East (Scribner's 1991), PP. 22-24 ففي هذا المرجع كلام آخر عن أن السادات والسوفييت اتفقا على سحب المستشارين السوفييت باعتبار ذلك خطوة في سبيل الخطة المصرية لخوض الحرب.

الرئيس المصري أنه بعد الانتهاء من الانتخابات الأَمريكيَّة، ستطرح مبادرة جديدة ستكون هذه المرة تحت إشراف البيت الأَبيض.

يفترض في الرئيس الذي يُعاد انتخابه، أن يكون محصّناً ضد الضغوط العادية للسياسات المحلية. وقد كانت مكانة نيكسون في الذروة، وشهرة كيسينجر في تصاعد، ولعلهما كانا يستطيعان معاً أن يرتِّبا تسوية في الشرق الأَوسط.

في منتصف صيف 1972 لم يكن يتوقع إِلاَّ قلَّة من الناس أن تتأثَّر قدرة نيكسون على إِدارة السياسة الخارجيَّة، بل أن يتأثر وجوده في منصبه في النهاية، تأثراً بالغاً من جراء حادثة كانت تبدو صغيرة في 17 حزيران/ يونيو. فقد ضُبط في ذلك اليوم خمسة رجال داخل مكاتب مقر الحزب الديمقراطي في مجمع ووترغيت في واشنطن العاصمة. وقد كشف التحقيق حول التسلُّل أن من قاموا باقتحام المكان، كانوا على صِلة وثيقة بوكالة المخابرات المركزية وبلجنة إعادة انتخاب الرئيس. ربما كان بعض الجمهوريين المتحمسين قد خرقوا القانون، ولكن أحداً لم يشك في أن الرئيس نفسه يمكن أن يكون متورطاً. وفي 23 حزيران/ يونيو 1972، اتضح من مكالمة ما بين نيكسون وكبير موظفي البيت الأَبيض هـ. ر. هالدمان أنَّه كان متورطاً بفضيحة ووترغيت، وذلك لأنه أمر وكالة المخابرات المركزية بأن توقف تحقيقات مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) في الحادث لاعتبارات سياسية. وكانت تلك المكالمة مسجّلة على أشرطة التسجيل السرية للرئيس. وكان اكتشاف هذه الحقيقة بعد أقل من عامين بمثابة ضربة قاتلة لكفاح نيكسون من أجل النجاة من تلك الفضيحة. ولكن لم يكن لدى نيكسون، وكبار مساعديه أي سبب يدعوهم للخشية من عدم القدرة على احتواء قضية ووترغيت.

بذل نيكسون عشية إعادة انتخابه جهداً كبيراً في التحدّث عن خططه في الشرق الأَوسط، وقال: «سيكون للشرق الأَوسط أولوية عالية، فالشرق الأَوسط

وإن بقي طوال العامين السابقين في فترة هدنة شائكة، أَو وقف لإطلاق النَّار أَو أية تسمية أخرى، فإنه قد ينفجر في أي وقت»[110]. وكانت الرسالة الموجهة إِلىٰ السَّادات تتضمن بأن عليه أن يصبر قليلاً، فلن يلبث أن يأتي دوره بعد تسوية قضية ڤيتنام.

أُعيد انتخاب نيكسون بأغلبية كبيرة في 7 تشرين الثاني/ نوڤمبر، حيث كسب 60,8٪ من مجمل أصوات الشعب، و97٪ من أصوات «المجمع الانتخابي». ولكن «السَّلام الذي في متناول اليد» في ڤيتنام ظلّ وهماً. إذ أنَّه لم يتحقَّق، إِلاَّ بعد حملة قصف مكثَّف على ڤيتنام الشمالية في شهر كانون الأول/ ديسمبر. وبعد طول انتظار، تكلَّلت مباحثات باريس بالنجاح في 13 كانون الثاني/ يناير، 1973، وفي 27 من الشهر نفسه تم توقيع الاتفاق النهائي.

---

(110) مقابلة صحفية أجراها جارنيت د. هورنر مع نيكسون في جريدة «واشنطن ستار» في 5 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1972 وأيضاً: «Statements from Pre-Election Interview with Nixon Outlining 2d- Term Plans,» New York Times, November 10, 1972, P. 20.

الفصل

4

دبلوماسيَّة كيسينجر: الجمود والحرب

1973 ـ 1972

أصبح كيسينجر، بانتهاء القتال في ڤيتنام، جاهزاً لتحويل انتباهه إلىٰ الشرق الأَوسط. وكان في السابق قد أولى قليلاً من الاهتمام، لما كان يُعد له من مواد ملخصة حول المنطقة؛ أما الآن فقد بات يطلب دراسات، ويطلع على مذكرات مطوَّلة، ويشرع في إعداد استراتيجية مفصَّلة من صنعه.

وكان كيسينجر يريد أن يتجنّب المجادلات التي لا تنتهي، حول معنى القرار 242، وخطة روجرز، ومذكرة يارينغ. فالمقاربة ذات الطابع القانوني محكوم عليها بالفشل السريع. فالمطالب الأساسية لكلا الطرفين قد صيغت بعبارات متناقضة تماماً. الإِسرائيليون يريدون السَّلام والاعتراف، والعرب يريدون الأَرض والعدل. وبدلاً من محاولة الوصول إلىٰ اتِّفاق أولي حول هذه الأهداف النهائية، كان كيسينجر يأمل في التحرّك سريعاً نحو اتِّفاقيات عملية، ولكنه أدرك أهمية إعداد صياغة ما، ترسم النتيجة النهائية لعمليَّة المفاوضات. فصياغة يارينغ لـ «السَّلام» من أجل «الانسحاب» لم ترق له، وفضَّل بدلاً منها صيغة أوصى بها معاونوه، تقضي بإحداث توازن ما بين «السيادة» و«الأَمن». ومزية هذه الصيغة أنَّها تفتح الباب أمام مجال واسع من النتائج التفاوضية. فمن الممكن على سبيل المثال أن يُعترف لمصر بالسيادة على سيناء، في وقت مبكر، وتوضع في الوقت نفسه ترتيبات أمنية، تسمح للإِسرائيليين بالاحتفاظ بوجود لهم في مناطق مهمَّة في غضون فترة انتقال طويلة.

ومن أجل امتحان بعض هذه الأفكار الجديدة، كان التقاء كيسينجر بمستشار السادات للأمن القومي، حافظ إسماعيل، ذا أهمية غير عادية. وكان إسماعيل أول مسؤول مصري رفيع المستوى يلتقي، مع نيكسون فترة من الوقت. وقد رُتبت هذه الزيارة ضمن إطار «القناة الخلفية». ولم تُبلّغ وزارة الخارجيَّة بهذا اللقاء حتى آخر لحظة. اجتمع نيكسون مع حافظ في 23 شباط/ فبراير، وكان يبدو مرتاحاً واثقاً بنفسه. وأجمل استراتيجية التفاوض على مستويين: أحدهما يتولى أمره كيسينجر سراً، كما كان الشأن في ڤيتنام، والثاني علني وتتولَّى أمره وزارة الخارجيَّة[1]. وأشار نيكسون أيضاً إلىٰ صيغة السيادة والأمن.

كان غرض إسماعيل الحقيقي من المجيء إلىٰ واشنطن، يتمثَّل في التشاور مع كيسينجر. وخلال اليومين التاليين اجتمع حافظ مع كيسينجر في ضيعة خاصة في كونيتكوت[2]، حيث تحدَّث كيسينجر عن ضرورة قبول فكرة تسوية تتحقَّق على مدى فترة طويلة. وأشار ضمناً إلىٰ أن السيادة المصرية على سيناء، يمكن الاعتراف بها في وقت مبكر، ولكن الحاجة تدعو إلىٰ ترتيبات أمنية خاصَّة، وعلى مدى طويل. بدا إسماعيل مهتماً، وكانت المباحثات تسير على ما يرام. وأشار إلىٰ أن تطبيع العلاقات مع إسرائيل، قد يكون ممكناً في النهاية. وأن الأردن يمكن أن يكون له دور في حل القضية الفلسطينية، ولكنه كان عنيداً فيما يتعلَّق بالانسحاب الكامل من سيناء والجولان، مبدياً بعض المرونة فيما يتعلَّق بالضفَّة الغربية[3].

---

(1) Heikal, Road to Ramadan, PP. 200-02; and Henry Kissinger, Years of Upheaval (Little, Brown, 1982), P. 213.

(2) Heikal, Road to Ramadan, PP. 202-03 كانت الضيعة مملوكة لدونالد كندال رئيس مجلس إدارة بيبسي كولا الذي كان من المناصرين المتحمسين لنيكسون، وكان داعية إلىٰ تحسين العلاقات الأمريكيَّة المصرية.

(3) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 214-15.

ثم ناقشا بالتفصيل الالتزامات التي ينبغي على كل من مصر وإسرائيل، أن يضطلعا بها كجزء من اتِّفاق السَّلام، والعلاقة بين هذا الاتِّفاق وحل المشكلة الفلسطينية، والترتيبات الأَمنية الملموسة بالنسبة لإسرائيل في سيناء. ولما كان كيسينجر وإسماعيل غير قادرين على حل جميع هذه القضايا، فقد اتفقا على اللقاء ثانية في وقت مبكر. ولم يكن كيسينجر في عجلة من أمره. وقد أخبر إسماعيل أنه لا يمكن تحقيق إلاَّ القليل، قبل الانتخابات الإسرائيلية المقرَّرة في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

كان هدف الجهد الدبلوماسي الذي انطلق في شباط/ فبراير، إقامة «إطار تفاوضي» بين مصر وإسرائيل. وكان كيسينجر يرى في ذلك استكمالاً لاتِّفاق أَمريكي ـ سوفييتي، حول مبادىء التسوية التي تم إعدادها بصورة مؤقتة في موسكو، في شهر أيار/ مايو الماضي. وكان يدرك أن جمع كافة العناصر يحتاج إلىٰ وقت.

كان الشاغل الكبير في غضون ربيع 1973، هو «أَزمة الطاقة» التي تزداد ظهوراً في الأُفق. فقد كان سعر النفط يتزايد بسرعة منذ عام 1971. وكان الإنتاج الأَمريكي راكداً، وطاقة المصافي الأَمريكيَّة غير قادرة على تلبية الطلب، فضلاً عن نقص في البنزين، وزيت الوقود في آخر العام، مما جعل شركات النفط تعيش على أعصابها. ولم يكن لدى الرئيس أية سياسة، عدا الظهور بمظهر القادر على مواجهة الأمور، في حين كان يتطلع إلىٰ طرف ما، حتى يلقي عليه بالمسؤولية. وبدأ زوَّار المملكة العربية السعودية يروون أن الملك فيصل، بات يتحدَّث لأول مرة عن استخدام سلاح النفط، للضغط على الولايات المتحدة، إذا لم تُكره إسرائيل على الانسحاب من الأَراضي العربية.

إزاء هذه الخلفية، تصاعدت حدة التوتر في الشرق الأَوسط بشدَّة في منتصف شهر نيسان/ أبريل. فقد قُذف بلبنان في خضم أَزمة، بإغارة إسرائيلية على قلب بيروت قُتل فيها ثلاثة من كبار قادة منظمة التحرير. وكان الأخطر من

ذلك أنه مع نهاية ذلك الشهر، كانت استعدادات مصر للحرب على طول قناة السويس، تتخذ طابع التصميم[4]. كما وصلت تقارير استخبارية تفيد بأن سورية قد أنجزت خطة عسكرية مفصَّلة، وأنَّها تستعد للهجوم على إسرائيل في وقت قريب. أخذت إسرائيل تلك المؤشرات على محمل الجد، وأمرت بتعبئة جزئية. وبحلول أواسط أيار/ مايو كان جو الأَزمة قد تلاشى.

في غضون تلك الفترة كانت قضية ووترغيت تتفاعل. ففي 21 آذار/ مارس أبلغ محام شاب يعمل في البيت الأَبيض، اسمه جون دين، الرئيس نيكسون بحجم تورط مستويات عليا في التغطية على «ووترغيت». وحذَّر نيكسون من «سرطان» ينمو في الرئاسة. وبعد أسابيع قليلة من هذه الحادثة، كان دين يدلي بقصة أمام محققي «مكتب التحقيق الفدرالي» الذين يتولون قضية ووترغيت. وسرعان ما تراكمت الأدلة، التي تكشف تورّط أقرب مساعدي الرئيس: جون ميتشيل، وهـ. ر. هالدمان وجون إيرليخمان. واضطر الرئيس نيكسون، إلىٰ أن يصرف المزيد من الوقت، والجهد لأَزمة ووترغيت. وفي 30 نيسان/ أبريل قبل استقالة هالدمان وايرليخمان. لم يبق من مستشاريه المقربين الآن سوى كيسينجر.

حاول كيسينجر أن يبقي سياسة الشرق الأَوسط، على الخط نفسه الذي رسمه في شباط/ فبراير، ولكن ذلك كان أمراً في غاية الصعوبة، بسبب تزعزع مركز نيكسون. وأخذ نيكسون يفكِّر في كيفية إغراء الاتّحاد السوفييتي، في التعاون معه في جهوده الرامية إلىٰ الشروع بعمليَّة التفاوض. ورغب في أن تؤيد موسكو علانية مجموعة من المبادىء، تكون بمثابة توجيهات بشأن التسوية.

---

(4) Kissinger, Years of Upheaval, P. 225 ألَّف السادات في 26 آذار/ مارس 1973 «وزارة حرب» كان هو رئيس الوزراء فيها. وبعد ذلك بثلاثة أيام قال لأرنو دي بورشجراف مراسل النيوزويك إن الحرب وشيكة. وهرع دي بورشجراف بنص الحديث إلىٰ كيسينجر قبل نشره في 9 نيسان/ أبريل 1973.

ولعل الاتّحاد السوفييتي يكون أكثر تعاوناً، إذا ما اقتنع بأن الوضع الراهن لا يعمل لمصلحته في الشرق الأَوسط. وكانت تداعب خيال كيسينجر أيضاً، فكرة إضعاف السوفييت في العراق واليمن الجنوبي أيضاً، ربما بمساعدة من إيران والعربية السعودية. وكان في ظنّه أن مثل هذه التحركات المعادية للسوفييت في الشرق الأَوسط، لا تتعارض مع هدفه في الحصول على تأييد السوفييت، للمفاوضات بشرط أن تبقى المشاركة الأَمريكيّة سراً.

في 4 أيار/ مايو، 1973، وصل كيسينجر إِلىٰ موسكو للتحضير للقاء القمة الثاني ما بين نيكسون وبريجينيف. وأثناء وجوده هناك تلقّى وثيقة من غروميكو تتضمن 9 مبادىء بشأن التسوية العربية ـ الإِسرائيلية. وقد دعت وثيقة غروميكو، خلافاً لوثيقة أيار/ مايو السابقة، إِلىٰ انسحاب إِسرائيلي كامل إِلىٰ حدود 4 حزيران/ يونيو 1967، كما نوَّهت بـ «الحقوق المشروعة» للفلسطينيين. وتضمنت ملاحظة جديدة تفيد: أي إخفاق من جانب أي فريق في تنفيذ أي جزء من المعاهدة، يخول الطرف الآخر حق الامتناع عن الوفاء بالتزاماته. أما كيسينجر، فقد فضَّل بصورة عامة وثيقة أيار/ مايو 1972 عن تلك الوثيقة[5].

لم تُطلع وزارة الخارجيَّة على هذه المناقشات، الأمر الذي فاقم إحباط وزير الخارجيَّة وليام روجرز. وازداد إحباطه عندما علم مصادفة أن كيسينجر، كان يعتزم الاجتماع ثانية مع حافظ إسماعيل. وفي هذه المرة أصر على حضور أحد ممثليه، وقد شارك ألفرد أثرتون مساعده لشؤون الشرق الأدنى، بصفة عضو في الفريق الأَمريكي، في الاجتماع الذي عُقد سرّاً في ضواحي باريس، في 20 أيار/ مايو بالفعل بين الرجلين.

---

(5) بعد عودة كيسينجر من موسكو، تشاور مع المسؤولين الإِسرائيليين بشأن ردّ فعل إِسرائيل إزاء مبادىء أيار/ مايو 1972. فقيل له إن إِسرائيل تعترض على الفكرة كلها، ولكن إذا ما أعلنت هذه المبادىء فسيطالبون بمفاوضات، ولن يتحدَّثوا عن الانسحاب الإِسرائيلي إِلاَّ للحصول على حدود آمنة ومُعترف بها.

في هذه المحادثات كان حافظ إسماعيل أقل اهتماماً بالمضمون، مما كان في شهر شباط/ فبراير. وبدلاً من ذلك ركَّز اهتمامه على الدور الذي تعتزم الولايات المتحدة القيام به، ونوع المشاركة الذي يمكن لمصر أن تتوقعه من جانب الولايات المتحدة، ونوقشت المسائل التي لم يتم حلها في شباط/ فبراير الماضي. وأصرّ إسماعيل على أن السَّلام النهائي بين مصر وإسرائيل، مرتبط بإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية.

أوضح كيسينجر لإسماعيل، استراتيجيته القائمة على محاولة التوصّل إلىٰ اتِّفاق أَمريكي ـ سوفييتي، حول المبادىء تليها مفاوضات سرية بين الأطراف. وتحدَّث كيسينجر على انفراد مع إسماعيل لعدة دقائق، وشعر أنَّه حقَّق بعض التقدّم. ثم اقترح بأن إجراء المزيد من المباحثات قد يكون مفيداً. ووعد إسماعيل بردّ قريب، وجاء هذا الردّ في 3 حزيران/ يونيو، وكان ردّاً متحفِّظاً يفتقر إلىٰ الحماسة. وربما عاد ذلك إلىٰ أن المصريين، بدأوا يشكّون في قدرة نيكسون على تحقيق نتائج، بسبب أوضاعه الداخلية المتداعية. وعلى أية حال فإن اللهجة التي كانت واعدة في مباحثات شباط/ فبراير، باتت مفقودة في شهر أيار/ مايو[6].

زيارة بريجنيف

إذا كانت العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية تبدو راكدة، فإن العلاقات

---

(6) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 226-27 كان الرأي الذي انتهى إليه كيسينجر هو أن السادات قد اتخذ فعلاً قراره الخاص بالحرب في صيف عام 1972، وأن الاجتماعات مع حافظ إسماعيل كانت أساساً تاكتيكاً لصرف النظر. ويؤخذ من مصدر إسرائيلي حسن الاطلاع أن كيسينجر كانت لديه الأسباب الداعية إلىٰ الاعتقاد بأن مصر قرَّرت دخول الحرب. ويؤخذ من موسى زاك أن الملك حسين أخبره بخطة مصرية سورية لدخول الحرب، وأن كيسينجر أخبر الإسرائيليين بذلك. وفي 21 أيار/ مايو 1973 أبلغ ديان رئاسة الأركان: «على قوة الدفاع الإسرائيلية أن تكون مستعدة قبل نهاية الصيف لأن مصر وسوريا ستشنان حرباً على إسرائيل دون الأردن» انظر جريدة «الجيروزاليم بوست، 22 أيلول/ سبتمبر 1991، ص 5».

الأَمريكيَّة ـ السوفييتية لم تكن كذلك. فكيسينجر كان قد استُقبل بكثير من المجاملة والاهتمام في شهر أيار/ مايو، وفي حزيران/ يونيو يقوم بريجنيف بزيارة الولايات المتّحدة لأول مرّة. وانصبّت المحادثات الخاصة بالشرق الأَوسط على وثيقة أيار/ مايو 1972، مع بعض الإضافات من مشروع أحدث أعده غروميكو. بيد أن صيغة الانسحاب الكامل و«حقوق» الفلسطينيين لم تكن مقبولة من جانب الولايات المتحدة.

تناقش نيكسون وبريجنيف ومعهما كيسينجر وغروميكو ومساعدوهما، مطولاً حول الشرق الأَوسط. وحذَّر بريجنيف من أن المصريين والسوريين ينوون الذهاب إِلىٰ الحرب، وأن الاتّحاد السوفييتي لا يستطيع منعهم، ولن يحول دون الحرب إِلاَّ مبادرة أَمريكيَّة جديدة، الضغط على إِسرائيل من أجل الانسحاب[7]. ولم يعط البيان المشترك الذي صدر في 25 حزيران/ يونيو، 1973، إِلاَّ فكرة ضئيلة عن مضمون المباحثات.

دخلت السياسة الأَمريكيَّة الشرق أَوسطية، بعد محادثات قمَّة حزيران/ يونيو، حالة الخمول الصيفي. ولم يكن بالإِمكان القيام بأي شيء، قبل انتهاء الانتخابات الإِسرائيلية كما أوضح كيسينجر. وكان من الواضح أن العرب في حالة إحباط، فالسَّادات وصف الولايات المتحدة في 23 تموز/ يوليو، بأنَّها «المتنمر الأكبر في العالم»، أما الملك فيصل فكان يربط علناً ما بين النفط، والنِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي[8]. وبدا السَّادات عازماً على إكراه الولايات

---

(7) Richard Nixon. RN: The Memoirs of Richard Nixon (Grosset and Dunlap, 1978), PP. 884-86.

(8) انزعج كيسينجر من الامارات الدالة على ازدياد مشاركة فيصل في النِّزاع العربي الإِسرائيلي. وخشي من أن يؤدي التشدّد السعودي في آخر الأمر إِلىٰ الإطاحة بالملكية، وربما حل محلها بعد ذلك نظام شبيه بنظام القذافي. على أن الذي كان يحدث في كل مرة يبدي فيها الملك فيصل إشارة إِلىٰ استخدام النفط كسلاح ضد الغرب، هو أن يبادر واحد من أعوانه بإبلاغ المسؤولين الأَمريكيين بأن أمثال هذه الملاحظات يراد بها الاستهلاك العربي المحلي فقط.

المتحدة، على كشف موقفها المناوىء للعرب، بمطالبته مناقشة أَزمة الشرق الأَوسط في الأُمم المتَّحدة، ثم بإلحاحه على التصويت على قرار يدين إِسرائيل بشدَّة. واستخدمت الولايات المتحدة، للمرة الخامسة في تاريخها، حق النقض (الفيتو)، وكان ردّ الفعل في العالم العربي غاضباً. وتساءل كيسينجر بدهشة عما إذا كان السَّادات يسعى إِلىٰ مجابهة، أَو أنه يحاول أن يرغم الولايات المتحدة على القيام بدور أكبر فحسب؟

وخلال الأسبوع الثالث من شهر تموز/ يوليو 1973، خصّ كيسينجر جانباً كبيراً من الوقت للشرق الأَوسط، وخاصة مسألة المشاركة السوفييتية. وكان منزعجاً من أن طريقة وزارة الخارجيَّة في حل النِّزاعات، قد جعلت الولايات المتحدة «تتكىء» على أصدقائها، في حين كان يفضل أن يبني على هذه الصداقات، من أجل رعاية المصالح الأَمريكيَّة في المنطقة.

وفي 22 آب/ أغسطس، أعلن نيكسون فجأة، تعيين كيسينجر وزيراً للخارجيَّة بدلاً من وليم روجرز. واحتفظ كيسينجر بمنصبه كمستشار للرئيس لشؤون الأَمن القومي أيضاً. وبذا لم يعد كيسينجر ليلقلق من إضعاف وزير الخارجيَّة لسياسته.

التقى كيسينجر في 25 أيلول/ سبتمبر، بعد ثلاثة أيام من استلامه منصب وزير الخارجيَّة، معظم السفراء العرب في الأُمم المتَّحدة. وحاول أن يؤسِّس لمصداقيته كوسيط جدير، مشيراً بمزاح إِلىٰ أصله اليهودي[9]. ووعد أن يعمل من أجل تحقيق تسوية، ولكنه حذَّر السفراء من أن يتوقعوا معجزات. إنه يعد فقط بما يستطيع تقديمه، ولكنه سيعمل على تحقيق كل ما يعد به. وباتت تلك الجملة عبارة شائعة تتكرَّر في مباحثات كيسينجر مع العرب.

---

(9) Edward R. F. Sheehan, The Arabs, Israelis, and Kissinger (Reader's Digest Press, 1976), PP. 27-28.

تحدَّث كيسينجر على مدار الأسبوعين التاليين عدة مرات، مع وزراء الخارجيَّة العرب ووزير الخارجيَّة الإسرائيلي، الذين حضروا اجتماعات الجمعية العامة للأُمم المتَّحدة في نيويورك. واقترح إجراء محادثات جادة بين مصر وإسرائيل ـ وهو ما بدا مقبولاً ـ تقوم فيها الولايات المتحدة بدور الوسيط، وتبدأ في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر اجتمع مع وزير الخارجيَّة المصري محمَّد الزيات لتأكيد هذه الترتيبات. وكان راضياً بصورة عامة عن نتائج أول غزوة له في ميدان دبلوماسيَّة الشرق الأَوسط بصفته وزيراً للخارجيَّة.

وفي اليوم التالي، «يوم الغفران»(*)، شنَّت كل من مصر وسورية هجوماً مشتركاً على القوَّات الإسرائيلية في مرتفعات الجولان وسيناء. وانهارت سياسة كيسينجر الذي فاجأته الحرب، التي كان يبدي خشيته من وقوعها بين حين وآخر، ولكن لم يكن يتوقع حدوثها فعلاً. فقد كان سوء قراءته لمقاصد العرب، هو اعتقاده بإمكان الحيلولة دون الحرب، عن طريق إبقاء ميزان القوى العسكري لصالح إسرائيل. هذا الرأي الذي تكوّن في خضم أَزمة الأردن كان رأياً مضلّلاً على نحو خطير.

هدوء مضلّل

كانت الفترة ما بين أَزمة الأردن في أيلول/ سبتمبر 1970 وحرب تشرين/ أكتوبر في 1973، فترة هدوء خادع في الشرق الأَوسط. ففي غياب أَزمات حادة، لم يبد صانعو السياسة الأَمريكيون، إلاَّ القليل من الاهتمام نسبياً بشؤون المنطقة. وكان إطار المرجعية الأساسي الذي وضعه نيكسون وكيسينجر، قد أكَّد على المناقشة الأَمريكيَّة ـ السوفييتية، وعلى الحاجة إلىٰ أن يبقى ميزان القوى في صالح إسرائيل. وقد حاولت وزارة الخارجيَّة أَن تطرح دورياً مبادرة

(*) عيد ديني يهودي ـ المترجم.

جديدة ـ مباحثات يارينغ، تسوية القناة المرحلية، المحادثات عن قُرب ـ ولكن البيت الأَبيض كان لا يدعم مثل هذه المبادرات إلاَّ دعماً يسيراً، وفي بعض الأحيان كان سلبياً للغاية. وتجسَّدت المنافسة البيروقراطية في صراع كيسينجر ـ روجرز، وكان نيكسون بصورة عامَّة يساند كيسينجر[10]. والمحصلة أن سياسة الولايات المتحدة في تلك الفترة، قد اتّسمت بعدم الفعالية والتناسق بشكل خاص.

وأثناء مباحثات التسوية المرحلية بشأن القناة، ظهرت عيوب تلك السياسة بوضوح، حيث خلّفت وساطة روجرز ـ سيسكو، المرارة في كل من إِسرائيل ومصر والبيت الأَبيض. وخلال هذه الفترة التي خلت من الأَزمات، بدأت السياسة الداخلية أيضاً تتدخّل في صنع السياسة بطرق ملحوظة. فبسبب موجبات سنة الانتخابات، عام 1972، لم تطرح أية مبادرات، ولا أي تجاوب مع طرد السَّادات للمستشارين السوفييت. وفي عام 1973، بدأت قضية ووترغيت تحول انتباه الرئيس عن المنطقة، التي كان قد وعد بأن يوليها الأولوية العليا في سياسته الخارجيَّة.

وعندما شرع كيسينجر بالتركيز على الشرق الأدنى، راح يتلاعب بفكرة البحث عن اتِّفاق أَمريكي ـ سوفييتي حول المبادىء، بوصفه أحد خيوط سياسته، فيما كان يتحدَّث مع مصر وإِسرائيل عن خطوات مرحلية، وعن مبادىء لتسوية شاملة معاً. ومن دواعي المفارقة أن كلتا المقاربتين، قد جربهما

---

(10) للمقارنة بين آراء كيسينجر ونيكسون، انظر: Kissinger, Years of Upheaval, PP. 202-03, 211-12, ويؤخذ مما قاله كيسينجر أن نيكسون «كان في قرارة نفسه يريد.. أن يفرض تسوية شاملة في وقت ما خلال مدته في الحكم» (ص 202). وللوقوف على بيان مفصّل على نظرة نيكسون إِلىٰ النِّزاع العربي الإِسرائيلي في أوائل عقد التسعينات، وهو ما يميل إِلىٰ تأكيد الرأي القائل بأَنَّه كان يحبّذ تسوية شاملة. انظر: Richard M. Nixon, Seize the Moment: America's Callenge in a One-Superpower World (Simon and Schuster, 1992), PP. 217-03.

روجرز من قبل وأخفق. ولم يكن كيسينجر أكثر نجاحاً، ولكن يبدو أن هدفه الأكبر، على أية حال، كان دفع العرب إلىٰ اليأس من راعيهم السوفييتي بحيث ينشقّون عنه، ويتحوَّلون إلىٰ الولايات المتحدة طلباً للعون. وعندما أخذ السَّادات يتحرَّك بهذا الاتجاه عام 1972، لم يأخذ كيسينجر موقفه كثيراً على محمل الجد.

كان التحول السياسي الأبرز في هذه الفترة يتَّصل بالعلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية. فبالرغم من الخلافات الدورية حول إمدادات السِّلاح، فإن البلدين دخلا في مرحلة تعاون غير معتادة في علاقاتهما، التي كثيراً ما عراها الاضطراب. وجاءت هذه المرحلة نتيجة أَزمة الأردن بالدرجة الأولى، ونظرة كيسينجر إلىٰ إسرائيل باعتبارها ذخراً استراتيجياً. فقد تلقَّت إسرائيل في السنوات المالية 1968، 1969، 1970، من الولايات المتحدة اعتمادات عسكرية بقيمة 25م.، و85م. و30م. دولار على التوالي. وبعد أَزمة الأردن في السنوات المالية: 1971، و1972، و1973 تلقَّت إسرائيل اعتمادات بقيمة 545 مليون دولار، و300 مليون دولار و307,5 مليون دولار على التوالي: أي بزيادة مقدارها 10 أمثال.

ومع هذا فقد تبين أن الميزان العسكري، ليس مفتاحاً للاستقرار الإقليمي والحيلولة دون الحرب. كما لم يمنع الانفراج الاتّحاد السوفييتي من الاستمرار في تسليح مصر وسورية والعراق، على الرغم من الأمارات المتزايدة على النوايا العربية باستئناف القتال. وظل نيكسون وكيسينجر يفتقران إلىٰ الحساسية تجاه التوجهات الإقليمية المؤدية إلىٰ حرب، وتجاهلا الأهمية المتزايدة للنفط العربي كعنصر في المعادلة الإقليمية. وكانت المفاهيم التي توجِّه سياستهما أوسع، من أن تستوعب هذه التطورات، والأكثر من ذلك أن كيسينجر، لم يكن مقتنعاً بالحاجة إلىٰ مبادرة أَمريكيَّة كبيرة في الشرق الأَوسط[11]. وقد احتاج الأمر إلىٰ

(11) من قبيل المفارقة أن نيكسون كان يتلهف على الضغط من أجل السَّلام في الشرق =

حرب تشرين لكي تتغيّر السياسة الأَمريكيَّة، ولكي ينشغل نيكسون وكيسينجر انشغالاً كاملاً في البحث عن تسوية عربية ـ إسرائيلية.

الحرب وإعادة التقييم، تشرين الأول (أكتوبر) 1973

احتوت الحرب العربية ـ الإسرائيلية في تشرين الأول/ أكتوبر 1973، على جميع عناصر أَزمة دولية حادة. وفاجأت معظم دول العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة وإسرائيل، وهي لم تكن متوافقة مع تصورات أحد حول كيفية نشوب حرب في الشرق الأَوسط، وهدَّدت القِيَم الجوهرية مباشرة للدول المعنية بالنِّزاع فضلاً عن القوى الخارجيَّة، وانتهت إِلىٰ ما يشبه المواجهة بين القوتين العظميين النوويتين، الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي.

تكشف الأَزمات بطبيعتها عن الافتراضات السائدة، عن الواقع بصورة حادة. ذلك أن صانعي القرار حين يُجابهون بالمباغتة والخطر وعدم اليقين، يتصرَّفون انطلاقاً من مفاهيم مسبقة عن الواقع. وعندما لا يتطابق الواقع مع تلك التصورات، ويتعرَّض صانعو القرار إِلىٰ ضغط شديد من حيث الوقت والأحداث، فإنَّهم غالباً ما يعمدون إِلىٰ إعادة بناء تصوراتهم بسرعة استثنائية. إذ أن الإخفاق أَو الخطر الوشيك، كالتعرّض إِلىٰ حبل المشنقة، يؤدي إِلىٰ صفاء الذهن؛ فتجري بسرعة عملية إعادة بناء عناصر الأحجية، ويتم تجريب سياسات جديدة. وإذا أمكن حل الأَزمة بنجاح فإن الصورة المنقحة، أَو المُعاد تركيبها يرجح أن تدوم بعض الوقت، وتستخلص منها الدروس، ومن ثم يظهر إطار سياسة جديدة لتوجيه العمل إِلىٰ أن يقع فشل أَو أَزمة أخرى. وهكذا تبدو حرب تشرين ذات أهمية مزدوجة كموضوع للدراسة، لأَنَّها كشفت عن الافتراضات الكامنة وراء السياسة الأَمريكيَّة تجاه النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي من 1970، حتى

= الأَوسط، وحذَّر في إحدى المناسبات في أوائل عام 1973 «بأن هذا الأمر قد بات على أهبة الانفجار». انظر: Kissinger, Years of Upheaval, P. 211.

1973، وأدَّت إلىٰ مراجعة واسعة لتلك الافتراضات في غضون فترة بالغة القصر.

لماذا المفاجأة؟

بعد الساعة السادسة صباحاً بقليل بتوقيت واشنطن من يوم 6 تشرين الأول/ أكتوبر، تلقَّت غرفة العمليات في البيت الأَبيض، برقية عاجلة من السفارة الأَمريكيَّة في تل أبيب. فقد تأكّد لإسرائيل بالدليل القاطع، أن المصريين والسوريين قد خطَّطوا للهجوم في السادسة مساء بتوقيت الشرق الأَوسط (منتصف الظهيرة بتوقيت واشنطن). وأكّدت رئيسة الوزراء غولدا مائير للولايات المتحدة، أن إسرائيل لا تنوي استباق الحدث، وطلبت أن تتجه الجهود الأَمريكيَّة إلىٰ الحيلولة دون نشوب الحرب.

في أقل من الساعتين الباقيتين على نشوب الحرب، تولى كيسينجر المسؤولية داعياً الإسرائيليين إلىٰ عدم القيام بعملية استباقية، وحضَّ السوفييت على استخدام نفوذهم لمنع الحرب، واتصل هاتفياً بالسفير المصري لدى الأُمم المتَّحدة، مبلغاً إياه رسالة إسرائيل بأنَّها لن تقوم بعملية استباقية. كما بعث برسالة إلىٰ كل من الملك حسين، والملك فيصل كي يقدما جهودهما لصالح الاعتدال. وذهبت جهود كيسينجر هباء، وجاءت الأخبار الأولى عن نشوب أعمال القتال بعد الساعة الثامنة صباحاً بقليل.

لماذا أُخذ المجمع الاستخباراتي الأَمريكي على حين غرَّة؟ لماذا فوجىء كيسينجر[12]؟ وأين كان جميع «خبراء» الشرق الأَوسط؟ لقد أدَّى انحرافان أساسيَّان في التفكير، إلىٰ الخطأ في تفسير المقاصد المصرية والسورية.

---

(12) يـذكـر: Conor Cruise O'Brien, The Siege: The Saga of Israel and Zionism (Simon and Schuster, 1986), PP. 512-17. بإسهاب أن كيسينجر، شجَّع السادات على الدخول في حرب ربما بصورة ضمنية أَو غير مباشرة. ودليله على ذلك ضعيف، ولكنه يعتمد بشدة على كـتـاب Mohamed Heikal, Autum of Fury: The Assassination of Sadat (Random =

أولهما الافتراض الشائع بأن «التوازن العسكري»، هو ما يحدِّد ما إذا كانت ستنشب حرب أخرى في الشرق الأَوسط. وكان هذا الافتراض عنصراً أساسياً في السياسة الأَمريكيَّة منذ 1967. فمهما كان الشعور لدى العرب باسترجاع أَراضيهم قوياً، فإنَّهم لن يجازفوا بدخول حرب يواجهون فيها هزيمة مؤكدة. ففي ظل التفوق النوعي لإِسرائيل في الميدان العسكري، والتدفق الكبير للأَسلحة الأَمريكيَّة بعد 1970، فإن إقدام العرب على شن حرب يُعتبر عملاً أخرق. كما أنَّه لم يكن من المتوقع أن تشعر إِسرائيل بالحاجة إِلىٰ القيام بحرب استباقية.

لم يكن نشوب حرب متعمدة ومخططة بصورة عقلانية، أمراً محتملاً في ضوء الحقائق العسكرية. وكان الأكثر احتمالاً نشوب حرب غير متعمدة تنجم عن أحد الطرفين في مواجهة دفاعية لتحركات الطرف الآخر، ولكن ذلك لم يكن أمراً يسهل توقعه أَو التنبؤ به[13]. وأخيراً ربما تنشب الحرب بوصفها عملاً أخرق، ولكن مرة أخرى يصعب التنبؤ بذلك على وجه الدقَّة.

= House, 1983), PP. 49-50 وقد صدرت منه طبعة عربية عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة 1988. ويقول هيكل بأن معلومات وصلت إِلىٰ مصر عن طريق قنوات المخابرات السعودية بأن كيسينجر يفضل «تسخين» الموقف قبل أن يكون مستعداً للتصدي له. والمفترض أن ذلك تأكد في الاجتماعات التي عُقدت بين حافظ إسماعيل وكيسينجر. وإني لا أعتقد أن كيسينجر أراد لمصر أن تشن الحرب. وإن كان كيسينجر قد تحدَّث أحياناً عن الظروف التي يمكن أن تمنعه بالتصدي للنزاع العربي الإِسرائيلي. وكان من هذه الظروف تردي الوضع إِلىٰ الحد الذي يهدِّد المصالح الأَمريكيَّة، أَو ظهور فرصة تجعل من بذل جهد دبلوماسي أمراً مثمراً. كما أن نيكسون كتب بالطبع كتاباً كاملاً، Six Crises (Doubleday, 1962). وبه موضوع فرعي يقول إن الأَزمات قد توفِّر الفرص لحل المشكلات. وبالرغم من أنه قد يكون حقاً أن السادات قدر تقديراً سليماً أن اللجوء إِلىٰ الحرب سيفك عقدة الجمود على الساحة الدبلوماسيَّة، فإنني لا أعتقد أن أياً من نيكسون أَو كيسينجر شجع السادات عن عمد على شنّ الحرب.

(13) يتردّد أن بعض المحلّلين في وكالة المخابرات المركزية قلّلوا من شأن الأدلة التي توضح الاستعدادات المصرية والسورية للقتال، خوفاً من أن يجري نقل مثل هذه النتائج للإِسرائيليين، وأن تستخدم كذريعة لهجوم وقائي.

وثانيهما أن الحرب لا يمكن أن تكون قراراً سليماً بالنسبة للعرب، إلاَّ في حالة استبعاد البديل السياسي لاسترداد أراضيهم. وبالرغم من أن الجانب الأعظم من البيروقراطية الأمريكيَّة لم يكن يعرف بما يقوم به كيسينجر من ترتيبات، إلاَّ أن كبار المسؤولين كانوا يعرفون ذلك، من خلال ما قام به من مباحثات مع الإسرائيليين والمصريين في الأُمم المتَّحدة، لعقد محادثات أولية تجري في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد إجراء الانتخابات الإسرائيلية. وقد جعل كل من التفوق العسكري الإسرائيلي، وخيار البديل السياسي من مبادرة عربية بالحرب أمراً غير متوقع. أما المناورات والتهديدات والتحذيرات فقد كان من الممكن تفسيرها على أنَّها جزء من حملة سوفييتية ـ عربية لإكراه الولايات المتحدة على الضغط على إسرائيل لتقديم تنازلات.

على الرغم من جميع المعلومات الدقيقة فنياً، والتي توفرت لواشنطن حول الاستعدادات العربية، فقد نجحت كل من مصر وسورية في إبداء مستويات عالية من السِّرِّيَّة والتمويه. وكان عملاء المخابرات الإسرائيلية الذين يحتلون مواقع جيدة في مصر، قد أُلقي القبض عليهم في بداية 1973[14]. ولم يأتمن الرئيسان أنور السَّادات وحافظ الأسد أحداً تقريباً على سر الموعد الدقيق للهجوم. وكانت الاتصالات الأمنية التي سبقت الهجوم جيدة على نحو غير عادي، كما أن تاكتيكات الخداع التي استخدمت كانت ناجحة. ومع ذلك فقد تلقت إسرائيل تحذيراً قبل وقوع الحدث بحوالي عشر ساعات[15]. لم يكن هناك وقت كاف لاتخاذ أية خطوات لمنع الحرب، كما لم يكن هناك إلاَّ القليل مما يمكن عمله للحد من الأضرار التي يحدثها الهجوم العربي الأولي.

---

(14) لقاء مع مسؤول كبير في المخابرات الإسرائيلية، كانون الأول/ ديسمبر 1975.

(15) تلقت إسرائيل تأكيداً بأن العرب يعتزمون الهجوم في حوالي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت إسرائيل ـ يوم 6 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان من المنتظر أن يبدأ القتال في حوالي السادسة مساء. انظر: Chaim Herzog, The War of Atonement, October 1974 (Little, Brown, 1975), PP. 52-54.

ردود الفعل الأولية

بعد عدة ساعات من نشوب الحرب، لم تكن واشنطن تعرف ما إذا كان الإسرائيليون، أم العرب هم الذين أطلقوا النار أولاً. وفي الجلسة السريعة التي عقدتها «مجموعة العمل الخاصة في واشنطن» (WSAG) في الساعة التاسعة صباحاً، كان الرأي السائد أن إسرائيل على الأرجح هي التي ضربت أولاً[16]. ورأى وليام كولبي، مدير إدارة المخابرات المركزية (CIA) أنّه لم يكن لدى أحد من الجانبين، النيّة المسبقة بالقيام بعمل عسكري، وإنما جاءت الحرب نتيجة لمخاوف، وتصرّفات متبادلة تصاعدت إلىٰ حدّ القتال[17]. وساد شعور بأن على الولايات المتحدة ألا توجه اتهامات إلىٰ أي طرف؛ فقد كان هناك الكثير من

---

(16) رأس هذا الاجتماع الجنرال برنت سكوكروفت، نائب كيسينجر، وحضره وزير الدفاع جيمس شليزنجر، ورئيس الأركان المشتركة الأميرال توماس مورر، ونائب وزير الخارجيّة كينيث راش، ومدير وكالة المخابرات المركزية وليام كولبي، ونائب مساعد وزير الخارجيّة لشؤون الشرق الأدنى ألفريد آثرتون، ونائب مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي جيمس نورييس، وعدد من العاملين. وقد اشتركت في غالبية اجتماعات فريق العمل الخاص في واشنطن بصفتي عضواً في هيئة موظفي مجلس الأمن القومي في هذه الفترة. وتعتمد التقارير الواردة هنا بشأن هذه الاجتماعات على الذاكرة، وعلى لقاءات مع المشتركين فيها، وعلى مذكرات موجزة حول الموضوعات الرئيسية الهامة التي نوقشت في كل اجتماع. كما تتناول مذكرات كيسينجر Years of Upheaval هذه الاجتماعات بقدر من التفصيلات. أما النص الكامل فلا يزال بالطبع محظور التداول، والمصادر التي أمكنني استخدامها ليست حاسمة بأي حال. وقد حاولت التركيز على تسجيل الموضوعات التي تردّدت في المناقشات، وعلى المفاهيم الرئيسية التي اعتمد عليها المشتركون في الوصول إلىٰ أحكامهم، وعلى المزاج السائد في كل يوم من أيام الأزمة. ولم تكن القرارات تتّخذ عادة في اجتماعات فريق العمل الخاص في واشنطن. وتكمن قيمتها الحقيقيّة في وضع كبار صانعي القرار على نفس الخط. وكان التباين أو الخلاف بسيطاً جداً في كل هذه الاجتماعات.

(17) انظر نفس الرواية في تقرير لجنة المقاربة، 6 تشرين الأول/ أكتوبر، الساعة التاسعة صباحاً، طبع في Village Voice, February 16, 1976, P. 78, note 305 «نحن لا نجد دليلاً قوياً على احتمال وقوع هجوم مصري سوري كبير ومنسّق عبر القناة، وفي منطقة مرتفعات الجولان. وإنما تشير الأدلة المتاحة إلىٰ وضع يقوم على الفعل وردّ الفعل، تؤدي فيه سلسلة الاستجابات من قِبل كل جانب للتهديدات المتصورة سلفاً إلىٰ خل إمكانية متزايدة الخطورة للمواجهة».

المصالح المعرَّضة للخطر: الانفراج الأَمريكي ـ السوفييتي، والعلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية، ومصداقية الولايات المتحدة لدى العرب، وسلطة الرئيس التي تزداد ضعفاً. ولهذا فقد اتصف رد الفعل الأَمريكي الأولي بالحذر.

وسرعان ما اتضح أن المصريين والسوريين هم من بدأوا فعلاً الأعمال القتالية، ولكن على مدى الأسابيع الثلاثة التالية لم يتوقَّف أي مسؤول أَمريكي عند هذه المسألة. فالبحث في السجلات حول إشارات تدل على «عدوان» عربي، أمر لا طائل تحته[18]. وخلافاً للرئيس جونسون الذي اعتبر عبد الناصر هو المسؤول عن حرب 1967، على الرغم من أن إسرائيل هي التي فتحت النار في 5 حزيران/ يونيو، فقد تجاهل كل من كيسينجر ونيكسون، مسألة من هو الجانب المخطىء. وكان من بين الأسباب التي دعت إلىٰ هذا المنظور «غير المتحيِّز»، هو الشعور بازدياد أهمية العلاقات الأَمريكيَّة العربية بسبب النفط، وأن الوقت لم يكن وقت مجابهة؛ كما أن الهجوم العربي على قوَّات إسرائيلية داخل أَراضٍ عربية محتلة، لا يشبه هجوماً على حدود مُعترف بها، وأن الأمر الواقع الذي كان سائداً قبل الحرب، أعطى العرب حافزاً كافياً لكسر جمود «حالة اللاحرب واللاسلم» عن طريق خلق أزمة دولية. وعلى مدى بضعة أيام اعتبر العمل العربي ضرباً من الحماقة، ولكنه لم يكن عملاً غير أخلاقي.

عند نهاية اليوم الأول من القتال، عقدت «مجموعة واشنطن للعمل» اجتماعاً ثانياً ترأسه كيسينجر هذه المرة. وقد أُنيط به إدارة السياسة خلال الأسابيع القادمة، بالتشاور عادة مع نيكسون مباشرة أَو عن طريق رئيس الأركان ألكسندر هيغ، مع مداخلات بين حين وآخر من جانب وزير الدفاع جيمس

(18) أثار كيسينجر هذه النقطة في مناقشاته مع محمَّد حسنين هيكل، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1973، على نحو ما ترجمته جريدة «الأنوار» في عددها الصادر في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1973: «Interviews Kissinger Meets Haikal,» Journal of Palestine Studies, Vol. 3 (Winter 1974), P. 213.

شيليسنغر. ولهذا فقد اكتسبت آراء كيسينجر الأولية أهمية خاصة.

دخل كيسينجر غرفة اتخاذ القرارات في الساعة 7,22 بعد الظهر، وأبلغ الحاضرين أنه اتصل لتوه هاتفياً بكل من نيكسون، والسفير السوفييتي أناتولي دوبرينين، ووزير الخارجيَّة الإسرائيلي أبا إيبان[19]. وقال إن الرئيس يريد تحريك الأسطول السادس شرقاً، ليرابط بالقرب من جزيرة كريت كاستعراض للقوة. كما صدرت الأوامر لإحدى حاملات الطائرات بمغادرة ميناء أثينا، وأن ثمة تحركات أخرى سيتم بحثها فيما بعد.

كان كيسينجر قلقاً بشأن الاتّحاد السوفييتي. إذ سيكون من الصعب على السوفييت، إذا ما تعرّض العرب لهزيمة حقيقية أن يبقوا خارج القتال، لذلك ينبغي ضبط التحركات العسكرية الأَمريكيَّة، لكي لا تعطي انطباعات خاطئة لدى الاتّحاد السوفييتي.

تناولت المناقشات الاتصالات الدبلوماسيَّة التي تمّت حتى ذلك التاريخ. وفي الأُمم المتَّحدة ستحاول الولايات المتحدة العمل مع الاتّحاد السوفييتي، على إعادة وقف إطلاق النَّار، على أساس الوضع القائم سابقاً. وقال كيسينجر، الذي كان يتوقع أن يتكرَّر ما حدث في حزيران/ يونيو 1967، أنِ العرب في غمرة «حالة الخبول» سيرفضون هذا الموقف الآن، ولكنَّهم سيتوسلون للحصول عليه حالما يبدأ الهجوم الإسرائيلي المضاد.

ومما لا شك فيه أن إسرائيل سترفض أي وقف لإطلاق النَّار، لا يقوم على عودة الوضع القائم سابقاً. ولم يكن نيكسون يرغب في موقف تتعرَّض فيه

---

(19) لا يظهر في سجلات المحادثات التليفونية الخاصة بالرئيس أي محادثة مع كيسينجر في 6 تشرين الأول/ أكتوبر، كما أن كيسينجر لا يشير إلىٰ ذلك في مذكراته. ولكن كيسينجر كان ماهراً في التذرّع بسلطة الرئيس أمام أعضاء الإدارة الآخرين. والمفترض أنَّه كان على اتصال مع هيج، ولكن هيج نفسه لم يتحدَّث مع نيكسون بعد ظهر ذلك اليوم. انظر: President Richard Nixon's daily diary, October 6, 1973.

إسرائيل، ضحية الهجوم عليها، للإدانة بسبب رفضها لوقف إطلاق النَّار. وكان هدف الولايات المتحدة أن تتبنَّى موقفاً يظل متماسكاً طوال الأَزمة، إذ من المتوقع أن تحوَّل الحرب بسرعة لصالح إسرائيل. وما سيبدو موقفاً موالياً لإسرائيل بالنسبة لوقف إطلاق النَّار عند خطوط ما بعد 1967، سرعان ما سيبدو موقفاً موالياً للعرب. وإذا ما تجاوزت إسرائيل الخطوط السابقة فإن الولايات المتحدة ستعارض ذلك، وبهذا تستعيد بعض مصداقيتها لدى العرب. وبالتالي فإن الولايات المتحدة ستقترح وقفاً لإطلاق النَّار، على أساس الوضع القائم سابقاً، ولكنَّها لن تدافع عنه بقوة إلىٰ أن تجعل الوقائع العسكرية على الأَرض، كلا الجانبين راغباً في قبوله.

كان الجميع يشعرون أن الأَزمة ستكون حاسمة بالنسبة للعلاقات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية. وإذا ما نجح التعاون بين البلدين فإن الانفراج سيكتسب معنى حقيقياً، وإذا ما أخفق فسيسخر السوفييت وضع «الدولة الأولى بالرعاية»[20]. وبالرغم من احتمال أن يكون السوفييت قد تواطؤا مع العرب في التخطيط للحرب، كان بعضهم ما يزال يأمل في التعاون مع موسكو على إنهائها. وكانت العلاقة الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية أيضاً ماثلة في الأذهان. فمن خلال المساندة الوثيقة للإسرائيليين أثناء الحرب، تستطيع الولايات المتحدة تعزيز مصداقية أية ضمانة، تقدمها في المستقبل كجزء من التسوية السلمية. فالمواقف الأَمريكيَّة والإسرائيلية لا بد أن تختلف في النهاية، والطريقة الوحيدة لحمل الإسرائيليين على الانسحاب من الأَراضي العربية، هي في تقديم نوع من

(20) كان منح السوفييت وضع الدولة الأولى بالرعاية تجارياً مسألة أساسية في خريف 1973. وقد تقدّم عضو مجلس الشيوخ، هنري جاكسون، بتعديل يدعو إلىٰ وقف معاملة الاتّحاد السوفييتي على أساس الدولة الأولى بالرعاية إلىٰ أن يسمح بحرية الهجرة لليهود السوفييت. وعارض نيكسون وكيسينجر هذا التعديل بدعوى أن الدبلوماسيَّة الهادئة ستكون أكثر فعالية، وأن السوفييت سيرفضون التدخّل في شؤونهم الداخلية. ورفض السوفييت بالفعل ربط وضع الدولة الأولى بالرعاية بحرية الهجرة.

الضمانة الرسمية الأَمريكيَّة. وكان الرئيس يؤمن بهذا الموضوع. فهو يريد أن يرى الإِسرائيليون في الولايات المتحدة شريكاً يعتمد عليه أثناء الأَزمة، وذلك من أجل دبلوماسيَّة ما بعد الحرب.

في يوم الأحد 7 تشرين الأول/ أكتوبر، ظل كيسينجر على اتصال وثيق مع كل من السوفييت والمصريين والإِسرائيليين. وبعث نيكسون برسالة إِلىٰ بريجنيف يحثّه فيها على ضبط متبادل للنفس، وعلى دعوة مجلس الأَمن إِلىٰ الانعقاد. وجاء رد بريجنيف توفيقياً ومشجعاً[21]. وكانت هذه البادرة، بالإِضافة إِلىٰ ابتعاد السفن السوفييتية عن أماكن القتال، بمثابة علامة واعدة.

بدأ المصريون، استكمالاً لمحادثات كيسينجر مع وزير خارجيتهم الزيات، في توجيه رسائل عبر القناة الخلفية التي أُحدثت عام 1972. ورفض السَّادات فكرة وقف إطلاق النَّار، دون انسحاب إِسرائيلي إِلىٰ خطوط ما قبل عام 1967، ولكنه أوضح من خلال مستشاره حافظ إسماعيل، أنَّه لا يريد مجابهة مع الولايات المتحدة[22].

كان الإِسرائيليون في حالة نفسية سيئة، إِلاَّ أنَّهم في اتصالاتهم مع الولايات المتحدة، كانوا ما يزالون يُظهرون ثقة بالنجاح. وكان كيسينجر، وقد توقّع طلبات إِسرائيلية للسِّلاح، قد أعدّ ترتيبات تقوم طائرات شركة «العال» بمقتضاها بنقل بعض المعدات ـ الذخيرة، ومنتجات التكنولوجيا المتقدمة، وصواريخ «سايدونيدر» من قاعدة بحرية في فرجينيا. واجتمع السفير الإِسرائيلي

---

(21) Golan. Secret Conversations of Kissinger, P. 64; and Marvin Kalb and Bernard Kalb, Kissinger (Little, Brown, 1974), PP. 462-63.

(22) قال كيسينجر للمسؤولين المصريين فيما بعد إنه تأثّر جداً عندما بدأ في توجيه الرسائل عبر القناة الخلفية بعد بدء الحرب بقليل. لقاء مع دبلوماسي مصري كبير، نيسان/ أبريل 1976. وعلّق نيكسون وكيسينجر أهمية كبرى على إمكان تحسين العلاقات الأَمريكيَّة العربية بعد انتهاء الحرب. انظر: Kissinger, Years of Upheaval. PP. 481-82 ويقول كيسينجر إنه حتى تسلم هذه الرسالة الواردة من القناة الخلفية «فإنني لم أنظر إِلىٰ السادات بجدية».

سيمحا دينيتز، الذي وصل لتوه من إسرائيل، مع كيسينجرمساء وقدَّم إليه، كما كان متوقعاً، لائحة بالأَسلحة التي تحتاجها إسرائيل. بيد أن الشعور بالإلحاح لم يكن شديداً، أَو هذا ما خُيّل لكل من كيسينجر وشليزنجر[23]. وسرعان ما بدأت عملية إمداد متواضعة، وكان كيسينجر ما يزال يأمل في الإبقاء على أي تورط ظاهر، في المجهود الحربي الإسرائيلي في أدنى حدّ.

وعندما اجتمعت «مجموعة العمل الخاص» في واشنطن، بعد الساعة السادسة بقليل من يوم 7 تشرين الأول/ أكتوبر[24]، كان أفضل تقديرات وكالة المخابرات المركزية، أن إسرائيل ستستعيد المبادرة في اليوم التالي، وستسير قُدُماً نحو كسب الحرب في نهاية الأسبوع. وسيكون التركيز على الجبهة السورية أولاً، ثم على الجبهة المصرية. وأبدى كيسينجر حيرته إزاء رفض العرب لوقف إطلاق النَّار، الذي يمكن أن يحمي المكاسب التي أحرزوها في البداية، إذا كان وضعهم حقاً محفوفاً بالمخاطر[25]. ورد شليزنجر بأن العرب غير منطقيين، فأجاب كيسينجر بأن الاستراتيجية المصرية تستهدف، في تقديره، عبور القناة والاكتفاء بالتشبث بالمواقع، وأن العرب ما شنّوا الهجوم إلاَّ لقلب الوضع القائم، لأنهم يعرفون أنه لن يكون هناك تحرّك دبلوماسي ما لم تكن هناك أَزمة.

---

(23) Golan, Secret Conversations of Kissinger, P. 45.

(24) تنوعت عضوية فريق العمل الخاص في واشنطن، لكن الأعضاء التالين كانوا يشاركون عادة كيسينجر، شليزنجر، مورر، كولبي، سكوكروفت، راش، سيسكو، كليمنتس وعدد من الموظفين المساعدين. وعند مناقشة المسائل المتعلقة بالنفط، ربما كان يتم إشراك نائب الوزير وليام سايمون ومحافظ كولورادو السابق جون لوف وتشارلز دي بونا.

(25) يبدو أن كيسينجر كان يدرك أن السوفييت، بعد ست ساعات من بدء الحرب، اقترحوا على السادات أن يقبل مجرد وقف إطلاق النار في تاريخ مبكر. وكرَّر السوفييت طلبهم في 7 تشرين. انظر: William B. Quandt, «Soviet Policy in the October Middle East War,» International Affairs, vol. 53 (July 1977). PP. 37-89, and vol. 53 (October 1977), PP. 587-603. وكذلك رواية السادات نفسه في مجلة «الحوادث»، 19 آذار/ مارس 1975، وجريدة «الجمهورية»، 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1975. وانظر أيضاً: Mohamed Heikal, The Road to Ramadan (Quadrangle Books, 1975), PP. 209, 212-15.

وفي 8 تشرين الأول/ أكتوبر بدأت إسرائيل تواجه صعوبات عسكرية، على كلتا الجبهتين. ففي الجولان كان نظام الدفاع الجوي السوري، يسقط عدداً كبيراً من طائرات الفانتوم وسكاي هوك الإسرائيلية. وفي سيناء أُحبط المجهود الحربي الإسرائيلي، الرامي إلىٰ اختراق الخطوط المصرية بالمدرعات. وتصاعدت طلبات إعادة التزويد بالمعدات الأمريكيَّة. وقد تحدَّث سمحا دينيتيز عدة مرات مع كيسينجر في هذا الشأن، وكان يقال له إن الخسائر الإسرائيلية ستعوّض. وعندما اشتكى دينيتز من بطء الاستجابة الإسرائيلية، حمل كيسينجر الملامة على عاتق وزير الدفاع، وهي حجة لجأ إليها كيسينجر عدَّة مرَّات مع السفير الإسرائيلي طوال الأيام القليلة التالية[26]. والحق أن الموقف الأمريكي كان قائماً على أساس توقع نهاية قريبة للحرب، والرغبة في الإبقاء على دور أمريكي محدود. ولهذا فقد كان موضوع الإمداد بالأسلحة يجري في كتمان.

التقت «مجموعة العمل الخاص» في واشنطن ثانية، في الساعة 5,30 من بعد ظهر يوم الاثنين 8 تشرين أول/ أكتوبر لاستعراض أحداث ذلك اليوم[27]. وأورد تقرير وكالة المخابرات المركزية، أن إسرائيل تحقِّق تقدّماً سريعاً، وأنَّها استعادت مرتفعات الجولان عملياً. وعبّر كيسينجر مرة أخرى عن حيرته لرفض العرب لوقف إطلاق النَّار، في حين كان السوفييت، على النقيض من ذلك، ميَّالين للتفاهم. وكان يُعتقد أنَّه يمكن بمساعدتهم، التوصل إلىٰ اتفاق لوقف النار مساء يوم الأربعاء، كما كان يفترض أن يعطي السوفييت جوابهم يوم

---

(26) Kalb and Kalb, Kissinger, P. 466. وانظر أيضاً: Edward N. Luttwak and Walter Laqueur, «Kissinger and te Yom Kippur War,» Commentary, vol. 58 (September 1974). P. 36. وقال كيسينجر في Kissinger, Years of Upheaval, P. 485 عندما تلقيت أنباء سيئة من دينيتز، فإنني لم أستبعد إسنادها إلىٰ الجمود البيروقراطي أو القرارات المؤسفة من جانب الرؤساء».

(27) وصل كيسينجر في الساعة الخامسة وخمس وخمسين دقيقة مساء، وكان قد تلقى بياناً وافياً عن سير القتال في ذلك اليوم.

الثلاثاء. وساد اعتقاد بأنّه حتى ولو عبرت إسرائيل القناة، فإن الولايات المتحدة ستكون في وضع جيد بتمسّكها بالدعوة إلىٰ وقف النار على أساس الوضع القائم سابقاً. ومن شأن الحقائق العسكرية على الأَرض، أن تجعل الاقتراح الأَمريكي مقبولاً لدى مصر وسورية والاتّحاد السوفييتي.

كانت السياسة الأَمريكيَّة الراسخة لا تزال قائمة، على افتراضات مبدئية بأن الحرب ستكون قصيرة وستنتهي بانتصار إسرائيلي، بيد أن ذلك لم يدم طويلاً. إذ أن تلك القناعة كانت على وشك أن «تطيح بها الأحداث» بحسب لغة واشنطن.

الأَزمة تتعمّق

دخلت الحرب مرحلة جديدة وخطيرة، من وجهة نظر واشنطن، يوم التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر. فقد كان الواقع يخالف التنبؤات المتفائلة نسبياً، والتي استندت إليها السياسة الأَمريكيَّة في البداية. ففي غضون الفترة ما بين 9 إلىٰ 12 تشرين أول/ أكتوبر تلاشت احتمالات النصر الإسرائيلي والحاسم على الجبهتين، وبدأ ضبط النفس السوفييتي يضعف، وبدأ الضغط يتزايد من أجل إعادة تزويد القوات الإسرائيلية بالإمدادات العسكرية السريعة. وتمثَّلت الاستجابة الأَمريكيَّة بإجراء تعديلين تدريجيين في سياستها: استبدلت الدعوة إلىٰ وقف إطلاق النَّار على أساس الوضع القائم سابقاً، باستطلاع لفكرة وقف إطلاق النَّار، في المكان الذي تم الوصول إليه، وجرى في الوقت نفسه تدفق للأَسلحة الأَمريكيَّة على إسرائيل بكميات محدودة، ليس عن طريق شركة «العال» الإسرائيلية فقط، بل وبمشاركة أَمريكيَّة مباشرة ومتزايدة.

في واحد من أكثر قرارات الحرب إثارة للجدل، تراجع نيكسون عن الالتزام الكامل بوضع الموارد الأَمريكيَّة تحت تصرّف إعادة الإمداد إلىٰ أن يتضح مصير مبادرة وقف إطلاق النار، في المكان الذي تم الوصول إليه، وإلىٰ أن يؤدي حجم إعادة الإمدادات السوفييتية، إلىٰ جعل المزيد من التأخير أمراً

صعباً من الناحية السياسية. وتحت ضغط الواقع على الأَرض، والنقص في الإمدادات، وبدون ضمان أَمريكي بنقل الأَسلحة جواً على نطاق واسع، وافقت الحكومة الإِسرائيلية مكرهة على وقف إطلاق النَّار، في المكان الذي تم الوصول إليه يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر. ولكن في صباح الثالث عشر منه رفض السَّادات اقتراح وقف إطلاق النَّار، مما أدَّى إِلىٰ تبدّل درامي في السياسة الأَمريكيَّة.

بدأت المرحلة الثانية للأَزمة صباح يوم الثلاثاء 9 تشرين الأول/ أكتوبر، بنداء إِسرائيلي عاجل طلباً للسلاح[28]. وبعد ذلك بوقت قصير عقد كيسينجر، اجتماعين طارئين «لمجموعة العمل الخاصَّة»؛ بحضور الأعضاء الأساسيين، وقدَّمت التوصيات التي تمخض عنها هذان الاجتماعان إِلىٰ نيكسون، عن طريق كيسينجر، في الساعة 4,45 بعد الظهر. وكانت التوصية الأولى تقضي بإيصال بعض الأَسلحة إِلىٰ إِسرائيل على جناح السرعة، بدون خرق مبدأ عدم إظهار دور كبير للولايات المتحدة في النِّزاع. وقضت التوصية الثانية باستطلاع صيغة جديدة على مدى الأيام التالية لوقف إطلاق النَّار. ووافق نيكسون، في ظل انشغاله باستقالة نائبه الوشيكة، على تلبية معظم المطالب الإِسرائيلية[29].

فيما كانت هذه المداولات جارية، بدأت تصل أخبار إِلىٰ واشنطن تفيد بأن إِسرائيل شنَّت هجوماً مضاداً، واسع النطاق على الجبهة السورية.

---

(28) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 491-93; and Kalb and Kalb, Kissinger, PP. 466-67.

(29) انظر: Kissinger, Years of Upheaval, PP. 495-96 بما في ذلك موضوع رسالته إِلىٰ دينيتز لإبلاغه قرار الرئيس بشأن إعادة التزويد بالأسلحة. وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك حديث عن الجسر الجوي الأمريكي إِلاَّ إذا نشأت حاجة ملحّة للدبابات. وقام كيسينجر بإبلاغ دينيتيز بالموافقة على كل ما ورد في قائمة إسرائيل فيما عدا قنابل الليزر، وبأنه سيجري تعويض كل الخسائر في الطائرات والدبابات. وطبقاً لما ورد في Dowty, Middle East Crisis, P. 238 فقد ذكر كيسينجر لدينيتز أن الولايات المتّحدة تعتزم عدم البروز في الصورة، وأنه يمكن لإِسرائيل استخدام الطائرات المؤجرة في عملية نقل الإمدادات.

واستعادت إسرائيل، ميدانياً، بالفعل معظم الأَراضي التي كانت قد فقدتها خلال الأيام الثلاثة الأولى لنشوب القتال، بل إنها اندفعت في بعض المناطق، إلىٰ ما وراء خط وقف إطلاق النَّار السَّابق. ومع هذا فقد كان القتال مريراً. ولم ينكر السوريون، وكانت التعزيزات العراقية في طريقها. وفي الجو، وبعد إحباط الجهود الإسرائيلية في استخدام سلاح الطيران لتعزيز هجومهم البرِّي، بدأ الإسرائيليون حملة لضرب العمق السوري بسلاح الطيران.

وفي 9 تشرين أول/ أكتوبر، شرع كيسينجر في جس نبض المصريين والسوفييت والإسرائيليين، حول إمكانية وقف النار في المكان. وكان السفير دينيتيز أول من نقل رفض حكومته، مؤكداً ضرورة ربط هذا الوقف بالعودة إلىٰ الوضع الذي كان قائماً سابقاً[30]. كذلك كان موقف المصريين سلبياً من هذا الاقتراح. إذ أن أي وقف لإطلاق النَّار، ينبغي أن يرتبط مباشرة بخطة ملموسة تدعو إلىٰ انسحاب إسرائيلي كامل، من جميع الأَراضي التي احتُلّت عام 1967. وأثار كيسينجر مسألة وقف إطلاق النَّار في المكان من خلال قناته الخلفية مع حافظ إسماعيل، مؤكداً على أن مصر قد «سجلت وجهة نظرها». وجاء رد إسماعيل، الذي قيل إن السادات هو الذي أعدّه، في اليوم التالي[31] وهو يتضمن:

ـ ينبغي وقف إطلاق النَّار، وأن يعقبه في غضون فترة محددة وتحت إشراف

---

(30) Insight Team of the London Sunday Times, Yom Kippur War (Doubleday 1974), P. 279. يقول كيسينجر في Kissinger, Years of Upheaval, P. 499 إنه تحدث إلىٰ «دينيتز حوالي ظهر 10 تشرين الأول/ أكتوبر، والذي أبلغه شكر مائير على قرار نيكسون بإعادة الإمداد. وحثّ كيسينجر إسرائيل على العودة إلىٰ خطوط ما قبل الحرب «بأسرع وقت ممكن، أو فيما وراءها، ولو في جبهة واحدة. وإننا لا نستطيع تعطيل مشروع وقف إطلاق النار إلىٰ الأبد».

(31) Mohamed Heikal, The Road to Ramadan (Quadrangle Books, 1975), PP. 223-24: and Kissinger, Years of Upheaval, PP. 499-500.

الأُمم المتَّحدة، انسحاب جميع القوَّات الإِسرائيلية إِلىٰ خطوط ما قبل 5 حزيران/ يونيو 1967.

- ضمان حرية الملاحة في مضيق تيران، بوجود الأُمم المتَّحدة في شرم الشيخ لفترة محددة.
- بعد إتمام الانسحاب الكامل للقوَّات الإِسرائيلية، تنتهي حالة الحرب مع إِسرائيل.
- بعد انسحاب القوَّات الإِسرائيلية من غزَّة، توضع المنطقة تحت إشراف الأُمم المتَّحدة إِلىٰ حين تقرير مصيرها.
- في غضون فترة محدّدة من إنهاء حالة الحرب، يعقد مؤتمر سلام تحت إشراف الأُمم المتَّحدة، يحضره جميع الأطراف المعنية، بما في ذلك الفلسطينيون، وجميع أعضاء مجلس الأمن، ويتناول كافة المسائل المتعلِّقة بالسيادة والأمن وحرية الملاحة.

ووعدت مصر كذلك بأنه ما إن يبدأ الجلاء الإِسرائيلي، باستئناف العلاقات الدبلوماسيَّة مع الولايات المتحدة، وبدء العمل في تطهير قناة السويس.

لم يكن هذا الاقتراح مجرد وقف لإطلاق النَّار في المكان، الذي كان يتصوره كل من نيكسون وكيسينجر. فهما لم يكونا مستعدين أبداً، لربط وقف إطلاق النَّار بشروط التسوية النهائية. ولا يعود ذلك إِلىٰ أن الإِسرائيليين سيرفضون ذلك فحسب، بل ولأنه يخالف تماماً استراتيجية نيكسون وكيسينجر في التفاوض.

ومن حسن حظ كيسينجر أن السوفييت، باتوا يؤيِّدون على ما يبدو فكرة وقف إطلاق النَّار في المكان، وقد أشاروا في رسالة بتاريخ 10 تشرين الأول/ أكتوبر، إِلىٰ أن مصر ستسير في الاتجاه نفسه. ويقول كيسينجر إن رد فعله الأولي كان سلبياً، لأنه شعر أن إِسرائيل تحتاج إِلىٰ مزيد من الوقت لتغيير

الأوضاع على أَرض المعركة. وفي محاولة لتجميد الوضع وافق على الاقتراح السوفييتي «مبدئياً»، ولكنه حثّ السوفييت على عدم القيام بأي عمل فوري في الأُمم المتَّحدة[32].

مبادرة وقف النار

ألغت ـ الأدلة الأولى على أن السوفييت قد بدأوا بنقل الأَسلحة جواً إلىٰ الشرق الأَوسط ـ هذه البادرة التوفيقية. ففي العاشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، قامت إحدى وعشرون طائرة من طراز «ان ـ 12»، بالتوجه إلىٰ دمشق، حاملة 200 طن من المعدات العسكرية[33]. وفي نهاية اليوم نفسه، علمت واشنطن أن سبع فرق سوفييتية محمولة جواً، قد وُضعت في حالة تأهّب قصوى. وكان من الواضح أن السوفييت قلقون من تدهور الوضع على الجبهة السورية. وظل السؤال ما إذا كان الحل لدرء الخطر عن مصالحهم، يستلزم التركيز على الدبلوماسيَّة، أم على القوة بلا جواب في تلك اللحظة. وكانت بعض عناصر العمل على كلا المسارين واضحة.

في ذلك الوقت كانت إعادة إمداد إسرائيل بالسِّلاح الأَمريكي تجري بمعدل معتدل. وفي 9 تشرين أول/ أكتوبر أُبلغ دينيتز أن عدداً من طائرات الفانتوم «ف ـ 4» سرعان ما ستتوجّه إلىٰ إسرائيل. وبالإضافة إلىٰ ذلك سُمح لطائرات «العال» الإسرائيلية بنقل شحنات غير مُجمّعة من محطة أوشيانا البحرية قرب نورفولك ـ فيرجينيا. ووصلت طلائع هذه الإمدادات إلىٰ إسرائيل يوم 10 تشرين أول/ أكتوبر، وهو اليوم نفسه الذي وصلت فيه طلائع الإمدادات السوفييتية المنقولة جواً إلىٰ دمشق.

---

(32) Kissinger, Years of Upheaval, P. 498.

(33) يلخص كوانت في «Quandt, «Soviet Policy in the October Middle East 1973 War (جزءان) البيانات المتوافرة عن قيام السوفييت بتسليم المعدات العسكرية جواً وبحراً أثناء الحرب.

بيد أن حدة القتال كانت قد وصلت إلىٰ حد لا تستطيع رحلات «العال» وحدها أن تلبي طلبات إسرائيل من السِّلاح. وانطلاقاً من مبدأ عدم التورّط الأَمريكي الرسمي المباشر في نقل العتاد إلىٰ إسرائيل، فقد أخذ كل من كيسينجر وشليسينغر يوم العاشر من تشرين أول/ أكتوبر في البحث عن إمكانية استئجار طائرات مدنية (تشارتر) لهذا الغرض. وتصور كلاهما أن يكون هذا الجسر الجوي بحدود 10 إلىٰ 20 طائرة يومياً.

عند هذه النقطة أخذ الموقفان الأَمريكي والإسرائيلي يفترقان. فالولايات المتحدة كانت تريد وقفاً مبكراً لإطلاق النَّار، في غضون اليومين التاليين. أما إسرائيل فكانت تريد أَسلحة بكميات كافية كي تحقِّق نصراً عسكرياً. وفي غضون الساعات الثماني والأربعين التالية كانت الولايات المتحدة تتحرك ببطء، في إرسال الأَسلحة إلىٰ إسرائيل. ويرجع ذلك، كما يقول كيسينجر، إما إلىٰ خلل بيروقراطي، أَو إلىٰ نوع من الضغط، كما رأى آخرون، لدفع الإسرائيليين إلىٰ قبول وقف إطلاق النَّار في المكان الذي تم الوصول إليه، وإلىٰ القناعة بأن القتال قد أوشك على الانتهاء.

وكان يوم 11 تشرين أول/ أكتوبر هو يوم إعادة الحشد والتدعيم. ولم يحدث أي أمر استثنائي على الصعيد الميداني، أَو في واشنطن. وبدأت إسرائيل في نقل قوَّاتها من الجبهة السورية إلىٰ الجبهة المصرية، من أجل ردّ القوَّات المصرية إلىٰ ما وراء القناة. وكانت الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة تهدف، إلىٰ منع الملك حسين من الاشتراك في الحرب، بضغط من الأسد والسادات وفيصل، والتأكيد للإسرائيليين أن رحلات الطائرات المؤجرة، ونقل طائرات ف ـ 4 إلىٰ إسرائيل، جار على قدم وساق. وكان رفض إسرائيل لوقف النار في المكان، قد بدأ يضعف بعض الشيء. فمن خلال تحقيق مكاسب جديدة في الجبهة السورية، باتت إسرائيل على استعداد للبحث في وقف لإطلاق النَّار، يتم بموجبه التخلي عن الأَراضي السورية التي تم احتلالها، في مقابل استعادة

المواقع التي خسرتها في سيناء[34]. وربما رأت سورية بعض الجدوى في خطة كهذه، ولكن السَّادات لم يكن يرى ذلك، نظراً لأن الولايات المتحدة كانت مستمرة في الضغط، لتحقيق وقف لإطلاق النَّار في المكان، وهذا ما بدا ممكناً يوم 12 تشرين أول/ أكتوبر.

بدأ ذلك اليوم بتساؤلات إسرائيلية عن رحلات الطائرة المؤجرة الموعودة والتي لم تكن قد بدأت بعد. وحاول كيسينجر في محاولة للحفاظ على مصداقيته أمام الإسرائيليين أن يسرِّع العملية. وبُعث برسالة في الساعة 11,9 صباحاً إلىٰ البرتغاليين، تطلب استخدام قاعدة لاجيس في جزر الآزور، من قِبل الطائرات المدنية المؤجرة لنقل مواد عسكرية إلىٰ إسرائيل، على أن يحط في هذه القاعدة ما يتراوح بين عشرة إلىٰ عشرين طائرة يومياً، تستأجرها وزارة الدفاع الأَمريكيَّة.

وفي صباح 12 تشرين أول/ أكتوبر، أُبلغ كيسينجر، كما يقول في روايته، أن إسرائيل باتت مستعدة للقبول بوقف إطلاق النَّار في المكان[35]. ويبدو أن غولدا مائير قد اتخذت ذلك القرار بالتشاور مع كبار قادتها العسكريين، ولكن بدون التصويت عليه رسمياً في مجلس الوزراء، وذلك بسبب مخاوفها من تكاليف استمرار القتال، ومن الضغط الناجم عن التأخير في جهود إعادة الإمداد[36].

بعد موافقة رئيسة الوزراء مائير على فكرة وقف إطلاق النَّار في المكان، وردت رسالة من دينيتز تفيد بأن إسرائيل لا تعارض في طرح فكرة وقف إطلاق

---

(34) Insight Team, Yom Kippur war, P. 279 تأكد ذلك من مصدر إسرائيلي رفيع المستوى.

(35) Kissinger, Years of Upheaval, P. 509 لقد قيل للإسرائيليين إن التصويت في الأُمم المتَّحدة لن يجر قبل ساعة متأخرة من بعد ظهر 13 تشرين الأول/ أكتوبر.

(36) Brecher, Decisions in Crisis, P. 214 اتخذ القرار يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر بعد الظهر بتوقيت إسرائيل. وفي وقت سابق من هذا اليوم قرّر مجلس الوزراء المصغر تأجيل القرار الخاص بمحاولة عبور القناة. المرجع السابق، ص 173.

النَّار فوراً على الأُمم المتَّحدة. وفي وقت لاحق من مساء اليوم نفسه ذهب دينيتز إلىٰ البيت الأَبيض، يحمل نداء شخصياً عاجلاً من مائير إلىٰ الرئيس نيكسون، ليأمر بإرسال إمدادات عسكرية فورية جديدة إلىٰ إسرائيل. وذهبت مائير بعيداً إلىٰ حد التلميح بهزيمة عسكرية إسرائيلية[37].

في غضون ذلك كانت مبادرة وقف إطلاق النَّار تواجه صعوبات. ففي مساء يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر حثّ كيسينجر البريطانيين على طرح الفكرة في الأُمم المتَّحدة يوم 13 تشرين الأول/ أكتوبر. وجاءه جواب البريطانيين يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر بأنهم لن يتقدموا بقرار في اليوم التالي، إلاَّ إذا تأكّدوا أنه سيكون مقبولاً من جميع الأطراف. وقالوا أنهم، بالاستناد إلىٰ معلوماتهم، فهم يشكّون في إمكان تحقيق ذلك. ولكن كيسينجر أكَّد عليهم بالمضي قُدُماً. ولكن في وقت متأخِّر من صباح 13 تشرين الأول/ أكتوبر، أبلغ البريطانيون كيسينجر أنَّهم توصّلوا إلىٰ نتيجة مفادها، أن وقف إطلاق النَّار في المكان ما هو إلاَّ سراب.

---

(37) يصف كيسينجر Kissinger, Years of Upheaval, PP. 512-53 بالتفصيل لقاءه مع دينيتز في الساعة الحادية عشرة والثلث مساء يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر. وقد فوجيء كيسينجر بأن إسرائيل لم تشن هجومها. وعزى دينيتز ذلك إلىٰ قلة الإمدادات. وفي الواحدة مساء، وبدون توجيه من نيكسون (لا تشير سجلات الرئيس إلىٰ وجود اتصالات سواء من كيسينجر أو هيج في هذه الفترة)، قرَّر كيسينجر اتخاذ بعض الخطوات الأولية للإسراع بتوريد السلاح. Kalb and Kalb, Kissinger, P. 474; Golan, Secret Conversations of Kissinger, PP. 53, 61, 66-67; and Insight Team, Yom Kippur War, PP. 279-80 وطبقاً لوزير الدفاع شليزنجر، «اتصل بي كيسينجر مساء الجمعة. . وأشار إلىٰ أن إسرائيل تعاني من نقص السلاح. وأقل ما يمكن قوله، إنه كان قلقاً Interview with James Schlesinger, Jewish Telegraphic Agency Daily Bulletin July 1, 1974, P. 4 وقال شليزنجر في مؤتمره الصحفي يوم 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1973 إنه في يوم 13 تشرين الأول/ أكتوبر «كان البعض يعتقد أن بقاء دولة إسرائيل تعرض للخطر بصورة شديدة». وهناك مؤلف واحد على الأقل، Nadav Safran, Israel: The Embattled Ally (Harvard University Press, 1978), P. 483 يفترض أن كيسينجر تحرك بدافع من الخوف من احتمال لجوء إسرائيل إلىٰ الأسلحة النووية.

الجسر الجوي

من الصعب تقييم دور الرئيس نيكسون بدقة في صياغة السياسة الأَمريكيَّة أثناء حرب تشرين. فقد كان مستغرقاً على نحو واضح في مصاعبه السياسية الداخلية الخاصة، وباستقالة نائبه المخزية، سبيرو أغينيو، في تشرين الأول/ أكتوبر، وهو الذي كان قد اختاره بنفسه. ولم يكن الرئيس يبدي اهتماماً يُذكر بتفاصيل السياسة، تاركاً مهمّة متابعة الديبلوماسية اليومية لكيسينجر. بيد أن نيكسون هو الذي كان يتخذ القرارات الأساسية، كما كانت سلطته هي التي تستخدم للتأثير على الحكومات الأخرى.

في ساعة مبكرة من صباح 13 تشرين الأول/ أكتوبر، أضحى شليسينغر مقتنعاً بأن الطريقة المجدية الوحيدة لإيصال الأَسلحة إلىٰ إسرائيل، هي استخدام الطائرات العسكرية الأَمريكيَّة. وكان كل من كيسينجر وهيغ ما يزالان يعارضان، مفضلين الإبقاء على سقف دور الولايات المتحدة منخفضاً[38]. وفي صباح يوم 13 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أن أُبلغ برغبة مائير الملحّة في المساعدة، وتوصية شليسينغر، وبدون أن تلوح أية إشارة إيجابية لاتفاق لوقف النار، أخذ نيكسون على عاتقه مسؤولية إصدار الأمر، بإنشاء جسر جوي على نطاق واسع، لنقل المعدات العسكرية إلىٰ إسرائيل[39].

---

(38) انظر Walter Isaacson, Kissinger: A Biography (Simluhîn n and Schuster, 1992) P. 521 نقلاً عن نص المحادثة التليفونية بين كيسينجر وهيج في ساعة مبكرة من يوم 13 تشرين الأول/ أكتوبر. قال هيج: «إنه (أي شليزنجر) على استعداد لإرسال طائرات قيادة المساعدات العسكرية إلىٰ هناك فوراً، وأعتقد أن ذلك سيكون حماقة». وأجاب كيسينجر: «بل إن ذلك سيكون كارثة، إذ كيف استطاع أن يعطِّل كل شيء لمدة أسبوع ـ إنه لا يستطيع الآن أن يعوضها في اليوم الذي يفترض أن تبدأ فيه الجهود الدبلوماسيَّة» وهذا الحوار المتبادل يميل إلىٰ تأكيد وجهة النظر القائلة بأن كيسينجر رأى بالفعل ارتباطاً بين الجسر الجوي واحتمال وقف إطلاق النار مبكراً.

(39) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 514, 515. الساعة الثانية عشرة والنصف من مساء 13 تشرين الأول/ أكتوبر استطاع كيسينجر إبلاغ دينيتيز بأن طائرات «سي ـ 5 أ» العملاقة =

وكانت الاعتبارات الرئيسية لهذه المرحلة من استراتيجية نيكسون ـ كيسينجر، هي إقناع السَّادات بأن حرب استنزاف طويلة تغذِّيها الأَسلحة السوفييتية لن يُكتب لها النجاح، وكذلك أن تُبيّن للكرملين أن الولايات المتحدة، قادرة على مجاراة الشحنات العسكرية السوفييتية إلىٰ الشرق الأَوسط. وفوق ذلك كله ينبغي أَلاّ يُسمح للسلاح السوفييتي أن يقرِّر حصيلة القتال، وذلك من أجل المكانة العالمية لأَمريكا في المنطقة. ولم يكن ذلك يعني أن الولايات المتحدة باتت تفضّل الآن نصراً عسكرياً إسرائيلياً كاملاً، بل يعني أن نجاحاً إسرائيلياً على أَرض المعركة، قد أضحى عاملاً مهماً في إقناع العرب والسوفييت بوضع حد للأعمال القتالية[40].

وكان نيكسون وكيسينجر يعيان احتمال ردّ فعل عربي معاد لنقل الأَسلحة عبر جسر جوي إلىٰ إسرائيل. فحتى تلك اللحظة من الأَزمة لم يكن ثمة مواجهة بين الولايات المتحدة والعالم العربي. ولم يكن «سلاح النفط» قد أُشهر بعد كما كان يخشى الكثيرون؛ كما لم تتعرّض حياة الأَمريكيين للخطر في أي بلد عربي، بما في ذلك ليبيا، التي كانت مصدراً لقلق مبكر، ولم يقطع أي بلد

= ستطير مباشرة إلىٰ إسرائيل لحين ترتيب مسألة تأجير الطائرات. كما أن 14 طائرة من طراز «اف ـ 4» ستكون في طريقها حالاً.

(40) من الصعوبة بمكان تحديد درجة التأثير الذي أحدثه الجسر الجوي الأَمريكي في الاستراتيجية الإسرائيلية. ولقد توصلت من خلال لقاءات مع مسؤولين إسرائيليين كبار إلىٰ أن تأثير الجسر الجوي على القرارات الاستراتيجية كان في أدنى حد على الجبهة السورية، وإن كان له أثر أكبر بصورة طفيفة على الجبهة المصرية. وكان عبور القناة يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر بتوصية جادة من بارليف انظر: (Herzog, War of Atonement, PP. 202-07.) وبعد النصر الإسرائيلي في سيناء في 14 تشرين الأول/ أكتوبر كانت الأوامر ستصدر بذلك حتى بدون إعادة الإمداد بالأسلحة من الولايات المتّحدة. ولكن العبور ما كان ليستخدم بمثل هذا الإقدام إن لم تكن الأسلحة آتية في طريقها، وقد استخدمت بعض البنود، مثل صواريخ تاو ومافريك استخداماً مؤثّراً تماماً في الأيام الأخيرة للقتال، وكادت تهدّد بالهزيمة الكاملة للجيش الثالث. ومن المفارقات أن الإمدادات الأَمريكيَّة جعلت إسرائيل في وضع يمكنها من القيام بعمل كان كيسينجر يصر على منعه.

عربي علاقاتاته الديبلوماسية مع الولايات المتحدة، وكان السَّادات على اتصال مستمر بنيكسون عبر القناة الخلفية. وساعد النفوذ الأَمريكي لدى الملك حسين، على إبقاء الأردن خارج الحرب، وإن كانت قد أُرسلت قوة أردنية رمزية لترابط في سورية. وكان من الممكن أن يتغيَّر كل ذلك من جراء الجسر الجوي، ولكن نيكسون وكيسينجر كانا على استعداد للمخاطرة. وكان بوسعهما أن يقولا إن الجسر الجوي جاء رداً على التدخّل السوفييتي السابق لصالح العرب، وأن واقع السياسة العالمية يحتم قيام الولايات المتحدة بالردّ.

في الساعة 12,30 بعد الظهر، بتوقيت واشنطن (6,30 مساء بتوقيت إسرائيل) وصلت أول طائرة نقل عملاقة من طراز سي ـ 5 (C - 5) إلىٰ مطار اللد، وبات يعمل الآن جسر جوي قادر على نقل ما يقارب ألف طن في اليوم، يتألّف من أربع أَو خمس رحلات لطائرات «سي ـ 5»، وما يقارب 12 ـ 15 رحلة جوية بطائرات سي ـ 141. كما استمرت طائرات العال في نقل الإمدادات العسكرية إلىٰ إسرائيل. وبالإضافة إلىٰ ذلك توجهت 12 طائرة نقل من طراز سي ـ 130 إلىٰ إسرائيل، وانضمّت إلىٰ سلاح الجو الإسرائيلي[41]. ومع استمرار عمليَّة الجسر الجوي بأقصى طاقتها، كانت واشنطن مستعدة للانتظار

(41) من 14 تشرين الأول/ أكتوبر وحتى وقف إطلاق النار في 25 منه، بلغ ما قدمته جهود إعادة الإمداد نحو 11 ألف طن من المعدات، وأربعين طائرة فانتوم «اف ـ 4»، وست وثلاثين طائرة «سكاي هوك» «أ ـ 4»، واثنتي عشرة طائرة نقل «سي ـ 130». ولم تشمل جهود إعادة الإمداد سوى أربع دبابات في الرحلات الأولى لطائرات «سي ـ 5» وأقل من عشرين دبابة أخرى تم إرسالها خلال عملية الجسر الجوي كلها. ومن 26 تشرين الأول/ أكتوبر إلىٰ نهاية الجسر الجوي في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر، تم نقل 11 ألف طن أخرى من المعدات. وإجمالاً قامت الطائرات «سي ـ 5» بـ 147 طلعة على متنها 10800 طن، وقامت طائرات «سي ـ 141» بـ 421 طلعة حاملة 11500 طن. وفي نفس الفترة نقلت طائرات العال نحو 11 ألف طن من الإمدادات العسكرية إلىٰ إسرائيل في أكثر من 200 رحلة. وبحلول 15 تشرين الثاني/ نوفمبر بدأت طلائع السفن تصل إلىٰ إسرائيل حاملة الإمدادات، وأصبح الجسر الجوي غير ضروري. ويتضمن Aviation Week and Space Technology, vol 99 (December 10, 1973), PP. 16-19 معلومات عن عملية الجسر الجوي.

حتى تؤدي الوقائع الميدانية، إلىٰ تغيير الحسابات المصرية والسوڤييتية.

في ذلك الوقت بدأت الولايات المتحدة تخطِّط لحظر نفطي عربي متوقع. ومن المعروف أن 12٪ فقط من الاستهلاك الأَمريكي للنفط، أَو 5٪ من إجمالي الطاقة، يتكوّن من النفط الخام ومنتجاته المكرّرة يصل إلىٰ الولايات المتحدة بطريقة مباشرة أَو غير مباشرة من العالم العربي. ومن خلال تخفيض الطلب على النّفط، ومع قليل من إعادة توجيه الواردات، فإن التأثير العام لخطر النّفط العربي الانتقائي لن يكون له أثر يُذكر. ولكن إذا صاحب الحظر تخفيض شديد في الإِنتاج، فلن تكون الولايات المتحدة وحدها المتضرِّرة، بل ستتضرّر أيضاً كل من أوروبا واليابان. وبالتالي فقد بات التخطيط لاقتسام النّفط بين الحلفاء، بالإِضافة إلىٰ خطة محلية للطاقة، أمرين مطلوبين.

في الوقت الذي كانت تحط فيه أول طائرة سي ـ 5 في إِسرائيل بعد ظهر يوم 14 تشرين الأول/ أكتوبر كانت تجري المعركة الحاسمة للحرب على الجبهة المصرية، والتي كسبتها إِسرائيل. فقد أخفق الهجوم المصري على كل من ممري متلا والجدي، وخسرت مصر ما يزيد على مائتي مدرّعة. وكانت هذه هي المعركة التي رفض من أجلها السَّادات اقتراح وقف النار في المكان، وهو الاقتراح الذي قدَّمه السفير البريطاني في اليوم السابق[42]. والآن وبعد أن حقق الإِسرائيليون هذا النصر، لم يعودوا مهتمين بوقف إطلاق النَّار الذي كانوا على استعداد لقبوله قبل يومين[43]. وبدلاً من ذلك قرَّرت إِسرائيل، بعد أن اطمأنت إلىٰ استمرار تدفق العتاد الأَمريكي، القيام بعمليَّة عسكرية محفوفة بالمخاطر لاختراق قناة السويس. وإذا نجحت هذه العمليَّة، فإن من شأنها أن تؤدي إلىٰ تدمير مواقع الصواريخ المصرية، وهو ما سيؤدي بدوره إلىٰ انكشاف القوات البرية المصرية، وتعرّضها للقصف الجوي الإِسرائيلي. كما أن القوَّات

(42) Heikal, Road to Ramadan, P. 224.

(43) Golan, Secret conversations of Kissinger, P. 67.

المصرية في سيناء، ستواجه خطر انقطاع خطوط مواصلاتها، وتطويقها من قِبل الإسرائيليين. كان ثمة لحظة حاسمة تقترب. فقد تقرَّر لتنفيذ العملية الإسرائيلية ليلة 15/ 16 تشرين الأول/ أكتوبر.

عقد كيسينجر اجتماعات عمل صباحية لمجموعة العمل الخاصة في واشنطن في يومي 14 و15 تشرين الأول/ أكتوبر. وقام هذا الفريق، بالإضافة إلىٰ مناقشة موضوع النّفط، بتقييم تطورات الوضع العسكري والدبلوماسي. وفي 15 تشرين الأول/ أكتوبر أصبحت عمليَّة الجسر الجوي معروفة للجميع، وتردَّدت أصداؤها على نطاق واسع. وكان كيسينجر مندهشاً من اعتدال رد الفعل العربي. ومع أنه لم يتوقع أن يجتمع وزراء النّفط العرب في الكويت في اليوم التالي، لقطع النّفط عن الولايات المتحدة، إلاَّ أنه كان يشعر بضرورة التخطيط للضغط المضاد على العرب، إذا ما أقدموا على ذلك. فالإدارة الأَمريكيَّة التي أضعفتها المشكلات السياسية الداخلية، لن تحتمل أن تبدو بمظهر الضعف أمام «ابتزاز» منتجي النّفط العرب.

وفيما يتعلَّق بالدور السوفييتي في النِّزاع، كان كيسينجر يؤمن بنوع من توازن الضدين. وجاء جوزيف ألسوب كاتب الأعمدة الشهير في واشنطن الذي نُشر صباح 15 تشرين الأول/ أكتوبر، ليتهم السوفييت بالتواطؤ مع العرب وبمعرفتهم مسبقاً بالجهد العسكري العربي. وكان كيسينجر يرتاب بالأمر، ولكنه كان يرى في الوقت نفسه أن السوفييت ما زالوا مهتمين بالتوصل إلىٰ تسوية دبلوماسيَّة. وقد أوضح السوفييت في وقت مبكر من يوم 15 تشرين الأول/ أكتوبر، ربما بسبب الجسر الجوي الأَمريكي، أَو بسبب نتيجة معركة 14 تشرين الأول/ أكتوبر في سيناء، أنَّهم يحاولون بجدِّيَّة إقناع العرب بقبول وقف إطلاق النَّار. وكان من المقرّر أن يتوجه رئيس الوزراء كوسيغين إلىٰ القاهرة في اليوم التالي.

عمل كيسينجر على اللقاء مع الزيات وزير الخارجيَّة المصري يوم 16

تشرين الأول/ أكتوبر، وكان من المقرّر أن يلتقي نيكسون مع أربعة من وزراء الخارجيَّة العرب في 17 تشرين الأول/ أكتوبر. وبذلك تبقى القنوات الدبلوماسيَّة مفتوحة مع كل من العرب والسوفييت بالرغم من تصاعد تورط الدولتين العظميين في النِّزاع[44].

المد يبدأ بالانحسار

كان يوم 16 تشرين الأول/ أكتوبر يوماً حاسماً بالنسبة للحرب والدبلوماسيَّة. فقد ألقى كل من الرئيس السَّادات، ورئيسة الوزراء مائير خطاباً هاماً يحدِّدان فيه سياستيهما. وكانت القوَّات الإسرائيلية قد نجحت في عبور القناة بأعداد صغيرة، أخذت تتحرَّك باتجاه قواعد الصواريخ، مثيرة الفوضى العارمة في صفوف القوَّات المصرية. وكان كوسيغين في طريقة إلىٰ القاهرة، في محاولة لإقناع السَّادات بوقف القتال، وكان لدى كيسينجر ما يجعله يشعر بأن الاستراتيجية الأَمريكيَّة كانت تعمل على نحو مثمر. وجاءت خطبة السَّادات معتدلة اللهجة، وتتضمَّن «رسالة مفتوحة» إلىٰ نيكسون حول شروط مصر للسَّلام. وكانت الاتصالات السوفييتية قد ألمحت إلىٰ مهمّة كوسيغين في اليوم السابق. وحتى تلك اللحظة لم يكن قد أُعلن بعد عن الحظر العربي للنفط. وكانت النجاحات العسكرية الإسرائيلية، بالرغم من أن واشنطن لم تخطّط لها

---

(44) أبدى نيكسون تعليقات ارتجالية يوم 15 تشرين الأول/ أكتوبر في احتفال وسام الشرف نتج عنها بعض الذعر في الدوائر الدبلوماسيَّة العربية، إذ قال إن السياسة الأَمريكيَّة هي «مثل السياسة التي انتهجناها عام 1958 عندما كان الأمر يتعلَّق بلبنان، وهي مثل السياسة التي انتهجناها عام 1970 عندما كان الأمر يتعلق بالأردن. إن سياسة الولايات المتّحدة في الشرق الأَوسط هي ببساطة كما يلي: إننا نقف مع حق كل أمة في الشرق الأَوسط في المحافظة على استقلالها وأمنها. إننا نريد لهذا القتال أن ينتهي. إننا نريد أن ينتهي القتال على أساس يمكننا معه بناء سلام دائم». Weekly Compilation of Presidential Documents, vol. 9 (October 22, 1973), P. 1251. وقد أثارت إشارة الرئيس إلىٰ لبنان والأردن شبح التدخل العسكري الأَمريكي. والأرجح أن نيكسون كان يشير ببساطة إلىٰ الأَزمتين الأخريين في الشرق الأَوسط اللتين تدّخل فيهما شخصياً.

على وجه الخصوص، أَو تتعمّدها، توافق رأي كيسينجر بأنَّه لا بد من إقناع السَّادات، بوقف إطلاق النَّار عن طريق تطورات ميدانية. ومن الأهمية بمكان، أن يتوقف القتال في اللحظة التي لا تزال فيها جميع الأطراف قادرة على الخروج من المعركة دون مساس بمصالحهم الحيوية وكرامتهم.

في اجتماع مجموعة العمل الخاصة في واشنطن صباح الثلاثاء 16 تشرين الأول/ أكتوبر، تابع كيسينجر حماسته لأهداف الجسر الجوي، وحاول أن يقلل من أهميته في سياق النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. والأكثر من ذلك أنه أكَّد على أن السوفييت يجب أن يعرفوا، أن الولايات المتحدة تستطيع أن تزوّد بالإمدادات بأكثر مما يستطيعون. وعندما تحوَّلت المجموعة بأنظارها إلىٰ الشرق الأَوسط ثانية، راحت تتصدَّى لمسألة المساعدات التي تقدّم لإسرائيل، من أجل تمويل الأَسلحة التي ترسل إليها. ورأى بعض أفراد «المجموعة»، أن الوقت قد حان لتحقيق أعلى رصيد لإسرائيل، لأن مواقف كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، لا بد أن تتباعد عند بدء الجهود الدبلوماسيَّة بعد ذلك. ودعا كيسينجر إلىٰ تقديم مساعدة ضخمة إلىٰ إسرائيل ـ بحدود ثلاثة مليارات دولار ـ بالإضافة إلىٰ 500 مليون دولار إلىٰ كامبوديا ودول أخرى، مما ينبي عن فارق كبير. وفي رأيه أن الولايات المتحدة قد دفعت الثمن للعرب، وأن تقديم فاتورة مساعدة ضخمة لإسرائيل لن تضيف ضرراً يُذكر.

ولعل كيسينجر قد راجع أفكاره قليلاً، عند تلقيه رسالة عند ظهر ذلك اليوم من الملك فيصل، رداً على رسالته بشأن الجسر الجوي إلىٰ إسرائيل. كان الملك «مستاء» من التصرّف الأَمريكي، ورأى أن على الولايات المتحدة أن تتوقَّف عن إرسال الأَسلحة، وأن تطالب إسرائيل بالانسحاب، وإلاَّ فإن العلاقات الأَمريكيَّة ـ السعودية ستصبح «فاترة». (ومع ذلك استمرت المساعدات صعوداً، وفي 19 تشرين الأول/ أكتوبر طالب الرئيس نيكسون رسمياً بمساعدة لإسرائيل مقدارها 2,2 بليون دولار. وفي اليوم التالي أعلن

الملك فيصل، حظر النّفط عن الولايات المتحدة بالإضافة إلىٰ خفض كبير في الإنتاج. ويتساءل كيسينجز في استرجاع لأحداث الماضي، ما إذا كان قد ضغط كثيراً على العرب بطلب معونة 2,2 بليون دولار لإسرائيل، في الوقت الذي كان فيه الوضع العسكري يتحوَّل لصالحها).

خُصِّص معظم اليوم التالي ـ 17 تشرين الأول/ أكتوبر ـ لإجراء محادثات مع وزراء خارجيَّة المغرب، والجزائر والمملكة العربية السعودية والكويت. فقد التقى كيسينجر بعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل، مع وزراء الخارجيَّة الأربعة في مكتبه في البيت الأَبيض[45]. واستمع إلىٰ وزير الخارجيَّة السعودي وهو يشرح المطالب العربية: تسوية فورية للنزاع تقوم على أساس الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأَراضي التي احتُلّت عام 1967، وإعادة الحقوق الفلسطينية وفقاً لقرار الأُمم المتَّحدة 242. ثم شرح كيسينجر أن السياسة الأَمريكيَّة الأساسية الآن، هي وقف القتال الجاري ومنع انتشاره. وبعد وقف الحرب سوف تنهمك الولايات المتحدة في مجهود دبلوماسي، من أجل تحقيق سلام عادل ودائم. ولهذا فإن العلاقات الأَمريكيَّة العربية ينبغي أن تظل قوية قدر الإمكان. لقد خلق العرب واقعاً جديداً في الشرق الأَوسط، وقد حان الوقت للقيام بجهد دبلوماسي.

وفي الساعة 11,10 صباحاً بدأ الرئيس نيكسون حديثه مع وزراء الخارجيَّة العرب الأربعة. وشرع عمر السقاف، الممثِّل السعودي، في شرح الموقف العربي الجماعي ثانية، مؤكّداً على المسؤولية الأَمريكيَّة في إجبار إسرائيل على الانسحاب إلىٰ خطوط 1967. واستشهد بالتاريخ الطويل للصداقة العربية ـ الأَمريكيَّة وناشد الولايات المتحدة التمسّك بمبدأ وحدة أَراضي جميع الدول في المنطقة. ورد نيكسون بالإشارة إلىٰ زياراته للشرق الأَوسط، ولقائه مع عدد من

---

(45) يقدم كتاب Heikal, Road To Ramadan, PP. 232-34 رواية محرفة بعض الشيء لهذه الأحاديث، ولكنها تغطي غالبية النقاط الرئيسية.

الزعماء العرب، ورغبته في السفر ثانية إلىٰ المنطقة عندما تتحقَّق التسوية السلمية. وقال مردداً أفكار كيسينجر بأن الولايات المتحدة تعمل الآن من أجل وقف إطلاق النَّار، ثم تنهمك بعد ذلك في دبلوماسيَّة نشيطة. ونفى أن تكون السياسات الداخلية ذات تأثير على سياسة الولايات المتحدة إزاء الشرق الأَوسط. وحثّ العرب على الثقة بكيسينجر على الرغم من خلفيته اليهوديَّة. واختتم حديثه بالوعد أن تعمل الولايات المتحدة، من أجل «تطبيق القرار 242» بعد وقف إطلاق النَّار، ولكنَّه أكَّد على أنَّه لا يستطيع أن يعد بأن تنسحب إسرائيل إلىٰ خطوط 1967.

كان شعور كيسينجر بصورة عامَّة أن اللقائين سارا على ما يرام. وفي اجتماع «مجموعة العمل الخاصَّة» بعد الظهر أكَّد كيسينجر أنَّه لم يعد يتوقع أن يقطع العرب نفطهم عن الولايات المتحدة. ومن دواعي السخرية أنَّه فيما كان يتوصل إلىٰ هذا الاستنتاج المتفائل، كان وزراء النفط العرب المجتمعون في الكويت، يعلنون أن إنتاج النّفط سيخفَّض بمقدار 5٪ في كل شهر، إلىٰ أن تنسحب إسرائيل من جميع الأَراضي العربية. وبعد ثلاثة أيام دفع الملك فيصل الأمور إلىٰ مدى أبعد مطالباً بخفض فوري مقداره 10٪، وبفرض حظر على شحنات النّفط إلىٰ كل من الولايات المتحدة وهولنده.

على الصعيد الدبلوماسي، كانت نقطة التقدّم الوحيدة جراء زيارة كوسيغين إلىٰ القاهرة، هي طلب سوڤييتي لمعرفة وجهة النظر الأَمريكيَّة حول وقف إطلاق النَّار في المكان، الذي تم التوصل إليه مرتبطاً بالقرار 242[46]. وكان الرد الأَمريكي إيجابياً، ولكن الولايات المتحدة طلبت اقتراحاً محدداً. وقد نقل الموقف السوڤييتي إلىٰ السفير دينتيز الذي نقله بدوره إلىٰ بلاده، ولكن غولدا مائير وجدته غير مقبول. فبدلاً من ربط وقف إطلاق النَّار في المكان بالقرار 242، فضَّل الإسرائيليون ربطه بمفاوضات مباشرة بين الأطراف[47]. ولم

(46) Golan, Secret Conversations of Kissinger, P. 70.

(47) المصدر السابق، ص 72.

يأت اليوم التالي بتغيير يُذكر، فالسادات كان ما يزال غير مستعد للتوقف.

بدأ النشاط الدبلوماسي، كما توقَّع كيسينجر، يوم 19 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد وقت قصير من عودة كوسيغين إلىٰ موسكو قادماً من القاهرة[48]. وفي الصباح وصلت إلىٰ البيت الأبيض رسالة من بريجينيف، يطلب فيها إجراء مشاورات عاجلة حول أزمة الشرق الأوسط، وأن يأتي كيسينجر إلىٰ موسكو بصورة عاجلة، «فالوقت له أهمية جوهرية»[49]. وشعر كيسينجر الآن أن وقف إطلاق النَّار ينبغي أن يتم على وجه السرعة. وألمح في محادثاته مع دينيتز أنه بموافقته على الذهاب إلىٰ موسكو، سيكون قادراً على أن يُكسب إسرائيل بضعة أيام أخرى لإنجاز عملياتها العسكرية[50]. في حين أكَّد دينيتز عن الحاجة إلىٰ الربط ما بين وقف إطلاق النَّار والمفاوضات[51].

وفي وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، قدَّمت الإدارة إلىٰ الكونغرس طلباً بمساعدة قدرها 2,2 بليون دولار. مما أظهر أن الولايات المتحدة كانت تحاول الوصول إلىٰ «خاتمة سريعة جداً ومشرِّفة تقاس بالأيام لا بالأسابيع».

محادثات موسكو

بغضّ النظر عمّا قاله كيسينجر لدينيتز، فإن الهدف الأساسي لزيارته إلىٰ موسكو لم يكن كسب الوقت لإسرائيل لتحقيق نجاحات ميدانية، بل للحصول على موافقة سوڤييتية عربية، على قرار لوقف إطلاق النَّار، يكون أساساً لجهد دبلوماسي لاحق. وإذا ما بقي الموقف السوڤييتي والعربي محصوراً بصيغة غير

(48) غادر كوسيجين القاهرة في الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة صباحاً بتوقيت واشنطن يوم 19 تشرين الأول/ أكتوبر.

(49) Kissinger, Years of Upheaval, P. 542.

(50) Golan, Secret Conversations of Kissinger, P. 75.

(51) Kalb and Kalb, Kissinger, PP. 481; and Ze'ev Schiff, October Earthquake: Yom Kippur, 1973 (Tel Aviv: University Publishing Projects, 1974), P. 264.

مقبولة، فقد كان كيسينجر عندئذ مستعداً للانتظار، مفترضاً أن تقدم الإسرائيليين في الضفة الغربية للقناة، كفيل في النهاية بإحداث تغيير. ومن جهة ثانية إذا كان بريجينيف والسَّادات مستعدين لمجرد وقف إطلاق النَّار، عندئذ سيضغط كيسينجر لإحداث وقف سريع للأعمال القتالية. فهو لم يكن له مصلحة في إذلال السَّادات، وخاصة بسبب اللهجة المشجعة للاتصالات الأَمريكيَّة ـ المصرية المتبادلة على مدى الأسبوعين الفائتين. كما لم يكن راغباً في إكراه السوفييت على الاختيار ما بين الوقوف جانباً، وهم يرون المتعاونين معهم ينهزمون أمام إسرائيل بأَسلحة أَمريكيَّة، أَو التدخّل عسكرياً إلىٰ جانب العرب مع ما سيرافق ذلك من أخطار مواجهة نووية.

كان الحل البارع هو التوصّل إلىٰ وقف النار في اللحظة الملائمة. وحتى تحين تلك اللحظة كان على الإسرائيليين أن يتقدَّموا ميدانياً، ولكن كيسينجر شعر أن إسرائيل ينبغي أن تكون مستعدة للتوقف، إذا ما توصّلت القوّتان العظميان إلىٰ اتفاق لوقف إطلاق النَّار. ففي نهاية الأمر لن تقتصر المخاطر على الشرق الأَوسط، بل سيكون لها طابع عالمي أيضاً، وإذا لزم الأمر سيكون كيسينجر مستعداً للضغط بشدَّة على الإسرائيليين.

تلقَّى كيسينجر أثناء رحلته الجوية إلىٰ موسكو رسالتين عاجلتين، تخبره الأولى منهما بالقرار السعودي بحظر شحنات النّفط إلىٰ الولايات المتحدة. أمَّا الرسالة الثانية فكانت من نيكسون موجَّهة إلىٰ بريجينيف، يبيِّن فيها أن كيسينجر لديه مطلق الصلاحية في التفاوض. ويزعم كيسينجر أنه استاء من هذا الإجراء غير العادي، إذ أنه حرمه من استخدام مناورة العودة إلىٰ واشنطن للتشاور قبل اتخاذ القرارات النهائية[52].

بدأت المباحثات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية الحاسمة في موسكو في 21

(52) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 546-48.

تشرين الأول/ أكتوبر عند حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، واستمرّت أربع ساعات فقط، وقد حاول السوفييت في بداية الأمر، ربط وقف إطلاق النَّار بدعوة إسرائيل بصورة ما إلىٰ الانسحاب من جميع الأَراضي العربية، مع ضمانات تقدّمها الدولتان العظميان، إلاَّ أنَّهم لم يلبثوا أن غيَّروا موقفهم التفاوضي؛ فقد كان الوقت عاملاً حاسماً، وكان أصدقاؤهم يتعرَّضون للخطر. وفي النهاية وافق بريجينيف على مجرد وقف لإطلاق النَّار، مع دعوة لتنفيذ قرار مجلس الأَمن 242، كما وافق، تحت إلحاح أَمريكي، على مفاوضات بين الفرقاء تحت رعاية مناسبة[53]. وبالإضافة إلىٰ ذلك، وافق الطرفان على أن يترأسا معاً مؤتمراً للسَّلام يُعقد فيما بعد، وأن يتبادل الطرفان أسرى الحرب فور وقف إطلاق النَّار.

وعند ظهيرة يوم 21 تشرين الأول/ أكتوبر، بتوقيت واشنطن، وافق الطرفان الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي على نص قرار لوقف إطلاق النَّار. وبات على كيسينجر الآن أن يحثّ إسرائيل على القبول به. وبعد الظهر اتصل ألكسندر هيغ، الذي أصبح الآن رئيس موظفي البيت الأَبيض، بالسفير دينيتز هاتفياً ليطلعه على النّص المقترح للقرار. وأُبلغ دينيتز بأن فسحة الوقت ضيقة، وأنه لا يمكن إدخال تعديلات. وفي الساعة التاسعة ليلاً، قبل وقت قصير من انعقاد مجلس الأَمن، قرَّر مجلس الوزراء الإسرائيلي القبول بقرار وقف النار. وطلبت مائير في رسالتها، التي تبلغ نيكسون بقرار إسرائيل، أن يتوقف كيسينجر في تل أبيب، في طريق عودته من موسكو، لإجراء مشاورات.

اجتمع مجلس الأَمن في الساعة العاشرة ليلاً، وبعد ساعتين و50 دقيقة، أي في الساعة 12,50 من صباح يوم 22 تشرين الأول/ أكتوبر أجاز القرار 338

(53) وافق الطرفان في اتّفاقية جانبية على أن «الرعاية الملائمة» تعني أن «المفاوضات بين الأطراف المعنية ستجري بالمشاركة الإيجابية من جانب الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفييتي في البداية، ثم بعد ذلك عندما يجري تناول المسائل الرئيسية الخاصة بالتسوية». انظر المصدر السابق، ص 559.

الداعي إلىٰ وقف إطلاق النَّار والمفاوضات[54]. وكان يتوجب وقف إطلاق النَّار على كافة الجبهات في غضون اثنتي عشرة ساعة.

غادر كيسينجر موسكو صباح يوم 22 تشرين الأول/ أكتوبر، متوجهاً إلىٰ تل أبيب[55]، حيث وصلها الساعة 12,45 بعد منتصف الظهيرة بتوقيت الشرق الأوسط (الساعة 6,45 مساء بتوقيت واشنطن). ولم يكن وقف إطلاق النَّار قد سرى بعد. وأصر كيسينجر في محادثاته مع مائير، على أن تتحرَّك إسرائيل إلىٰ مواقع دفاعية، وألاّ تخرق وقف إطلاق النَّار. وزعم فيما بعد أنَّه كان حازماً جداً مع الإسرائيليين بشأن تلك المسألة، وأن رئيسة الوزراء مائير ووزير الدفاع دايان ووزير الخارجيَّة إيبان، فضلاً عن المؤسَّسة العسكرية الإسرائيلية، قد وافقوا على أن إسرائيل لن تحقِّق المزيد من المكاسب عن طريق القتال[56]. وأكَّد كيسينجر على أن القرار، دعا لأول مرة إلىٰ إجراء مفاوضات بين إسرائيل والعرب. كما أكَّد لمائير على عدم وجود تفاهم سري أمريكي ـ سوفييتي. وظل القرار المبهم 242 دليل عمل للجهود الدبلوماسيَّة القادمة. ووعد كيسينجر بأنه لن يتم إضعاف موقف إسرائيل في المساومة مسبقاً، وباستمرار تدفق السِّلاح.

---

(54) انظر نص قراري الأُمم المتَّحدة في مرجع سابق.

(55) عندما علم السادات بأن كيسينجر سيتوقف في إسرائيل، وجّه له الدعوة للقدوم إلىٰ مصر أيضاً. واعتذر كيسينجر، ولكنه أعرب عن أمله في أن يتمكّن من زيارة القاهرة قريباً Heikal, Road to Ramadan, PP. 248-4.

(56) يقول كتاب Golan, Secret Conversations of Kissinger, PP. 84-87 إن كيسينجر ألمح إلىٰ أن إسرائيل لن تكون مطالبة بالالتزام الصارم بوقف إطلاق النار. وجاء في Kissinger, Years of Upheaval, P. 569 أن كيسينجر أبلغ الإسرائيليين بأن «تفويت» الموعد النهائي لوقف إطلاق النار بضع ساعات أثناء عودته بالطائرة لبلاده، لن يكون مشكلة. ويقول جوزيف سيسكو في شهادته أمام لجنة الشؤون الخارجيَّة لمجلس النواب في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1973، «إن الإسرائيليين كانوا مثل المصريين يتوقون لوقف إطلاق النار في الوقت الذي تقرر فيه ذلك (22 تشرين الأول/ أكتوبر)». Emergency Security Assistance Act of 1973, Hearings before the committee of Foreign Affairs of the House of Representatives, 93 Cong. 1 sess. (GPO, 1973), P. 56. وانظر أيضاً Walter Laqueur Confrontation (Quadrangle, 1974) P. 194 و.Maariv, October 26, 1973.

وغادر كيسينجر إسرائيل بعد خمس ساعات من وصوله، وهو يشعر بأن إسرائيل سوف تلتزم بوقف إطلاق النَّار[57]. وبعد ساعة من مغادرته، أي في الساعة 6,50 بعد الظهر، بتوقيت الشرق الأَوسط، سكتت المدافع، ولكن ذلك لم يدم طويلاً.

نحو المواجهة

كان لدى نيكسون وكيسينجر ـ بتحقيق وقف إطلاق النَّار في 22 تشرين الأول/ أكتوبر ـ ما يبرِّر الشعور بالرِّضى. فقد تم وضع حد لأَزمة طويلة، وخطيرة بدون مواجهة أَمريكيَّة ـ سوفييتية. وحقَّق كل طرف من أطراف النِّزاع بعض المكاسب لتوازن خسائره الجسيمة، مما قد يجعل آفاق مفاوضات السَّلام تبدو جيدة. وحتى حظر النّفط، رغم ما يثير من استفزاز، بدا يمكن معالجته.

بعد وصول كيسينجر إلىٰ مكتبه صباح يوم الثلاثاء 23 تشرين الأول/ أكتوبر، اتصل به السوفييت ليبلغوه بأن إسرائيل تخرق وقف إطلاق النَّار[58]. انزعج كيسينجر. وكان قد أحس بالمرارة في صفوف العسكريين الإسرائيليين لحرمانهم من النصر. كما كان قد أبلغ السوفييت بأن إسرائيل سوف تحترم وقف النار، وعندما اتصل بدينيتز ليبلغه باتهامات السوفييت، حرص على أن يوضح له أن على إسرائيل، ألا تحاول تدمير الجيش المصري الثالث شبه المُحاصَر.

أدرك كيسينجر منذ بداية الأَزمة أن مصداقية أَمريكا لدى العرب، ستكون موضع اختبار في ظل ظروف كهذه. فإذا وقفت الولايات المتحدة مكتوفة الأيدي وهي تشاهد تدمير الجيش الثالث بالأَسلحة الأَمريكيَّة الواردة حديثاً، فإن

---

(57) اتصل كيسينجر أثناء توقفه في لندن بالسوفييت، يحثّهم على الضغط على سوريا لإلغاء هجوم مزمع في اليوم التالي.

(58) Kabl and Kalb, Kissinger, P. 486.

مستقبل كيسينجر كصانع للسلام سيكون موضع خطر شديد. إذ لم يعد من المهم الآن معرفة مَن مِن الطرفين يعتبر مسؤولاً من الناحية الفنية عن إطلاق النار أولاً بعد بدء سريان وقف النار. وما كان واضحاً أن القوَّات الإسرائيلية هي التي كانت تتقدَّم وراء خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر لوقف إطلاق النَّار. ومع هذا فإن كيسينجر، رغم قلقه، لم يكن يشعر بالخطر بعد.

بدأ كيسينجر يوم الأربعاء 24 تشرين الأول/ أكتوبر سلسلة من المكالمات مع المصريين والإسرائيليين والسوفييت. وكان السَّادات الآن على اتصال متكرر مع نيكسون حتى بشأن الأمور الصغيرة[59]. وقد طلب مساعدة الرئيس لحمل الإسرائيليين على السماح بإيصال الإمدادات الطبية والطعام، إلىٰ قوَّات الجيش الثالث المُحَاصَر تقريباً. كما طلب حضور الملحق العسكري الأمريكي في تل أبيب، للتأكّد من تقيد إسرائيل بوقف النار. وكان كيسينجر مستعداً للتعاون. وهتف لدينيتز طالباً منه أن تحترم إسرائيل وقف النار، وأن تسمح بوصول الإمدادات إلىٰ قوَّات الجيش الثالث[60].

وعند العصر بلغ واشنطن أن السَّادات وجّه نداء علنياً إلىٰ كل من الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي، لإرسال قوَّات إلىٰ الشرق الأوسط لمراقبة وقف إطلاق النَّار. وسرعان ما أصدر البيت الأبيض بياناً يُعلن فيه رفض فكرة إرسال قوَّات من قِبل الدولتين العظميين إلىٰ المنطقة. وبعد ذلك بوقت قصير اجتمع كيسينجر مع دوبرينين في مقر وزارة الخارجيَّة لمناقشة عقد مؤتمر للسلام، ووافقا على أن يُعقد المؤتمر في جنيف، كما بحثا في أمور إجرائية أخرى. ونفى دوبروينين اهتمام السوفييت بإرسال قوَّات إلىٰ الشرق الأوسط

---

(59) نشر كتاب Heikal, Road to Ramadan, PP. 251-52 نص خطابين من نيكسون إلىٰ السادات في 24 تشرين الأول/ أكتوبر. وبالإضافة إلىٰ ذلك، كتب نيكسون إلىٰ السادات في 23 تشرين الأول/ أكتوبر ليوضح أن الولايات المتّحدة ألزمت نفسها فقط بالاشتراك في عملية تستهدف تحقيق تسوية سياسية، ولكنها لا تضمن أية نتيجة محددة لهذه العملية.

(60) Kalb and Kalb, Kissinger, P. 488.

استجابة لطلب السَّادات. وانتهى الاجتماع بجو ودِّي، ولم تكن ثمة إشارة إلىٰ أَزمة وشيكة[61].

بعد ثلاث ساعات، أي في الساعة 7,05 مساء اتصل دوبرينين بكيسينجر هاتفياً ليخبره أن السوفييت، يؤيِّدون فكرة قوَّات حفظ للسلام مشتركة إذا طالبت دول عدم الانحياز بذلك. ثم اتصل مرة أخرى بعد قليل ليقول، إن السوفييت يبحثون التقدم بقرار يتضمن ذلك. أثارت هاتان الرسالتان قلقاً بالغاً في واشنطن. وفي الساعة 9,35 ليلاً اتصل دوبرينين بكيسينجر ليبلغه رسالة «عاجلة جداً» من بريجينيف إلىٰ نيكسون. وأخذ يقرأ نص الرسالة ببطء على الهاتف. بدأت الرسالة بالإشارة، إلىٰ أن إسرائيل ما تزال مستمرة في خرق وقف إطلاق النَّار، مما يعني تحدياً لكل من الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي. وأكَّد بريجينيف على الحاجة إلىٰ «تطبيق» قرار وقف إطلاق النَّار، ودعا الولايات المتحدة للانضمام إلىٰ موسكو «لفرض تنفيذ وقف إطلاق النَّار بدون تأخير». ثم جاء التهديد: «سأقول بصراحة إنَّكم إذا رأيتم استحالة العمل المشترك معنا في هذا الشأن، فإننا سنُواجه بضرورة النظر على وجه السرعة، في مسألة اتخاذ الخطوات المناسبة بصورة منفردة. فنحن لا نستطيع أن نسمح بخروقات تعسفية من جانب إسرائيل»[62]. وسارع كيسينجر إلىٰ نقل الرسالة إلىٰ نيكسون عن طريق هيغ. وتدل سجلات الرئيس على أنَّه تحدّث مع هيغ نحو عشرين دقيقة، عند حوالي الساعة 10,30 ليلاً. وكان ذلك هو اتصال نيكسون الوحيد بمستشاريه حتى صباح اليوم التالي. وقد ذكر أن نيكسون فوَّض كيسينجر باتخاذ أي إجراء ضروري، بما في ذلك إعلان حالة الاستنفار العسكري[63]. ثم دعا كيسينجر إلىٰ انعقاد جلسة خاصة لمجلس الأَمن القومي.

---

(61) المصدر السابق، ص 489.

(62) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 575-83.

(63) Nixon, RN, P. 938.

مما لا شك فيه أن الموقف بات خطيراً. إذ لم يكن أحد يعرف ماذا ينوي الاتّحاد السوفييتي أن يفعل، ولكن مذكرة بريجينيف كانت تعني على نحو لا يحتمل الخطأ، أنَّه عازم على عدم السماح لإسرائيل بتدمير الجيش المصري الثالث. أدرك كيسينجر صعوبة الموقف بالنسبة للسوفييت، والضغوط التي يتعرَّضون لها من أجل التحرّك. كانت مكانتهم كدولة عظمى في الميزان، وهو ما يستطيع كيسينجر أن يدركه. ولكن هل كان لدى السوفييت قدرة على التدخّل مهما كانت مقاصدهم؟ والجواب نعم بالتأكيد. فطائرات النقل التي حملت العتاد العسكري إلىٰ الشرق الأوسط، قد عادت جميعها إلىٰ الاتّحاد السوفييتي ويمكن أن تستخدم لنقل القوات. وكان هناك 7 فرق محمولة جواً على الأقل في حالة استنفار كامل[64]. كما كانت هناك سفينتان تحملان قوارب برمائية ضمن الأسطول السوفييتي شرق المتوسط.

ومع أن تدخّلاً سوفييتياً واسع النطاق كان لا يزال أمراً يصعب تصوره، رغم هذه المجموعة من الدوافع والقدرات، فقد كان بوسع موسكو أن تلجأ إلىٰ بعض استعراضات القوة العسكرية الفعَّالة ذات عواقب متفجرة سياسياً، وربما عسكرياً أيضاً. فقد كان بوسعها مثلاً إرسال قوة «حفظ سلام» صغيرة لتوصيل الإمدادات إلىٰ قوَّات الجيش الثالث المُحاصَرة. فهل يطلق الإسرائيليون النار على القوَّات السوفييتية في مثل هذه الظروف؟ وإذا حدث ذلك فسيجد السوفييت أنفسهم مضطرين للرد على نطاق أوسع. وإذا لم يفعلوا ذلك فإن الهيبة السوفييتية ستكتسب دفعة قوية، في كل لحظة من لحظات العلاقات الأمريكيَّة ـ العربية.

توصل كيسينجر والمشاركون الآخرون في اجتماع مجلس الأمن القومي إلىٰ استنتاجين: ينبغي ألا يتوهم السوفييت، الذين لم يأخذوا التحذيرات

(64) لوحظت لأول مرة في 11 تشرين الأول/ أكتوبر حالة الاستنفار القصوى لسبع فرق سوفييتية محمولة جواً. وتم تغيير حالة الاستنفار في 23 تشرين الأول/ أكتوبر. انظر «Secretary of Defense Schlesinger's News Conference of October 26,» PP. 617-26.

الأَمريكيَّة بشأن إدخال قوَّاتهم على محمل الجد، أن الولايات المتحدة ليس لديها القدرة والإرادة على الردّ على أي تحرك قد يقومون به. وتأكيداً لهذه القدرة تقرّر وضع القوَّات العسكرية الأَمريكيَّة في الدرجة الثالثة من الاستنفار، مما كان يعني إلغاء الإجازات وتعزيز الاستعداد. وكذلك وُضعت القيادة الجوية الاستراتيجية في حالة استنفار أعلى من الدرجة الرابعة. ولم تكن هناك حاجة لإحداث تغيير بالنسبة للأسطول السادس الذي كان في حالة استنفار بالفعل من الدرجة الثالثة. وبالرغم من أن هذه الاستعدادات كانت أقل من التحضير لحرب، إلاَّ أن هذه التحركات كانت واضحة بما يكفي، لإظهار الإصرار الأَمريكي على العمل عند الضرورة أمام السوفييت. ولكن إذا أمكن حل المسألة بسرعة فسيكون من السهل تغيير حالة الإنذار[65].

كان كيسينجر حريصاً، كما كان الحال منذ بداية الأَزمة، على ألا تبدو فضيحة ووترغيت وكأنَّها تعطل مسيرة السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة. وكان يرى أن زيادة النشاط في هذا المجال أفضل من تقليصه. ولتأكيد معنى الاستنفار بعث كيسينجر برسالة إلىٰ بريجينيف، باسم الرئيس نيكسون، يقول فيها إن إرسال قوَّات سوفييتية إلىٰ الشرق الأَوسط سوف يُعتبر خرقاً للمادة الثانية من اتفاق منع الحرب النووية الموقع في 22 حزيران / يونيو 1973.

قبل التهديد السوفييتي بالتدخل، كان كيسينجر وزملاؤه يرون أن على

---

(65) كان من الاعتبارات الأخرى التي ربما تكون قد أسهمت في قرار إعلان الاستنفار العالمي وصول تقرير من المخابرات مساء 24 تشرين الأول/ أكتوبر بأن سفينة سوفييتية مشتبه في أمرها أطلقت عادم النيوترون أثناء عبورها مضيق البوسفور في 22 تشرين الأول/ أكتوبر وهي في طريقها إلىٰ الإسكندرية. واعتقد البعض أن ذلك قد يشير إلىٰ أن السوفييت يدخلون رؤوساً نووية إلىٰ مصر. ويشير كيسنجر في Years of Upheaval, P. 584 إلىٰ بعض المؤشرات المنذرة بالسوء»، ولعله كان يومىء إلىٰ هذا التقرير. انظر أيضا «Secretary Schlesinger's News Conference of October 26»; Raymond L. Garthoff, Détente and Confrontation: American-Soviet Relations form Nixon to Reagan (Brookings, 1985), P. 378; and Dowty. Middle East Crisis, P. 275.

إسرائيل أن توقف تقدمها على الجبهة المصرية. وأُبلغ الإسرائيليون بعبارات واضحة أن الولايات المتحدة، لن تسمح بتدمير الجيش الثالث[66]. ولكن التهديد السوفييتي قد خلق عاملاً جديداً، ويبدو أن كيسينجر قد أشار إلىٰ الإسرائيليين بأن عليهم الاستعداد للتحرّك ضد الجيش الثالث، إذا ما حاولت القوّات السوفييتية التدخّل[67].

وفي صباح 25 تشرين الأول/ أكتوبر، فيما كان معظم الأَمريكيين يقفون لأول مرة على الاستنفار ويتساءلون عن معناه[68]، التقى كيسينجر مع نيكسون وأجريا حديثاً مطولاً[69]. وكانت قد توفرت الآن بعض المعلومات الجديدة. فقد ورد من السَّادات المزيد من الرسائل التي تنفي خرق وقف النار، وتؤكد ثانية على الحاجة إلىٰ قوّات أَمريكيَّة وسوفييتية لفرض وقف إطلاق النَّار. وبالإضافة إلىٰ ذلك كانت عدة سفن من الأسطول السوفييتي، بما فيها سفينة

---

(66) نقل عن ديان بعد ذلك قوله إن كيسينجر هدَّد بإرسال قوات أَمريكيَّة لإعادة تزويد قوَّات الجيش الثالث بالمؤن. وأكَّد إسرائيليون آخرون بما في ذلك إيبان بأن كيسينجر قال إن السوفييت قد يحاولون توفير الإمدادات للقوَّات المصرية. ويبدو أن القول الأخير أقرب إلىٰ المعقولية، ولعل ذلك بإضافة تهديد ضمني بعدم مساعدة الإسرائيليين إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة مع السوفييت بشأن مصير قوات الجيش الثالث. وقد نُوقش هذا في: Theodore Draper, «The United States and Israel: Tilt in the Ilgs ,» Commentary, vol. 59 (April 1975), PP. 29-45 and the exchange of letters in Commentary, vol 60 (September 1975), PP. 18-24. وجاء في Moshe Dayan, Moshe Dayan Story of My Life (William Morrow, 1976), P. 544 أن الأَمريكيين «تقريباً وجَّهوا للإسرائيليين إنذار بالسماح بمرور المؤن إلىٰ قوات الجيش الثالث، ولكنَّه لا يدخل في التفاصيل.

(67) انظر Richard Ned Lebow and Janice Gross Stein, «We All Lost the Cold War,» draft, April 1992 chap. 12, P. 21. (تنشره دار جامعة برنستون في 1994).

(68) طبقاً للمصدر السابق، الفصل 12، رفض كيسينجر التعليق عندما سئل في حديث معه عما إذا كان نيكسون، وفق الاعتقاد السائد، عاجزاً عن المشاركة في الاجتماع لأنه أفرط في الشراب ذلك المساء.

(69) Kissinger, Years of Upheaval. P. 593 كان ذلك هو الاجتماع الأول الذي علم فيه نيكسون بالإجراءات التي اتّخذت في الليلة السابقة.

الإنزال البرمائية، تتجه إلىٰ مصر. كما وردت معلومة جزئية استخبارية، تفيد بأن قوّات برية سوڤييتية توشك بالوصول إلىٰ القاهرة. وقد تبيَّن في الواقع أنهم المراقبون السبعون مع مترجميهم، الذين أرسلهم السوڤييت إلىٰ القاهرة، ولكن العدد آنذاك لم يكن معروفاً. ويتبين بالنتيجة أن السوڤييت كانوا يتحرَّكون نحو المواجهة، وأن المصريين كانوا يشجعون ذلك. أمر الرئيس كيسينجر إعداد خطة لإرسال قوّات أَمريكيَّة إلىٰ الشرق الأَوسط في حال تدخّل السوڤييت. ومن شأن ذلك، على الأقل، أن يوفِّر وسيلة لإخراج القوّات السوڤييتية من المنطقة بعد أن تخمد الأَزمة. كما طلب نيكسون من كيسينجر أن يعقد مؤتمراً صحفياً لشرح التحركات الأَمريكيَّة.

وبعد الظهيرة بقليل ظهر كيسينجر أمام رجال الصحافة في قاعة الاجتماعات بوزارة الخارجيَّة. وأخذ يتحدث بنبرة رزينة ولكنها متحفّظة، عن المراحل المختلفة للأَزمة وتطور سياسة الولايات المتحدة. وكان عرضاً رائعاً، وواحداً من أفضل عروضه تأثيراً.

فقد تحدث، بعد استعراض الجهود الدبلوماسيَّة التي بُذلت خلال الأسبوعين الأولين للأَزمة، عن وقف إطلاق النَّار، ووضع القوّات في حالة استنفار. وأكَّد باسم الرئيس رفض الولايات المتحدة إرسال قوّات أَمريكيَّة ـ سوڤييتية إلىٰ الشرق الأَوسط. كما عارض بشدَّة تحرّكاً سوڤييتياً وحيد الجانب نحو المنطقة. ثم استعرض احتمالات تسوية سلمية، ووصفها بأنَّها «واعدة تماماً»، وتحدَّث عن الإِسرائيليين، والعرب وحتى السوڤييت بعبارات ودِّيَّة.

أكَّد كيسينجر في ردّه على عدة أسئلة تتعلَّق بالانفراج الأَمريكي ـ السوڤييتي على الطبيعة التناقضية المعقدة لهذه العلاقة، ولكنه رفض إدانة السوڤييت بخرق روح الانفراج. وعندما سُئل كيسينجر ما إذا كان الاستنفار قد أُعلن بسبب الأَزمة الداخلية الأَمريكيَّة، أجاب كيسينجر بالنفي بنبرة أقرب إلىٰ الأسف منها إلىٰ الغضب، ولكنه أضاف بأن السوڤييت ربما تصرّفوا على ذلك

النحو من الجرأة، بسبب تداعي موقف الرئيس الأَمريكي. وقال: «لا يمكن أن تكون هناك أَزمة سلطة في مجتمع، وتستمر بضعة شهور بدون دفع الثمن في جانب ما».

حدّد كيسينجر في ملاحظاته الاستنتاجية عدة مبادىء لسياسة أَمريكيَّة جديدة تجاه الصراع العربي ـ الإِسرائيلي وقال:

إن موقفنا هو.. أن الظروف التي أفرزت هذه الحرب كانت غير مقبولة للدول العربية على نحو واضح، وأنَّه لا بد في عمليَّة التفاوض من تقديم تنازلات جوهرية.

والمشكلة هي في الربط ما بين اهتمام العرب بالسيادة على أَراضيهم، واهتمام إِسرائيل بحدود آمنة.

ونحن نعتقد أن عملية التفاوض بين الفرقاء هي جزء أساسي من ذلك[70].

وبعد ساعة أصدر مجلس الأَمن القرار 340، الداعي إِلىٰ وقف فوري وتام لإطلاق النَّار عند خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر، وإرسال قوة معزّزة من مراقبي الأُمم المتَّحدة، وتشكيل قوة طوارىء، تابعة للأُمم المتَّحدة تتشكّل من

---

(70) انظر «Secretary Kissinger's News Conference of October 25,» Department of State Bulletin, vol 69 (November 12, 1973), PP. 585-94 للحصول على النص الكامل.
وفي اليوم التالي، 26 تشرين الأول/ أكتوبر عقد نيكسون مؤتمراً صحفياً ناقش فيه الاستنفار، وقال: «لقد حصلنا على معلومات قادتنا إِلىٰ الاعتقاد بأن الاتّحاد السوفييتي يعتزم إرسال قوة كبيرة جداً إِلىٰ الشرق الأَوسط، قوة عسكرية... وعندما تلقيت تلك المعلومات أصدرت أوامري، بعد منتصف الليل بقليل في صباح الخميس، باستنفار جميع القوات الأَمريكيَّة في سائر أنحاء العالم. كان ذلك استنفاراً وقائياً. وكان الغرض منه إبلاغ الاتّحاد السوفييتي أننا لا يمكننا قبول أي تحرّك منفرد من جانبهم بتحريك قوات عسكرية إِلىٰ الشرق الأَوسط.. وأن احتمال سلام دائم هو أفضل مما كان على مدى عشرين عاماً.. وبدون الانفراج، فربما كنا دخلنا في نزاع هائل في الشرق الأَوسط. وبفضل الانفراج تجنبنا ذلك «The President's News Conference of October 26, 1973,: Weekly» Compilation of Presidential Documents, vol. 9 (October 29, 1973), PP. 1287-94.

الدول غير دائمة العضوية في مجلس الأَمن، وتنفيذ القرار 338. وصمد وقف إطلاق النَّار هذه المرة، وانتهت أخيراً الحرب العربية ـ الإِسرائيلية الرابعة. وأوشكت بداية فصل جديد للدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة يكون فيها كيسينجر الفارس المجلى.

استنتاجات

تأثَّرت السياسة الأَمريكيَّة تجاه النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي بصورة جوهرية بأحداث حرب تشرين/ أكتوبر 1973. فقبل اندلاع القتال كان يُعتقد على نطاق واسع في واشنطن، أن الاستقرار في الشرق الأَوسط، لا يضمنه إِلاَّ التفوّق العسكري الإِسرائيلي، وأن النّفط العربي لا يمكن أن يُستخدم بفعالية للضغط على الغرب؛ وأن السَّادات غير مهتم جدياً بتسوية سلمية مع إِسرائيل، وأن النفوذ السوفييتي في المنطقة قد وصل إِلىٰ مداه. وكان الوضع في الشرق الأَوسط يثير القلق، ولكن ليس إِلىٰ حد الإزعاج. وكانت المبادرات الدبلوماسيَّة ترد في التفكير، ولكن دون شعور بالعجلة أَو بتوقعات للنجاح.

من الخطأ الاعتقاد أن الولايات المتحدة تحوَّلت من سياسة موالية لإِسرائيل، إِلىٰ سياسة موالية للعرب نتيجة لحرب تشرين/ أكتوبر. فقد كان للتغيرات التي حدثت بالفعل خلال دقيقة وأبعاد كثيرة، تجاوز مجرد الانقسام ما بين العرب وإِسرائيل. ومع هذا فقد تحدّت الحرب الكثير من الافتراضات الأساسية عند صانعي السياسة في الولايات المتحدة، والتي كان لها دور مركزي في سياسة ما قبل الحرب.

أولاً، إن القوة العسكرية الإِسرائيلية لم تضمن الاستقرار كما كان متوقعاً بعد 1967. «فالدرس» الذي تعزز في أَزمة أيلول/ سبتمبر 1970، قد انهار في 6 تشرين الأول/ أكتوبر. وهذا لا يعني بالطبع أن التوازن العسكري ليس مهماً. فالمراحل التالية للحرب أظهرت بوضوح، أن القوة العسكرية مهمة إِلىٰ حد

كبير. ولكن القوة العسكرية وحدها، لن تقود إلىٰ تسوية سياسية كما كان يأمل جونسون عام 1967.

ثانياً، نسفت حرب تشرين/ أكتوبر الاعتقاد، بأن الانفراج الأَمريكي ـ الروسي سوف يساعد في تقليص خطر النِّزاعات الإقليمية. ومع أن نيكسون وكيسينجر وشلسينغر، قد أكّدوا جميعهم أن الانفراج كان مساعداً في حل الأَزمة، فإنَّهم كانوا يعون حقاً أن القوَّتين العظميين، لم يكن بوسعهما البقاء بمنأى عن نزاع الشرق الأَوسط. فكل طرف كان ملتزماً بعمق بألاَّ يسمح لأصدقائه أن يكونوا ضحية روح الانفراج. وعند الاختبار كانت المصالح المحلية المحسوسة تنتصر على المفاهيم العالمية المجردة. وهذا لا يعني أن الانفراج كان وهمياً أَو خطيراً، بل كان محدود الأبعاد. فالمواجهة بين القوى العظمى ظلَّت احتمالاً قائماً في عصر الانفراج والمفاوضات، وهذا ما كان الشاغل الأكبر لصانعي القرارات. وقد أكَّدت أحداث 24 ـ 25 تشرين الأول/ أكتوبر أسوأ مخاوفهم.

ثالثاً، دحضت الحرب الموقف السائد لدى صانعي السياسة تجاه العالم العربي. فبالرغم من الإنجازات العسكرية الإِسرائيلية المشهودة على كلا الجبهتين، فإن المصريين والسوريين قد قاتلوا ببسالة على نحو واضح. كما أنَّهم حقَّقوا مفاجأة في بداية الهجوم، والأكثر من ذلك أن درجة التضامن العربي كانت مؤثرة، كما كان استخدام سلاح النّفط حسن التنسيق مع التحركات الدبلوماسيَّة والعسكرية، ولهجة الاعتدال في الاتصالات العامة والخاصة والتي كانت موضع ترحيب، جاءت مخالفة لما كان سائداً في عام 1967. وكان السَّادات على نحو خاص مخلصاً في رغبته في العمل مع نيكسون، وكيسينجر من أجل التسوية الدبلوماسيَّة ما بعد انتهاء الأعمال الحربية. وقد شكَّل ذلك عنصراً جدياً ومهمّاً للغاية.

رابعاً، وجد المسؤولون الأَمريكيون، وخاصة كيسينجر، أنفسهم بأن

عليهم أن يتعلّموا اقتصاديات النفط بوصفها جزءاً من استراتيجية دولية. فكيسينجر لم يكن يلقي بالاً إلىٰ قضايا النّفط قبل أَزمة تشرين/ أكتوبر. وأمضى كيسينجر والآخرون أوقاتاً عصيبة ما بين آثار الحظر التي كانت واضحة للعيان، وإن لم تكن بالغة الأهمية، وبين خفض الإنتاج الذي أدَّى إلىٰ ارتفاع مثير للأسعار. ولو كان نيكسون وكيسينجر، أكثر دقَّة في الإحساس بهذه القضايا، لكانا أكثر تحفّظاً في معالجتهما لصفقة المعونة العسكرية لإسرائيل والبالغة 2,2 بليون دولار، وربما أعلنا عنها بعد انتهاء المعركة وليس في معمعانها. وعلى أية حال فإن جانباً كبيراً من الدبلوماسيَّة الخاصة بالنِّزاع العربي ـ الإسرائيلي دار تحت ظل سلاح النّفط العربي، الذي لم يفرض شعوراً بالإلحاح فحسب، بل أثار أيضاً شبح الابتزاز.

سنجد أن الولايات المتحدة قد أخذت تكرّس منذ ذلك الحين اهتماماً أكبر بالشرق الأَوسط، الذي غدا في قمة أولويات نيكسون وكيسينجر. كما أخذت تحاول بوعي كامل تحسين علاقاتها مع الدول العربية الرئيسية، وخاصة مصر. وسيكون هذا الجهد العنصر الأول في الاستراتيجية الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة الجديدة، وهو ما كان مفقوداً على نحو واضح قبل تشرين/ أكتوبر 1973. وشعر كل من الرجلين أنَّهما يستطيعان خطب ودّ العرب، دون التضحية بالعلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية. وكانا يريان في الواقع أن قوة العلاقة الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية، وما يوفِّره ذلك من نفوذ واضح لواشنطن على السياسة الإسرائيلية، سيكون له تأثيره على العرب، ويقنعهم بأن الولايات المتحدة تمتلك غالبية الأوراق الدبلوماسيَّة بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وإذا كان السوفييت يستطيعون تقديم السِّلاح فإن الولايات المتحدة قادرة على المساعدة في استعادة الأَراضي، إذا ما كان العرب مستعدين لتقديم التنازلات الملائمة من جانبهم، في إطار مفاوضات السلام.

هذا التحول الذي أحدثته حرب تشرين/ أكتوبر في السياسة، لا يقل

أهمية عن التحول الذي نجم عن أَزمة الأردن عام 1970. وإذا كانت نتيجة أَزمة الأردن سياسة غير فعَّالة همّها الحفاظ على الوضع الراهن، فإن نتيجة أَزمة حرب تشرين/ أكتوبر 1973، ذات مقاربة أكثر فعالية بكثير، تهدف إِلىٰ إحداث تبدل جوهري. فلأول مرة تكرس الولايات المتحدة مواردها الدبلوماسيَّة العليا، لمواصلة البحث عن تسوية للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي.

ونظراً لأهمية ما حدث من تغيير في السياسة أثناء حرب تشرين/ أكتوبر 1973، فإن المرء يجد نفسه منجذباً إِلىٰ البحث عن تفسيرات لها ضمن إطار السياسة الداخلية أَو البيروقراطية، أَو في التكوين النفسي للأشخاص المعنيين. لقد كانت ووترغيت وأَزمة الطاقة موضوعين دائمين طوال الأَزمة. وكان كل من نيكسون وكيسينجر، يتمتع بشخصية قوية على نحو غير عادي.

كثيراً ما ارتبطت السياسة الداخلية بطُرُق معقَّدة بالسياسة الخارجيَّة، ومما لا شكّ فيه أن نيكسون وكيسينجر، قد أخذا ذلك في الحسبان عند النظر في الخيارات السياسية. بيد أن القرارات الأساسية في الأَزمة ـ اقتراحات وقف إطلاق النَّار، والجسر الجوي إِلىٰ إِسرائيل، وإعلان الاستنفار ـ لم تكن استجابة لدواع داخلية. فالجماعات الموالية لإِسرائيل لم تكن مسؤولة عن قرار إعادة تسليح إِسرائيل، وهذا ما يرجع بالدرجة الأولى إِلىٰ مهارة كيسينجر في إقناع السفير الإِسرائيلي «بعدم إطلاق العنان» لمؤيدي إِسرائيل. والجماعات الموالية للعرب، وشركات النّفط لم تضطلع بأي دور، فقرار نيكسون بالضغط على إِسرائيل لقبول وقف إطلاق النَّار يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر، أَو لإنقاذ قوات الجيش الثالث. وكذلك فإن ووترغيت لم يكن لها شأن في إعلان الاستنفار العسكري في 24 ـ 25 تشرين الأول/ أكتوبر.

تجعل فترات الأَزمات بصورة خاصة، صانعي السياسة بعيدين عن تأثير الضغوط الداخلية. إذ أن القرارات كثيراً ما تُتّخذ على وجه السرعة، وقبل أن يستطيع الرأي العام أن يتحرَّك. كما أن التكتم على المعلومات يحرم جماعات

المصالح من وسائل العمل المؤثّر. فالمخاطر جسيمة، والرأي العام يميل إلىٰ احترام سلطة الرئيس، حتى عندما تتعرَّض هذه السلطة للضعف كما كان الحال بالنسبة لنيكسون.

ثمّة مقولة كانت تتردَّد في تعليقات كيسينجر: ينبغي ألاّ تستخلص بقية العالم أن أَزمة ووترغيت قد أضعفت قدرة الرئيس، على إدارة السياسة الخارجيَّة. قد يكون حجم الجسر الجوي إلىٰ إسرائيل، وضخامة فاتورة المساعدة الخاصة بالأَسلحة إلىٰ إسرائيل، ومدى الاستنفار العسكري الأَمريكي، عوامل لها صلة جزئية بهذه الرغبة في الظهور بمظهر القوة والحسم. بيد أن القرار الأساسي، على أيَّة حال، لم يكن نابعاً من أن الخوف من ووترغيت قد دفع بالدول الأخرى إلىٰ التقليل من شأن الولايات المتحدة. لا بل إن هذه القرارات، على النقيض من ذلك، جاءت رداً على أحداث خارجيَّة كانت تطلَّب تحركاً عاجلاً. وكان سلوك هذا المسار بوجود قضية ووترغيت أَو عدمه، سيظل هو نفسه.

من بين القرارات المركزية التي اتخذت أثناء الأَزمة ثلاثة قرارات كانت موضع توافق: الأول، عدم دفع إسرائيل إلىٰ اليأس، والثاني أن السَّادات ينبغي ألاّ تُهان كرامته، والثالث أن الولايات المتحدة، وليس الاتّحاد السوفييتي، هي التي ستتبوأ مكان الصدارة عندما تنتهي الأَزمة. هذه الآراء كانت في خلفية أي من القرارات الكبرى التي اتخذها نيكسون وكيسينجر.

أكدت بعض تحليلات السياسة الأَمريكيَّة أثناء الحرب، على أهمية العوامل البيروقراطية أَو الشخصية. فقد ورد في بعض المطالعات أن شليسينغر ونائب وزير الدفاع وليام كليمينتس، كانا يعارضان الجسر الجوي لإسرائيل، في حين ورد في مطالعات أخرى أن كيسينجر هو المسؤول[71]. وقد تكون

(71) أفرزت المناقشات حول دور كيسينجر في حرب تشرين كمّا هائلاً من الكتابات المتحيزة، فإن كالب وكالب في كتابهما Kalb and Kalb, Kissinger, يقفان إلىٰ جانب كيسينجر، =

الأسباب المعلّلة ترتبط بموقف المؤسسات. فالعسكريون يسيئهم أن يروا أسلحة تنتزع من وحدات أَمريكيَّة عاملة وترسل إلىٰ إسرائيل، وقد ترتبط هذه المواقف بمصالح اقتصادية ـ فقد كان لكليمنتس ارتباطات بصناعة النّفط، أَو قد تعزى إلىٰ طبيعة الأشخاص؛ فكيسينجر ونيكسون قد خُدعا بنجاح الانفراج، وأخفقا بالتالي في تقدير الطُّرق التي كان يناور فيها السوفييت لتحويل الوضع لصالحهم.

بيد أن مثل هذه المنظورات لا تفسِّر سبب توافق أشخاص ذوي خلفيات متباينة على جميع القرارات الكبرى. فكيسينجر وشليسينغر، مهما كانت علاقاتهما اللاحقة، لم يختلفا حول السياسة الأساسية في حرب تشرين/ أكتوبر. ومهما كانت مشاعر كليمنتس الشخصية تجاه إسرائيل، فهو قد ساعد في عملية الجسر الجوي إليها، على نحو بالغ الكفاءة عندما صدرت الأوامر بذلك. وغالباً ما كانت تحتجب السياسة البيروقراطية، بسبب سيطرة كيسينجر المُحكمة على آلية اتخاذ القرار. كما أن التغييرات في السياسة لم تكن نتيجة استبدال كوادر تؤمن بمجموعة من الأفكار، بآخرين يملكون قناعات مختلفة.

= ويصوران شليزنجر خطأ بوصفه العقبة في طريق الجسر الجوي إلىٰ إسرائيل. ويشير Tab Szulc, «Is He Indispensable? Answers to the Kissinger Riddle» New Yourk. July 1, 1974, PP. 33-39 إلىٰ كيسينجر، بإصبع الاتهام بدلاً من ذلك ويحاول «Luttwak and Laqueur, Kissinger and the Yom Kippur War» وضع الأمر في نصابه، ولكنه يتغاضى عن أهمية جهود وقف إطلاق النار في الفترة من 10 إلىٰ 13 تشرين الأول/ أكتوبر. أما Gil Carl AIROY The Kissinger Experience: american Policy in the Middle East (Horizon Press, 1975) فيعد مجادلاً عنيفاً معادياً لكيسينجر بصورة مريرة. لكن مؤلف Golan, Secret Conversations of Kissinger أكثر علماً ببواطن الأمور ولكنَّه معاد بنفس القدر لكيسينجر. ويتعاطف معه Edware R. F. Sheehan, The Arabs, Israelis, and Kissinger: Secret History of American Diplomacy in the Middle East (Reader's Digest Press, 1976). وقد تمكّن عدد قليل جداً من الكتّاب من تحديد دور نيكسون في تشكيل السياسة الأمريكيَّة إبان الحرب، أَو التفرقة بين جوانب السياسة التي تستهدف المحافظة على الانفراج وتلك التي تهدف إلىٰ تنمية العلاقة الجديدة مع مصر.

إذ بقي المسؤولون أنفسهم في مواقعهم يتمتعون بالسلطة النسبية ذاتها، قبل الحرب وبعدها. والفرق أنَّهم باتوا ينظرون الآن إلىٰ الوضع بطريقة مختلفة.

وكان مفتاح الإجماع بين كبار الرسميين، قدرة كيسينجر على الاعتماد على سلطة الرئيس ـ وعلى حقيقة أن كبار المسؤولين كانوا يتَّفقون بصورة عامة، على ما تكتنفه الأَزمة من مخاطر. وفي بعض الأحيان كان نيكسون يصدر أوامره مباشرة، ولكن حتى في حضوره كان من الواضح أن كيسينجر يتحدَّث باسمه. وكان الرئيس يشارك في القرارات الأساسية ولو عن بُعد أحياناً. وعندما كان كيسينجر يقول: «الرئيس يريد» أَو «الرئيس يأمر» لم يكن أحد من بين كبار المسؤولين يميل إلىٰ المناقشة. والأكثر من ذلك أن كيسينجر وحده ـ بالإِضافة إلىٰ هيغ الذي كان كثيراً ما يتولَّى نقل الرسائل بين كيسينجر والرئيس ـ كان يتمتع بحرية الاتصال المباشر والمستمر بالرئيس[72].

وقد أظهرت السياسة الأَمريكيَّة خلال حرب تشرين/ أكتوبر 1973 مرة ثانية، مركزية سلطة الرئيس في إطلاق نار السياسة الخارجية، وخاصة في أوقات الأزمات. وفي هذه الحالة ينبغي أن يعتبر كيسينجر امتداداً للرئيس، نظراً لسعة هامش المسؤولية الذي كان يتمتع به. وكانت الرابطة التي تربط كيسينجر بالرئيس، وليس منصبه كوزير للخارجيَّة، هي التي تكفل القبول بصياغاته. ولو أن السياسات كانت أقل وضوحاً وتعقيداً لكان من المحتمل ظهور مقدار من

(72) تحوي المفكرة اليومية للرئيس سجلاً تفصيلياً لجميع المقابلات والمكالمات التليفونية. وطوال أيام الأزمة السبعة عشر التي قضاها كيسينجر في واشنطن أمضى في المتوسط أربعاً وثلاثين دقيقة كل يوم في لقاءات على انفراد مع نيكسون. أَو بحضور عدد قليل جداً من الأفراد (مع استبعاد اجتماعات مجلس الوزراء واللقاءات مع زعماء الكونغرس التي حضرها كيسينجر). وكانا بالإِضافة إلىٰ ذلك يتحدثان تليفونياً حوالي مرتين كل يوم، وتستغرق كل مكالمة في المتوسط ست دقائق. وإجمالاً، كان كيسينجر على اتصال مباشر مع الرئيس نحو ثلاثة أرباع الساعة كل يوم. أَو ما يقرب من ساعة يومياً إذا ما احتسبت الاجتماعات الموسعة. ولعل هيج بوصفه رئيساً لهيئة الموظفين كان يمضي وقتاً أطول مع نيكسون، ولكن جانباً كبيراً من ذلك لا بد أنَّه كان يتعلَّق بورطة ووترجيت.

الخلاف العلني داخل الجهاز البيروقراطي. ولكن سياسة نيكسون ـ كيسينجر كان من الممكن اعتبارها إما موالية للعرب، أَو موالية لإِسرائيل، إما موالية للانفراج، أَو معادية للسوفييت، تبعاً لما يبحث عنه المرء. وكان من المحتمل أن يوافق أولئك، الذين يعارضون عنصراً من عناصر السياسة، على مساندة عناصر أخرى. هذا التعقيد رفع كيسينجر إِلىٰ موقع القيادة.

عندما وصلت الأَزمة إِلىٰ نهايتها، كان للشرق الأَوسط بدون شك مركز الأولوية في السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة. وكانت علاقات الولايات المتحدة مع حلفائها قد تعرَّضت للضرر بسبب هذه الأَزمة، كما تعرَّض الانفراج للانتقاد، وباتت أَزمة الطاقة مرشحة لمزيد من الحدَّة. ولم يكن التقدم نحو تسوية عربية ـ إِسرائيلية سيحل جميع هذه المشكلات، ولكن الإخفاق في نزع الفتيل في الشرق الأَوسط، ما كان ليؤدي إِلاَّ إِلىٰ مزيد من تعقيدها. ومما يساوي ذلك في الأهمية، أن نيكسون وكيسينجر شعرا لأول مرَّة بوجود فرصة لتحقيق تقدّم باتجاه التسوية. فالعرب باتوا يتطلَّعون الآن إِلىٰ واشنطن، وليس إِلىٰ موسكو. كما بات الإِسرائيليون يعتمدون اعتماداً بالغاً على السِّلاح، والدعم المالي الأَمريكي، مما يعني النفوذ في الإطار الدبلوماسي المناسب. أما الرأي العام فهو مهيء لتأييد مبادرة أَمريكيَّة كبيرة، شريطة ألا تكون معادية لإِسرائيل، أَو تبدو استجابة لحظر النّفط العربي.

في الوقت الذي كان فيه وقف إطلاق النَّار سارياً، كانت الولايات المتحدة تستعد لجهد دبلوماسي جديد. ولن يكون هذا الجهد مماثلاً لخطة روجرز بوضعها الرسمي والقانوني، والإعداد لها من خلال مفاوضات أَمريكيَّة ـ سوفييتية، بل سيتم استبعاد السوفييت عن جوهر المفاوضات. فسجلهم أثناء الحرب لم يكن يوحي بالثقة. بأَنَّهم كانوا على استعداد للاضطلاع بدور نزيه في تسوية النِّزاع. كما أن السَّادات لم يكن راغباً في مشاركتهم. والأكثر من ذلك فلن تقدم خطة أَمريكيَّة للأطراف؛ إذ ستحاول الولايات المتحدة بدلاً من ذلك

الاضطلاع بدور الوسيط، تستنبط المقترحات من الأطراف، وتحاول تعديلها، ثم تضغط في النهاية من أجل الوصول إلىٰ حل وسط. وهذه العملية سوف تتحرك ببطء بدءاً من القضايا الملموسة ذات الأهمية الملحّة، والانتقال منها بعد ذلك إلىٰ المشكلات الأكثر أهمية، مثل طبيعة التسوية السلمية النهائية. والأهم من كل ذلك أن تبقى كل خطوة مستقلّة عن الخطوة التالية، وإلاّ فإن العملية كلها يستحيل أن تمشي في مسارها، كما سبق أن تبين للولايات المتحدة من خلال جهود التسوية المرحلية عام 1971.

عندما وضعت الحرب أوزارها. كان كيسينجر قد حزم أمره بشأن استراتيجيته الجديدة: دبلوماسيَّة الخطوة خطوة. وما عليه الآن سوى إقناع إسرائيل والعرب والسوڤييت والكونغرس والرأي العام الأَمريكي بمنحه الفرصة ليثبت نجاحه حيث فشل الآخرون. وقد أُتيحت الفرصة لكيسينجر على مدى الشهور الثمانية التالية لإظهار عناصر القوة، والقصور في مفهومه حول كيفية حل النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي.

الفصل

5

الخطوة خطوة: كيسينجر واتّفاقيات فضّ الاشتباك: 1974 ـ 1976

شهدت الشهور الثمانية التي تلت حرب تشرين/ أكتوبر 1973، انغماساً أَمريكياً لم يسبق له مثيل في البحث عن تسوية للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي. ولم يكن هنري كيسينجر، قبل أن يصبح وزيراً للخارجيَّة، قد وجَّه إِلاَّ اليسير من الجهد للقضايا المعقَّدة التي تفرق ما بين إِسرائيل وجيرانها العرب. كما أنه لم يتقدم كثيراً في همه لـ «أَزمة الطاقة»، والدور الذي يلعبه نفط الشرق الأَوسط في الاقتصاد الدولي. وكان خطر المواجهة بين القوتين العظميين، الناجم عن التوترات في الشرق الأَوسط، هو وحده القادر على إثارة اهتمامه الدائم بشؤون المنطقة. والآن وبنشوب حرب تشرين، كمثال حي للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي المتفجر، شرع كيسينجر بمساندة مطلقة من نيكسون، بالاضطلاع بدور صانع السَّلام، وقائد الأوركسترا، والوسيط، والمحفّز في مبادرة دبلوماسيَّة جديدة، تحمله مراراً إِلىٰ بلدان لم يسبق له زيارتها، والتعامل مع رجال دولة لم يكن يقيم لهم اعتباراً جدياً من قبل.

ورغم حرص الرئيس نيكسون على قيام بلاده بدور فعَّال في حل النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي، فقد كان يزداد انشغالاً بقاعدة التأييد الداخلي له، المتهاوية مع استمرار تكشف فضيحة ووترغيت[1]. وهذا ما أتاح لكيسينجر

(1) كان نيكسون أكثر ميلاً من كيسينجر إِلىٰ بحث القيام بدور أَمريكي فعَّال لفرض تسوية في المنطقة، ولم يكن يتردّد في الحديث عن الضغط على إِسرائيل. إِلاَّ أنه لم يكن قادراً أَو عازماً على المضي في هذه الآراء حتى النهاية.

مجالاً رحباً في رسم تفاصيل الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة، فهو يلجأ لنيكسون لإضفاء السلطة الرئاسية عند الضرورة، ويحيط الرئيس علماً بكل مرحلة، ويتجاهل توجيهاته أحياناً.

كان نيكسون يريد نتائج بالدرجة الأولى. وكان يخشى، على الصعيد الدولي، عواقب أن تستخلص الدول الأخرى أن السياسة الداخلية الأَمريكيَّة قد أضعفت قدرة الرئيس على العمل في ميدان الشؤون الخارجيَّة. أما على الصعيد الداخلي فقد كان يأمل أَن تساعده نجاحات السياسة الخارجيَّة على اجتياز أَزمة الثقة في حكمته وفي قيادته، والنابعة من طريقة معالجته لقضية ووترغيت.

صياغة استراتيجية أَمريكيَّة

أثناء العمليات الحربية في حرب تشرين/ أكتوبر عام 1973، وعد كل من نيكسون وكيسينجر بمبادرة دبلوماسيَّة أَمريكيَّة فعَّالة تهدف إِلىٰ «تنفيذ القرار 242» بعد انتهاء الحرب، ولكنَّهما رفضا باستمرار الوعد بأية نتائج محدّدة، على الرغم من توسلات السَّادات. وكرَّرا القول إن الولايات المتحدة ملتزمة بعملية، ولكن ليس بما تسفر عنه من نتائج. إذا تستطيع الإِدارة أن تضمن أنها ستبذل قصارى جهدها، ولكنَّها لا تستطيع أن تضمن انسحاب إِسرائيل من جميع الأَراضي العربية، أَو إعادة الحقوق الفلسطينية. ذلك أن الإقدام على ذلك سوف يستدعي انتقاداً داخلياً حاداً، فضلاً عن رفع آمال العرب إِلىٰ مستوى غير واقعي. وكان كيسينجر كثيراً ما يردِّد أنه يخشى من «رومانسية» العرب، ونفاذ صبرهم، ورغبتهم في الوصول إِلىٰ نتائج سريعة[2].

هذه الافتراضات الأولية التي صاغتها حرب تشرين/ أكتوبر، أضحت

---

(2) أعرب عن مخاوفه هذه لمحمد حسنين هيكل في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر بالقاهرة، طبقاً لرواية مطولة لهيكل عن محادثاته مع كيسينجر نشرت بجريدة «الأنوار» في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر وترجمت في «Interviews: Kissinger Meets Haikal,» Journal of Palestine Studies, vol. 3 (Winter 1974), PP. 210-15.

أُسس سياسة ما بعد الحرب. فمع إنجاز وقف إطلاق النار الهش في 24 تشرين الأول/ أكتوبر، شرع نيكسون وكيسينجر في تحديد الخطوط العامة لهذه السياسة. وسرعان ما برز عنصران أساسيَّان، أولهما أن الولايات المتحدة سوف تقوم بدور فعَّال، في محاولة حل النزاع العربي ـ الإسرائيلي. وخلافاً لتصرّف جونسون بعد 1967، وخلافاً لموقفهما بالذات بعد 1970، فقد شعرا الآن أن الوضع في الشرق الأَوسط، بات شديد التهديد للمصالح الأَمريكيَّة بحيث لا يمكن تجاهله، ولعل الأهم من ذلك توفّر فرصة لمبادرة أَمريكيَّة ناجحة[3].

وكما أدرك كيسينجر أثناء الحرب، فإن الجميع كانوا يتطلَّعون إلىٰ الولايات المتحدة. فهو يملك أوراق اللعبة، أَو هذا ما كان يؤمن به اللاعبون الرئيسيّون، وهو اعتقاد كانت له أهميته. فالإسرائيليون، الذين زادت عزلتهم الدولية أكثر من أي وقت مضى، كانوا في موقف حرج بسبب اعتمادهم الشديد على واشنطن بالسِّلاح والمعونة الاقتصادية والدعم الدبلوماسي. والعرب الذين أدركوا إمكانات النفوذ الأَمريكي لدى إسرائيل، كانوا توَّاقين إلىٰ تحويل هذه الإمكانات لصالحهم. وكما ذكر كيسينجر وآخرون فإن السوفييت يستطيعون تقديم السِّلاح للعرب، ولكن الولايات المتحدة وحدها هي القادرة على دفع إسرائيل لتقديم تنازلات تتعلَّق بالأَرض عن طريق المفاوضات[4].

وستحاول الاستراتيجية الأَمريكيَّة الجديدة، ثانياً، تجنّب الربط ما بين الخطوات الدبلوماسيَّة الأولية، وطبيعة اتِّفاقية السَّلام النهائية. فكيسينجر لم يكن

---

(3) انظر Interviews: Kissinger Meets Haikal, PP. 211-12 وورد أن كيسينجر أخبر هيكل أنه لم يتدخّل في أَزمة الشرق الأَوسط قبل تشرين الأول/ أكتوبر 1973 لخوفه من الفشل، حيث لم يكن تحت سيطرته ما يكفي من عناصر الموقف ليضمن النجاح.

(4) المصدر السابق، ص 214. «بإمكان الاتّحاد السوفييتي بأن يعطيكم سلاحاً، ولكن الولايات المتّحدة بإمكانها أن تعطيكم حلاً عادلاً يعيد إليكم أراضيكم، خاصة وأنكم (أي العرب) استطعتم حقاً تغيير الموقف في الشرق الأَوسط.. فالسياسة في عصرنا ليست مسألة مشاعر وإنما هي حقائق القوة».

مرتاحاً «لخطة روجرز» لعام 1969، كما لم يكن شديد الحرص على قرار الأُمم المتَّحدة 242. فالبيانات العامَّة، المتعلِّقة بالمبادىء، قد ترضي هذا الجانب، أَو ذاك نفسياً، لكنها لا تساعد في رأيه كثيراً على دفع العمليَّة الدبلوماسيَّة. إذ هي، على النقيض من ذلك، تسمح لكل جانب بالتركيز على ما يرفضه في تلك الخطة المجردة، بدلاً من التركيز على القضايا المحسوسة في الوقت الراهن. وإذا كان الدور الأَمريكي النشيط في المجال الدبلوماسي، بمثابة إشارة للعرب على سياسة أَمريكيَّة أكثر توازناً، فإن رفض واشنطن ربط الخطوات الأولى بالنتائج النهائية، يرمي إِلىٰ طمأنة إِسرائيل بأنه لن يجري فرض تسوية ضد إرادتها.

ومن أجل ضمان استمرار الدور الأَمريكي النشيط والفعَّال، في الدبلوماسيَّة المتطورة للنزاع العربي ـ الإِسرائيلي، شعر كيسينجر بضرورة تخفيف الضغوط الدولية الناجمة عن حرب تشرين/ أكتوبر 1973. لقد نجح الهجوم العربي في حشد التأييد الأوروبي والياباني، وتأييد العالم الثالث من أجل تسوية سريعة وفقاً للشروط العربية بشكل أساسي. وكان في الإمكان الاعتماد على تأييد الأمم المتحدة لمصر وسورية والفلسطينيين. كما أن السوفييت ملتزمون بالموقف العربي مع بعض الإضرار بالانفراج والعلاقات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية. وجاء حظر النفط ليضيف مصدراً جديداً للتوتر، فضلاً عن الخطر المستمر من انهيار وقف إطلاق النَّار.

لم يكن كيسينجر مستعداً للعمل تحت وطأة هذه الضغوط مجتمعة، رغم إعجابه بالطريقة التي نجح فيها السَّادات في ترتيب قوَّاته. لذا فقد كان عليه أن يحاول إقناع حلفاء أَمريكا في إطلاق يديه، وأن يعمد إِلىٰ عزل السوفييت عن جوهر المفاوضات، وأن يبذل جهده لرفع الحظر عن النّفط، وحشد الدعم للمواقف العربية «المعتدلة» على حساب المواقف «الراديكالية»، وأن يحاول تجنّب النِّزاع العلني مع إِسرائيل، والذي قد يؤدي إِلىٰ انعكاسات داخلية

خطيرة، وأن يعمل على كسب الكونغرس، والصحافة لتعزيز دوره الدبلوماسي. وكان الجانب الأكبر من مناورات كيسينجر التاكتيكية في الأشهر اللاحقة، يرمي إلىٰ تمكين الولايات المتحدة من العمل بعيداً عن الضغوط المتعددة، المحلية والدولية، التي أوجدتها حرب تشرين/ أكتوبر. ولقد استطاع كيسينجر أن يحقّق نجاحاً مشهوداً.

رأى كيسينجر أن الإدارات السابقة قد أخطأت، عندما اعتبرت أن الخيارات المتاحة أمامها، هي أن تكون موالية لإسرائيل، أو موالية للعرب. وكان يعتقد أن العلاقات الأمريكيَّة الخاصة مع إسرائيل، هي التي أجبرت العرب على التعامل مع الولايات المتحدة في الميدان الدبلوماسي. فالقوَّة، وليس العاطفة، هي ما يُعتقد به. والصعوبة بالطبع هي في جعل العرب مستمرين في تطلعهم إلىٰ الولايات المتحدة، وأن تعطيهم العملية الدبلوماسيَّة آمالاً أفضل مما قد توفِّره جولة أخرى من الحرب. فإذا كانت الحرب هي الخيار، فإن الاتّحاد السوفييتي قادر أن يقدِّم لهم أكثر مما تقدِّم الولايات المتحدة. وبالتالي فإن التقدّم نحو التسوية شرط أولي مطلق للمحافظة على ثقة العرب. وهذا يعني، على أقل تقدير، إعادة الأراضي؛ كما يتضمن شيئاً من التحرّك الفعلي نحو معالجة المظالم التي تعرّض لها الفلسطينيون. وهذا يعني بالنسبة للولايات المتحدة، أن تقدِّم إسرائيل تنازلات حتى تستمر الدبلوماسيَّة في عملها. وقد تحاول الولايات المتحدة، حيثما أمكن ذلك، انتزاع تنازلات عربية مقابلة، ولكن تحقيق ذلك لم يكن بالأمر الهيِّن، في ضوء نوعية القضايا المُتَنَازَع عليها. ولهذا فإن بُعداً إضافياً للدبلوماسيَّة الأمريكيَّة سوف يتمثَّل في تقديم المساعدة لإسرائيل ـ مع تهديد ضمني بمنعها إذا دعت الظروف ـ وفي تقديم وعود بالمساعدة إلىٰ مصر وسورية والأردن، لتوثيق العلاقات الثنائية من خلال طرق أخرى، غير تقديم التنازلات الإسرائيلية.

اعتُبرت العلاقات الأمريكيَّة ـ المصرية، بمثابة حجر الزاوية للسياسة

الأَمريكيَّة الجديدة في العالم العربي، مع قيام كل من الأردن والسعودية بدورين مساندين أساسيين لصالح «الاعتدال» العربي[5]. ولم يدرك كيسينجر أهمية سورية إلاَّ بالتدريج، وكان أكثر عزوفاً عن أن يعترف للفلسطينيين بدور الشريك في عمليَّة التسوية. ففي هذه اللحظة كانت العلاقة الأَمريكيَّة ـ المصريَّة، التي اتّضحت أثناء الحرب، هي التي تحظى بالقدر الأوفر من اهتمام نيكسون وكيسينجر.

كان دور الاتّحاد السوفييتي في الشرق الأَوسط، يشغل بال نيكسون وكيسينجر منذ زمن طويل. وبعد أن كانا يبالغان في وقت ما في تقدير حجم النفوذ السوفييتي في العالم العربي، أصبحا الآن ميّالين إلىٰ تقليص الدور السوفييتي في عملية التسوية. فالدور السوفييتي في حرب تشرين/ أكتوبر، وإن لم يكن مناقضاً تماماً لروح الانفراج، إلاَّ أنه لم يكن، مشجعاً[6]. كما لم تكن الجهود الأَمريكيَّة ـ السوفييتية السابقة ناجحة في الوصول إلىٰ اتفاق حول شروط التسوية. ولم تكن مصالح الدولتين العظميين في المنطقة مختلفة فحسب، بل كان لكل منهما مفهومه المختلف عما يجب أن تكون عليه التسوية. ولعل الأهم من ذلك كله أن الشركاء الرئيسيين في النِّزاع الإقليمي، لم يكونوا راغبين في مشاركة عميقة للاتّحاد السوفييتي في الجهود الدبلوماسيَّة. ومن المؤكّد أن الإسرائيليين لم يكونوا متحمسين لذلك، نظراً للعداء السوفييتي وعدم وجود علاقات دبلوماسيَّة. وكان الأردن ما يزال مستعداً للعمل مع الولايات المتحدة بدلاً من الاتّحاد السوفييتي. وكان السَّادات مستعداً بدوره كي يلعب الورقة

---

(5) يشير كتاب Edward R. F. Sheehan, The Arabs, Israelis, and Kissinger: A Secret History of American Diplomacy in the Middle East (Reader's Digest Press, 1976), P. 51 إلىٰ سياسة عربية متماسكة تقوم على «شبه تحالف» بين واشنطن والقاهرة، وكذا ترويج التكنولوجيا الأمريكية كوسيلة لزيادة التأثير الأمريكي في العالم العربي.

(6) William B. Quandt, «Soviet Policy in the October Middle East War,» International Affairs, vol. 53 (July 1997), PP. 377-89, and vol. 53 (October 1977) P. 587-603.

الأَمريكيَّة، الأمر الذي جعل العلاقات السوفييتيَّة ـ المصريَّة تتراجع نتيجة لذلك. وحتى الرئيس الأسد أظهر رغبة في أن يدع كيسينجر يجرِّب حظه، رغم أن شكوكه كانت أكبر كثيراً من شكوك السادات. وأخيراً كان لدى نيكسون وكيسينجر بقيَّة من نفسية مقاتلي الحرب الباردة ما يكفي من الشعور بالاغتباط في الكشف عن حدود النفوذ السوفييتي في الشرق الأَوسط[7].

ومن أجل المحافظة على دور أَمريكي فعَّال في حلّ النِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي، كان لا بدّ من تعبئة الرأي العام الداخلي. ذلك أن معظم الأَمريكيين كانوا يتعاطفون مع إِسرائيل، وهو تعاطف يتجلَّى بقوَّة في الكونغرس والصحافة بشكل خاص[8]. ولم يساعد حظر النّفط العربي كثيراً في تغيير هذا الشعور، بل كان ثمة احتمال كبير في الواقع أن يؤدي الحظر إِلىٰ عودة الشعور المعادي للعرب، مما سيجعل من الصعب انتهاج سياسة بناء الروابط الجديدة مع العالم العربي، والتي كانت حجر الزاوية في استراتيجية نيكسون وكيسينجر. إذ ينبغي أَلا تبدو ضغوط النّفط العربي، وكأَنَّها هي التي تُملي السياسة الأَمريكيَّة. فهذا وضع غير مقبول، داخلياً أَو دولياً، بالنسبة للإِدارة. وبالتالي كان ينبغي شرح المبادرات الدبلوماسيَّة الجديدة للرأي العام والكونغرس الأَمريكي في إطار الهدف الشامل، وهو السعي إِلىٰ تحقيق السَّلام في الشرق الأَوسط، وتعزيز الرَّوابط الأَمريكيَّة مع العالم العربي بدون التضحية بإِسرائيل، وتقليص قدرة الاتّحاد السوفييتي على تهديد المصالح الغربية، بما في ذلك النّفط. وكان يتوقّع أن تحظى هذه الأهداف بالتأييد، إذا ما استمرّت بشكل خاص المساعدات لإِسرائيل بمستويات عالية، وإذا ما رفع حظر النّفط.

---

(7) ربما أغضب نيكسون وكيسينجر أيضاً عدم استعداد موسكو للوفاء بالتزامها الذي تعهدت بموجبه في يومي 20، 21 تشرين الأول/ أكتوبر بالعمل على الإفراج الفوري عن الأسرى الإِسرائيليين المحتجزين لدى مصر وسوريا.

(8) William B. Quandt, «Domestic Influences of U. S. Foreign Policy in the Middle East: The View form Washington,» in Willard A. Beling, ed., the Middle East: Quest for an American Policy (State University of New York Press, 1973), PP. 263-85.

وإذا كان الدور الدبلوماسي الأَمريكي الفعَّال في البحث عن تسوية عربية ـ إسرائيليَّة، هو المبدأ الأول للسِّياسة الأَمريكيَّة الجديدة، فإن المبدأ الثاني كان تحقيق تلك التسوية من خلال عمليَّة الخطوة خطوة[9]. وهذا الأسلوب سرعان ما أصبح العلامة المميّزة لدبلوماسيَّة كيسينجر.

كان كيسينجر يتهيب من الولع الأَمريكي بـ «الحلّ السريع»، الحلّ الفني لمشكلة سياسية، والمفاوضات التي تجري تحت أضواء الإعلام، والتسويات البيروقراطية، والنوايا الطيبة كبديل عن التنازلات الملموسة. ومع أنَّه اتّهم فيما بعد بارتكاب بعض هذه الأخطاء في ممارسة الدبلوماسيَّة، إلاَّ أنه كان مدركاً على الأقل لهذه الأخطار الكامنة، ولضعف دوره الخاص كوسيط، وللهوّة الواسعة التي تفصل بين الأطراف. وخلافاً للمفاوضات الأخرى التي شارك فيها كيسينجر فقد تميزت الساحة العربية ـ الإسرائيلية بأنَّها الساحة التي واجهت فيها الولايات المتحدة، مهمة إقناع الأطراف المتنازعة بأن يقدم كل فريق منها التزامات للآخر. ولم يكن كافياً أن تضع الولايات المتحدة سياستها الخاصة، فقد كان مفتاح النجاح يكمن في حثّ الأطراف، على تعديل مواقفها غير القابلة للتوفيق فيما بينها.

كان التوقيت عنصراً مهماً في دبلوماسيَّة الخطوة خطوة التي يتبعها كيسينجر، الذي تصور أن المفاوضات قد تمتد لعدة سنوات. كان العرب يضغطون من أجل انسحاب فوري، بينما كان الإسرائيليون لا يريدون الاستعجال. وكان كيسينجر من جانبه يتوق إلىٰ الإسراع بالمفاوضات، بحيث يمكن الحصول على بعض النتائج في وقت مبكر، تاركاً فسحة من الوقت لجميع الأطراف للتكيف مع الاقتراب التدريجي والمرحلي للتسوية. وكان الأمر الأكثر إلحاحاً هو الانتخابات الإسرائيلية، التي حُدِّد موعدها في نهاية شهر

(9) انظر: Kissinger, Years of Upheaval, PP. 615-16.

كانون الأول/ ديسمبر، وبالتالي لم يكن من المتوقع إجراء مفاوضات جادَّة قبل ذلك الحين. وكان ينبغي إقناع العرب بطريقة ما بالانتظار حتى أوائل عام 1974، لإتمام عمليات الانسحاب الإسرائيلي الأولى.

في هذه الأثناء سيكون من المهم وضع إطار تفاوضي، أي إيجاد منبر يوفِّر مظلة رمزية تجري التحركات الدبلوماسيَّة جميعها تحت رعايتها. وهذا المنبر مؤتمر متعدِّد الأطراف بمشاركة أَمريكيَّة وسوفييتية يعقد في جينيف تحت رعاية الأُمم المتَّحدة، مما يعطي السوفييت شعورا بالمشاركة للحيلولة دون عرقلة جهود السَّلام، وتوفير إطار يمكن ضمنه التصديق على الاتِّفاقيات، وعقد المباحثات وإتمام اللقاءات بين الوفود. بيد أن كيسينجر كان يتوقع جازماً، أن إحراز تقدم نحو عقد الاتِّفاقات، لا يمكن أن يتحقَّق في إطار منبر بليد الحركة كهذا.

وبدلاً من الاعتماد بشدة على جينيف، عزم كيسينجر على التعامل مع القضايا المحسوسة من خلال القنوات الثنائية. وكان أكثر المشكلات إلحاحاً، هي تلك القائمة على الجبهة المصرية ـ الإسرائيلية. فالجيوش هناك متداخلة بشكل خطير، مما يخلق إغراء لدى هذا الجانب أَو ذاك بالعودة إلىٰ القتال. وقوات الجيش المصري الثالث معزولة تقريباً عن الإمدادات، وهو وضع غير محتمل بالنسبة للسادات. وكان الضغط الدولي يتصاعد مطالباً إسرائيل بالانسحاب إلىٰ خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر، أي إلىٰ وضع يحرر الجيش الثالث. وكان ينبغي تبادل أسرى الحرب، وتلك مسألة بالغة الحساسية بالنسبة للإسرائيليين. وكان الحصار المصري لمضيق باب المندب، عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، يحول دون حركة الملاحة الإسرائيلية من ميناء العقبة وإليه. وهكذا كان يمكن التفاوض حول هذه القضايا بمجملها كخطوة أولى لتثبيت وقف إطلاق النَّار، من خلال «فكّ اشتباك» القوَّات العسكريَّة.

وسرعان ما تمّ تحديد المفاهيم التي تشكِّل أُسس السياسة الأَمريكيَّة

الجديدة في الشرق الأَوسط، والتي تكوّنت بداية في خضم حرب تشرين/ أكتوبر. وكان نيكسون وكيسينجر يُلزِمان الولايات المتحدة، دون معارضة من الجهاز البيروقراطي عملياً، بالقيام بدور نشيط لم يسبق له مثيل في الوساطة المتعلّقة بالنِّزاع العربي ـ الإِسرائيلي، عن طريق عمليَّة الخطوة ـ خطوة الدبلوماسيَّة، وبفكّ اشتباك القوَّات العسكريَّة المصريَّة والإِسرائيليَّة في وقت مبكر.

إعداد المسرح

كان من نتائج العلاقة المتحسّنة ما بين القاهرة وواشنطن، مناشدة الرئيس السَّادات المتكرِّرة والملحّة للولايات المتحدة، لمساعدة قوَّات الجيش الثالث المُحاصَر. وكان الإِسرائيليُّون، على النقيض من ذلك، مصمّمين على استخدام الضغط على هذه القوات لتحقيق تحرير أسرى الحرب، وإنهاء الحصار البحري عند باب المندب. وكان الجمود يهدِّد بانهيار وقف النار الهش. ولهذا سرعان ما قام كيسينجر بوضع هدفين ملحّين نصب عينيه: الأول تثبيت وقف إطلاق النَّار، والثاني التوصل إِلىٰ فصل القوَّات العسكرية. ومع حلول 27 تشرين الأول/ أكتوبر تمكَّنت وزارة الخارجيَّة، من الإعلان عن أن ممثلين لمصر وإِسرائيل قد وافقوا على الاجتماع لتطبيق وقف إطلاق النَّار. وقبل أن تبدأ المحادثات في 30 تشرين الأول/ أكتوبر تم وضع الترتيبات المؤقتة لتوفير الإمدادات غير العسكرية لقوَّات الجيش الثالث.

كانت المواقف المصرية والإِسرائيلية من شروط وقف إطلاق النَّار وفكّ الاشتباك العسكري متباينة إِلىٰ حدّ بعيد. وكان وزير الخارجيَّة المصري الجديد إسماعيل فهمي قد التقى بكيسينجر في 29 تشرين الأول/ أكتوبر[10]، ثم التقى

(10) وافق فهمي في أول لقاء له بكيسينجر على أن يتم إمداد الجيش الثالث بمواد غير عسكرية فقط إذا ما وافقت إِسرائيل على الانسحاب إِلىٰ خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان =

معه ثانية بعد يومين وكذلك مع الرئيس نيكسون. وكان فهمي مخولاً، بالإضافة إلىٰ بحث زيارة كيسينجر القادمة إلىٰ مصر، بتقديم اقتراح يتألَّف من إحدى عشرة نقطة. وكانت مصر تستعجل انسحاب إسرائيل دون قيد أو شرط إلىٰ خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر، كما جاء في قراري الأُمم المتَّحدة 339 و340. وما أن يتحقَّق ذلك فإن مصر ستوافق، على إطلاق سراح جميع أسرى الحرب.

أخبر كيسينجر، فهمي، أن الخطة تحتوي على عناصر إيجابية، ولكنَّها تبدو شديدة الطموح في تلك المرحلة. ومن خلال المناقشات التي جرت خلال اليومين التاليين أثار كيسينجر موضوع خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر، مؤكداً أنه سيكون من الصعب إقناع إسرائيل بالانسحاب إليها، وأن خطوة أوسع كجزء من فك اشتباك القوَّات ستجعل من خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر مسألة غير ذات بال[11]. وجاء خطاب الرئيس السَّادات في 31 تشرين الأول/ أكتوبر، الذي وصف فيه الدور الأَمريكي بأنَّه «بنَّاء»، ليعكس النبرة الجديدة في العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية.

ثم تباحث نيكسون وكيسينجر بعد ذلك مع رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير، التي وصلت إلىٰ واشنطن في 31 تشرين الأول/ أكتوبر. ثم التقاها كيسينجر صباح الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر[12]، وكانت مهتمة بمصير الأسرى الإسرائيليين في مصر. وقالت إن استمرار الإمدادات إلىٰ الجيش الثالث مرهون بعودة الجرحى من أسرى الحرب، وتقديم قائمة كاملة بأسماء الأسرى،

= فهمي يشغل منصب وزير الخارجيَّة بالإنابة في هذا الوقت، وتم تعيينه وزيراً للخارجيَّة في 31 تشرين الأول/ أكتوبر.

(11) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 616-17 وعد كيسينجر بالفعل ألا تقوم إسرائيل بشن هجوم عسكري من موقعها بالضفَّة الغربيَّة لقناة السويس، كما وافق على إرسال ممثل على مستوى عال إلىٰ القاهرة في موعد مبكر.

(12) المصدر السابق، الصفحات 619 ـ 624.

وبزيارة الصليب الأحمر لهم. ولسوف توافق إسرائيل على إمدادات غير عسكرية دائمة لقوّات الجيش الثالث عندما يعود الأسرى ويُرفع الحصار البحري. وعندئذ فقط ستوافق إسرائيل على المباحثات مع مصر حول خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر.

وبعد الظهر بقليل التقى نيكسون ورئيسة الوزراء مائير. وطرح نيكسون رأيه بأن السَّادات يريد سلاماً حقيقياً. ثم استعرض الاستراتيجية الأَمريكيَّة على مدى الشهور القادمة، وقال إنه سيحاول تفتيت المشكلات بحيث يمكن معالجتها خطوة خطوة. وقال إن الولايات المتحدة ستقف في وجه السوفييت، كما فعلت في حرب تشرين/ أكتوبر، كما ستحاول تحسين علاقاتها مع مصر وسورية، وهو ما سيساعد إسرائيل، وإن هدفه هو ضمان «حدود آمنة» لإسرائيل. ولم تكشف مائير عن مشاعرها، واكتفت بالتأكيد على أن إسرائيل لا ترغب في أن يمارس الضغط عليها بالنسبة لخطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر. وفي ذلك المساء لم يتبادل كيسينجر ومائير إلاَّ كلمات قليلة. وكان الجو فاتراً إن لم يكن عدائياً.

الكيلومتر 101

بعد هذه المباحثات الأولية انطلق كيسينجر إلىٰ الشرق الأَوسط في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر[13]. وفي يوم 7 تشرين الثاني/ نوفمبر التقى في القاهرة بالرئيس السَّادات لأول مرة. وخلال محادثاتهما الخاصة في ذلك اليوم، بدأ كيسينجر يستشعر إعجاباً حقيقياً بالزعيم المصري[14]. وجاءت نقطة التحوّل عند مناقشة مسألة خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر. كان كيسينجر في موقف حرج، لأنه كان يعرف أن الإسرائيليين ليس من السهل إقناعهم، كما كان يشعر في

(13) كان كيسينجر قد التقى بممثّل سوريا لدى الأُمم المتَّحدة يوم 2 تشرين الثاني/ نوفمبر، ولكن لم تكن هناك قنوات في ذلك الوقت لمواصلة الاتصالات بين واشنطن ودمشق.

(14) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 636-41.

الوقت نفسه أن السَّادات على حقّ لأنه لا ينبغي أن يسمح للقوَّات الإِسرائيلية أن تبقى قوَّات الجيش الثالث تحت رحمتها.

كان السَّادات مستعداً للمرونة في كثير من النقاط، وإن كان ما يزال يتوق إِلىٰ انسحاب إِسرائيل إِلىٰ خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر. وأجاب كيسينجر بأنَّه إذا كان يصر على موقفه، فإنه سيوافق على محاولة إقناع الإِسرائيليين. ولكن كان من رأيه أنه قد يكون من الأيسر، وإن استغرق وقتاً أطول، العمل على ترتيب فكّ اشتباك حقيقي بين القوَّات يتجاوز خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر. وفي الوقت نفسه يمكن وضع ترتيبات لإعادة تموين الجيش الثالث. ولدهشة كيسينجر وافق السَّادات على هذه الفكرة من المناقشة.

في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر أُعلن عن اتِّفاق حول خطة لوقف إطلاق النَّار وتبادل أسرى الحرب، وبعد ذلك بيومين وقَّع ممثِّلون عسكريّون إِسرائيليون، ومصريون على اتِّفاق من ستّ نقاط في مكان على طريق السويس ـ القاهرة يدعى بالكيلومتر 101[15]. وهكذا بدأت عمليَّة التسوية، وإن كانت عمليَّة متأرجحة.

في تلك الأثناء طار كيسينجر إِلىٰ الأردن لإجراء محادثات مع الملك حسين، حيث شجع الملك على المشاركة في مفاوضات السَّلام. وأعرب كيسينجر، بدون إبداء التزامات مؤكدة، عن تعاطفه مع معارضة الملك حسين لإقامة دولة في الضفة الغربية، تسيطر عليها منظمة التحرير الفلسطينية. بيد أن كيسينجر في تلك اللحظة كان ما يزال يركِّز على الجبهة المصرية ـ الإِسرائيلية. أما موضوع الأردن والفلسطينيين فهو مؤجل إِلىٰ وقت آخر.

وفي المملكة العربية السعوديَّة، ناشد كيسينجر الملك فيصل تأييد جهده الدبلوماسي، مشيراً إِلىٰ أن حظر النّفط هو بمثابة عقبة أمام الجهود

(15) المصدر السابق ص 641.

الأَمريكيَّة[16]. وناقش منطق مقاربة الخطوة خطوة، كما ناشد فيصل المساعدة في فتح قنوات اتصال مع السوريين[17]. وكان كثيراً ما يردِّد الملك فيصل على مسامع كيسينجر مواقفه الثابتة من المؤامرة الصهيونية ـ الشيوعيّة، ولكنه وعد أيضاً بتقديم بعض العون، بما في ذلك تخفيف حظر النّفط فور تحقُّق تقدّم بشأن الانسحاب الإِسرائيلي[18].

وفي المحصلة شعر كيسينجر بالارتياح لنتائج رحلته الأولى. فقد أقام علاقات شخصية مع السَّادات، وانطلقت العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية في بداية طيبة. وتمّ تأمين استقرار وقف النار. كما تم توقيع اتِّفاق مهم ما بين مصر وإِسرائيل بمساعدة أَمريكيَّة. ووعد الملك فيصل بتخفيف حظر النّفط. وبات من الضروري وضع إطار تفاوضي واسع، في جنيف كمقدِّمة لمباحثات فكّ الاشتباك. ولم يكن كيسينجر في عجلة من أمره، نظراً لأنه ما يزال ملتزماً بالخطى التدريجية تحت السيطرة الأَمريكيَّة الوثيقة.

مؤتمر جنيف

تم تبادل أول دفعة من الأسرى المصريين والإِسرائيليين في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي اليوم التالي اجتمع الجنرال اهارون ياريف عن إِسرائيل،

---

(16) يذكر المصدر السابق، ص 664، «لو تسنى لي فهم أفضل لآلية تسعير النفط لأدركت أن الخفض في الإنتاج السعودي كان أكثر خطراً من الحظر، حيث أثر بصورة حاسمة على الإمداد العالمي، ومن ثم وفر الشرط المسبق لرفع الأسعار على نحو يجلب الخراب».

(17) يحوي Sheehan, Arabs, Israelis, PP. 70-73 نصاً جزئياً لاجتماع كيسينجر وفيصل. انظر أيضاً Kissinger, Years of Upheaval, PP. 659-66.

(18) بعد ذلك بأيام تحدث كيسينجر في بكين عن «انسحابات» إِسرائيلية كجزء من تسوية، في محاولة مقصودة لإظهار نواياه الطيبة تجاه السعوديين. ولم يكن الإِسرائيليون مسرورين بذلك بصفة خاصة لقلقهم من إشارة كيسينجر إِلىٰ الضمانات الأَمريكيَّة، وخشيتهم من أن تصبح الضمانات الخارجيَّة بديلاً لتنازلات عربية. انظر «Secretary Kissinger's News Conference of November 12, 1973,» Department of State Bulletin, vol. 69 (December 10, 1973), P. 713.

واللواء عبد الغني الجمسي عن مصر، وبدأت محادثات الكيلومتر 101 الهادفة إلىٰ تنفيذ اتِّفاق النقاط الست، وخاصة النقطة الثانية المتعلِّقة بـ «العودة إلىٰ خطوط 22 تشرين الأول/ أكتوبر في إطار اتِّفاق لفكّ الاشتباك وفصل القوَّات». وفي 18 تشرين الثاني/ نوڤمبر قام كيسينجر بتذكير وزير الخارجيَّة إسماعيل فهمي، بأن فكّ الاشتباك ينبغي أن يكون على رأس جدول أعمال مؤتمر جنيف القادم للسَّلام، بيد أن ذلك لن يكون شرطاً مسبقاً لانعقاد المؤتمر. كما لا يمكن حل مشكلة تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر السَّلام في هذه المرحلة. وفي هذا المؤتمر وحده ستكون الولايات المتحدة قادرة على استخدام نفوذها بالكامل. وقصارى القول إن كيسينجر كان يحاول استخدام جنيف كخطوة هامَّة في عملية المفاوضات، واحتفاظ الولايات المتحدة بدور مركزي في تحقيق تقدّم.

في السادس من كانون الأول/ ديسمبر، أعلن كيسينجر أن من «المحتمل جداً» عقد مؤتمر جنيف في 18 كانون الأول/ ديسمبر. ولكن من الذي سيحضره؟ مصر ستحضر، وأوحى السَّادات ضمناً أن سورية ستحضر أيضاً[19]. ويمكن الاعتماد على الأردن، ولكن منظمة التحرير الفلسطينية باتت هي الممثِّل الشرعي، والوحيد للشعب الفلسطيني باعتراف جميع الدول العربية عدا الأردن، وذلك في مؤتمر القمة العربي الذي عُقد في الجزائر في الشهر السابق. وإذا حضرت المنظمة مؤتمر جنيف فإن إسرائيل لن تحضر، كما أن إسرائيل لن تجلس مع سورية إلاَّ إذا قدَّمت الأخيرة قائمة بأسماء الأسرى الإسرائيليين لديها.

ومن أجل تجاوز رفض إسرائيل لحضور مؤتمر جنيف، تباحث كيسينجر مع وزير الدفاع دايان في واشنطن يوم 7 كانون الأول/ ديسمبر. وقدَّم دايان

(19) أكَّد السادات في رده على دعوة نيكسون بتاريخ 8 كانون الأول/ ديسمبر استعداد مصر للذهاب إلىٰ جنيف، ولكنه لم يشر بشيء إلىٰ سوريا.

قائمة طويلة بطلبات السِّلاح، فوعد كيسينجر بأن توليها بلاده اهتماماً إيجابياً. وبالمقابل قال دايان إن فكّ الاشتباك لا يحتاج لانتظار الانتخابات الإسرائيلية. واقترح فكاً للاشتباك يقوم على انسحاب إسرائيلي إلىٰ خط يقع غرب الممرَّات، ويرتبط بنزع جوهري للسِّلاح في المناطق المتقدمة، والتزام مصري بإعادة فتح قناة السويس. وحثّ كيسينجر الإسرائيليين على عدم التحرّك بسرعة كبيرة في المفاوضات، حتى لا تبدو إسرائيل ضعيفة. وقال إن العرب ينبغي أن يعتقدوا أن الولايات المتحدة تجد صعوبة في ممارسة نفوذها على إسرائيل، وإلاَّ فإنهم سيذهبون بعيداً في توقعاتهم.

انطلق كيسينجر في جولته الثانية إلىٰ الشرق الأَوسط يوم 12 كانون الأول/ ديسمبر، بعد أن توقف في لندن لإلقاء خطاب مهم[20]. وخلال الأيام القليلة التالية زار كيسينجر القاهرة والرياض ودمشق وتل أبيب. وكانت محادثاته مع السَّادات هي وحدها الخالية من الصعوبات. فقد كان السَّادات قد وافق على تأجيل قصير لموعد افتتاح مؤتمر جنيف. ووافق الآن على تأجيل مرحلة مفاوضات فكّ الاشتباك المهمَّة إلىٰ منتصف شهر كانون الثاني/ يناير، بعد الانتخابات الإسرائيلية[21]. وفي اليوم التالي، 14 كانون الأول/ ديسمبر، كسب كيسينجر في لقائه مع الملك فيصل تأييد السعودية لنهج السَّادات، كما كسب وعداً بإنهاء حظر النّفط، وعودة الإنتاج إلىٰ ما كان عليه فور الوصول إلىٰ اتِّفاق على المرحلة الأولى من التسوية.

---

(20) خطاب كيسينجر أمام احتجاج بريطانيا العظمى في 12 كانون الأول/ ديسمبر حيث ناقش حرب أكتوبر وأَزمة الطاقة، ويتضمن الاعتراف الصريح بأنه «من الإنصاف أن أقرر. أن الولايات المتّحدة لم تقم بكل ما كانت تستطيع القيام به قبل الحرب تجاه التوصل إلىٰ تسوية دائمة في الشرق الأَوسط». Department of State Bullein, vol. 69 (December 31, 1973), P. 780.

(21) أمضى كيسينجر أربع ساعات مع السادات يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر، وخمس ساعات في اليوم التالي حيث بحثا ما يمكن عمله إذا رفضت إسرائيل حضور مؤتمر جنيف. وقد وعد السادات أيضاً بالعمل على رفع حظر النفط في أوائل كانون الثاني.

في الوقت الذي كان يسعى فيه كيسينجر لحشد تأييد الدول العربية الرئيسيَّة لمؤتمر جنيف، كانت إسرائيل تشترط لمشاركتها في المؤتمر عدداً من النقاط المهمة. فقد عارضت إسرائيل دوراً قوياً للأمين العام للأُمم المتَّحدة، ورفضت فكرة مشاركة الفلسطينيين في المؤتمر كما اقترح السَّادات من قبل، وأكَّدت أن ممثليها لن يجلسوا في غرفة واحدة مع السوريين، حتى توافق سورية على مطالب إسرائيل، بتقديم قائمة بأسماء أسرى الحرب لديها، وزيارة ممثلي الصليب الأحمر لهم. وبدا أن إسرائيل قد تقاطع المؤتمر.

عند هذه النقطة بدأ نيكسون وكيسينجر يمارسان ضغوطاً كبيرة على إسرائيل. ففي الساعة 6,45 من يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر في واشنطن، تسلم الوزير الإسرائيلي المفوض موردخاي شاليف رسالة من نيكسون إلىٰ مائير. وكانت الأخيرة قد اعترضت على صيغة خطاب مشترك من الولايات المتحدة، والاتّحاد السوفييتي إلىٰ الأمين العام للأُمم المتَّحدة. وقال نيكسون أنه انزعج من موقفها. ونفى أن يكون للأمين العام للأُمم المتَّحدة أكثر من دور رمزي. وفيما يتعلَّق بالفلسطينيين قال نيكسون، إن المشاركة الفلسطينية في المؤتمر لا تؤثِّر مسبقاً على المحصلة النهائية، وإن مشاركة أعضاء إضافيين، بكل الأحوال، تستلزم موافقة جميع المشاركين الأصليين. أي أن إسرائيل باختصار لن تُرغم على التفاوض مع الفلسطينيين. واختتم نيكسون رسالته بتحذير رئيسة الوزراء، من أن الولايات المتحدة لن تتفهّم رفض إسرائيل لحضور المؤتمر، وأنه لن يكون قادراً على تبرير التأييد لإسرائيل إذا لم ترسل ممثليها إلىٰ جنيف[22].

وفي اليوم التالي بعث نيكسون برسالة أخرى، عندما علم أن مجلس

---

(22) يقتبس Kissinger, Years of Upheaval, P. 759 من الخطاب.

الوزراء الإسرائيلي، لم يتمكّن من الوصول إلىٰ قرار بشأن المشاركة في مؤتمر جنيف. وكانت الولايات المتحدة تستعد لتأجيل المؤتمر حتى 21 كانون الأول/ ديسمبر. وأشار نيكسون إلىٰ هدف إسرائيل الدائم بالتفاوض مع العرب، واعتبر عدم إقدامها على هذه الخطوة الآن أمراً غير معقول. وكان الرئيس قد أمر كيسينجر بحضور الجلسة الافتتاحية لمؤتمر جنيف سواء كانت إسرائيل حاضرة أم لا[23].

وفيما كان يبذل هذا الجهد للحصول على موافقة إسرائيل لحضور المؤتمر من خلال مزيج من الضغوط والوعود[24]، توجّه كيسينجر لعقد لقائه الأول مع الرئيس السوري حافظ الأسد[25]. واكتشف كيسينجر في الأسد رجلاً ذكياً، وصارماً وجذّاباً ويملك روح الدعابة. كما أنه كان الأقل تساهلاً من بين جميع الزعماء العرب الذين قابلهم حتى الآن. وألمح الأسد إلىٰ أنه لا يعارض عقد مؤتمر جنيف في 21 كانون الأول/ ديسمبر، ولكن سورية لن تشارك إلاّ إذا تم التوصل إلىٰ اتّفاق لفكّ الاشتباك بين القوّات أولاً. وفكّ الاشتباك في رأيه ينبغي أن يشمل مرتفعات الجولان بكاملها. ولم يكن الأسد مستعداً لقبول

---

(23) انعكست لهجة نيكسون في هذه الخطابات، في الملاحظات التي ورد أنّه أدلى بها لمجموعة تضمن سبعة عشر من حكام الولايات يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر. «إن الطريق الوحيد الذي سنتبعه لحل الأزمة هو إنهاء حظر النفط، والطريق الوحيد الذي سنتبعه لإنهاء حظر النفط هو جعل الإسرائيليين يتصرّفون بصورة معقولة. إنني أكره استخدام كلمة ابتزاز، ولكن يتعيّن علينا فعل بعض الأشياء لجعلهم يسلكون سلوكاً حسناً».

Thomas O'Toole and Lou Cannon, «Jobs, Oil Put Ahead of Environment. Israel,» Washington Post, December 22, 1973, P. A 1.

(24) تم تجميع هذه الوعد في مذكرة تفاهم، انظر David Landau, «Kissinger Obtains Jerusalem's Consent to Attend Geneva Parley,» Jerusalem Post, December 18, 1973, P. 1.

(25) Kissinger, Years of Upheaval, PP. 777-86 ويتضمن Sheehan, Arbs, Israelis, PP. 95-97 نصوصاً لفقرات من هذه المحادثات.

التماس كيسينجر بتقديم لائحة بأسماء أسرى الحرب الإسرائيليين. وبعد ستّ ساعات ونصف من المحادثات مع الأَسد، غادر كيسينجر إلىٰ إسرائيل خالي الوفاض[26].

وخلال اليومين التاليين استخدم كيسينجر جميع قدراته على الإقناع، لحضّ الإسرائيليين على حضور مؤتمر جنيف. والتقى مع غولدا مائير على انفراد، ثم مع أعضاء وزارتها، ليرسم لهم صورة كئيبة للآثار المترتبة على انهيار العمليَّة الدبلوماسيَّة. فالخطر يحيق بما هو أكثر بكثير من الشرق الأَوسط. فالاستقرار العالمي، والنظام الاقتصادي الدولي، وتماسك حلف الناتو، بل وكل مشكلة كبرى في العالم ترتبط بقرار إسرائيل. وتمسّك الإسرائيليون بإدخال تعديل آخر في رسالة الدعوة، وهو عدم ذكر الفلسطينيين بالاسم. وعلى أساس هذا الشرط انعقد مجلس الوزراء في المساء، ليوافق على حضور إسرائيل مؤتمر جنيف يوم 21 كانون الأول/ سبتمبر.

قام كيسينجر بمحاولة أخيرة للحصول على موافقة سورية على الحضور. ففي مقابل تقديم قائمة بأسرى الحرب، كانت إسرائيل مستعدة للسماح للقرويين السوريين، بالعودة إلىٰ ديارهم في المناطق الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية. وبناء على طلب كيسينجر، بحث وزير الخارجيَّة المصري «فهمي» هذا الاقتراح مع الأَسد، وانتقل السفير الأَمريكي في بيروت إلىٰ دمشق لبحث الموضوع ثانية مع الرئيس السوري. وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر تلقَّى كيسينجر رداً من الأَسد يفيد بأن سورية لن تشترك في هذه المرحلة من محادثات جنيف، ولكنَّها قد تشترك فيما بعد[27].

---

(26) وافق الأسد بالفعل على فتح قسم لرعاية المصالح يديره أَمريكيون في دمشق. وقد تم إرسال توماس سكوتس ليرأس البعثة.

(27) يعيد كيسينجر في Kissinger, Years of Upheaval, PP. 1249-50 نشر المذكرة التي بعث بها إلىٰ نيكسون في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1973، لتلخص مواقف الأطراف عشية المؤتمر.

انعقد مؤتمر جنيف أخيراً في 21 كانون الأول/ ديسمبر تحت رعاية الأمين العام للأُمم المتَّحدة، وباشتراك الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي كرئيسين، وبحضور وزراء خارجيَّة مصر والأردن وإِسرائيل. وبقي مقعد سورية شاغراً. وتحدَّث كل من وزراء الخارجيَّة، ولكن كلماتهم كانت موجهة للرأي العام في بلادهم بالدرجة الأولى، وليس لبعضهم بعضاً. وحاول كيسينجر توضيح استراتيجية الخطوة خطوة، مؤكداً على أن هدف المؤتمر هو السَّلام، ولكن الحاجة الملحّة هي تعزيز وقف إطلاق النَّار من خلال فكّ الاشتباك بين القوَّات، بوصفه «خطوة أولى أساسيَّة» على طريق تنفيذ القرار 242 الصادر عن الأُمم المتَّحدة.

وبهذه الكلمات الرسمية انفض مؤتمر جنيف على ألا يعود إِلىٰ جلسة علنية ثانية ولفترة غير محددة. لقد أصبح هناك رمز الآن، ولعله رمز مفيد، ومنتدى يمكن أن تناقش مجموعات العمل في إطاره جوانب التسوية إذا لزم الأمر. ولم يكن هذا الجهد بلا طائل، لكن قد يتساءل المرء عما إذا كانت النتائج تساوي كل هذا الجهد.

فك الاشتباك المصري ـ الإِسرائيلي

بات على كيسينجر، بعد أن أنجز انعقاد مؤتمر جنيف بنجاح، أن يواجه تحدي تحقيق نتائج مبكرة على الجبهة المصرية ـ الإِسرائيلية. وكانت تقف في طريقه عدة مشكلات مترابطة. فالسوريون قد أعلنوا درجة عالية من الاستنفار العسكري في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر، وبدا استئناف القتال احتمالاً وارداً. كما كان حظر النفط مستمراً، وأقدمت منظمة الدول المصدِّرة للنفط (أوبيك) في خطوة على درجة مماثلة من الأهمية، وهي مضاعفة أسعار النفط في 23 كانون الأول/ ديسمبر. وباتت أَزمة الطاقة سيفاً مسلطاً على المفاوضات المصرية ـ الإِسرائيلية أكثر من أي وقت مضى.

وبخلاف الصعوبات مع سورية، وخيبة الأمل من جراء استمرار حظر

النّفط، كان على كيسينجر أن يواجه ثانية مواقف مصر وإسرائيل من فكّ الاشتباك، والتي لا تزال متباعدة. وكان كيسينجر أثناء وجوده في إسرائيل قد ناقش يوم 17 كانون الأول/ ديسمبر فكّ الاشتباك مع مائير وكبار مساعديها. وكان الموقف الإسرائيلي يقضي بالسماح لقوة مصرية صغيرة، بالبقاء على الضفَّة الشرقية للقناة إلىٰ مسافة عمقها عشرة كيلومترات، وأن تسيطر قوة إسرائيلية مسلَّحة بأَسلحة خفيفة، على الطريق الممتد من الشمال إلىٰ الجنوب وراء القوَّات المصرية، في حين ترابط القوَّات الإسرائيلية الرئيسية، شرق ممري متلا والجدي، خلف مدى المدفعية المصرية. ولن تسلِّم إسرائيل الممرات في مرحلة فك الاشتباك. وفيما يتعلَّق بالنقاط الأخرى لم يكن ثمة توافق إسرائيلي كامل. فبعض الوزراء كانوا يرون أن على مصر، أن تنهي حالة الحرب مقابل انسحاب القوَّات الإسرائيلية، وأن تسمح بمرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس وباب المندب. كما كان من المرغوب، فرض بعض القيود على القوَّات المصرية على ضفتي القناة. وعلى مصر أن تشرع بالعمل على إعادة فتح القناة، وإعادة بناء المدن الواقعة على القناة كعلامة على النوايا السلمية.

أما موقف مصر، كما نقل إلىٰ كيسينجر أثناء مباحثاته في القاهرة، قبل انعقاد مؤتمر جنيف، فقد بدأ باقتراح يقضي بألاّ تحقِّق مصر، أَو إسرائيل مزايا عسكرية في مرحلة فكّ الاشتباك. وتحتفظ مصر بقوَّاتها شرق القناة على الخطوط القائمة، على ألاّ يتعدَّى حجمها الفرقتين، أي خفض ثلاث فرق عن مستواها القائم، وألا توضع مدفعية ثقيلة وصواريخ أرض ـ جو، بالقرب من القناة. وتحتفظ إسرائيل بسيطرتها على الأطراف الشرقية للممرّات، وتنشأ منطقة منزوعة السِّلاح بين الخطوط المصرية والإسرائيلية، تجوبها دوريات تابعة للأُمم المتَّحدة. وتشرع مصر في تطهير القناة، وتعيد بناء المُدن فور انسحاب القوَّات الإسرائيلية. ويسمح للشحنات الإسرائيلية بالمرور عبر القناة بعد إعادة افتتاحها.

كانت هناك فجوتان تفصلان ما بين الموقفين المصري والإسرائيلي. كانت مصر تريد أن تنسحب القوّات الإسرائيلية شرق الممرات، وكانت إسرائيل ترفض ذلك؛ إذ كانت تريد قوة مصرية رمزية فقط على الضفَّة الشرقيَّة. وكان السَّادات يفكِّر في فرقتي مشاة معزّزة بمائة دبابة لكل منهما. إذ كان من الصعب عليه أن يقبل علانية بتقليل شديد للقوَّات، في الأَراضي التي عادت إلىٰ سيطرته. ومن هنا فإن الأُسس الفكرية لموقفي الطرفين لم تكن متباعدة كثيراً، وبدا الاتفاق ممكناً.

جرت انتخابات الكنيست الإسرائيلية في 31 كانون الأول/ ديسمبر. وأحرزت المعارضة لائتلاف رئيسة الوزراء العمالي بعض التقدم، وإن لم يصل ذلك إلىٰ حد ضرورة تشكيل حكومة جديدة، ورئيس وزراء جديد.

وبعد تجاوز الانتخابات الإسرائيلية، أُوفد دايان إلىٰ واشنطن لإجراء مباحثات مع كيسينجر يومي 4 و5 كانون الثاني/ يناير. وطرح دايان فكرة المناطق الخمس لفكّ الاشتباك، حيث يحتفظ كل طرف بمنطقتين ترابط فيهما قوَّات محدودة، وتفصل بينهما منطقة عازلة تشرف عليها الأُمم المتَّحدة. وحدَّد دايان نوع القيود العسكرية التي توافق عليها إسرائيل، وهي أن تبقى قوَّات كلا الجانبين بعيداً أساساً عن مرمى مدفعية الطرف الآخر، وألاّ تتمكّن صواريخ أرض جو التابعة لأحد الجانبين من الوصول إلىٰ طائرات الطرف الآخر. وكذلك أن يبقى عدد الدبابات في المناطق المحدودة القوَّات صغيراً جداً.

وأثناء تلك المحادثات حثّ دايان كيسينجر على العودة إلىٰ الشرق الأَوسط، كي يساعد في التوصل إلىٰ اتِّفاق. وكانت هذه الفكرة مُرضية بالنسبة للسادات. انطلق كيسينجر في رحلته في وقت متأخر من يوم 10 كانون الثاني/ يناير. وكان يتوقع أن يساعد أساساً في وضع إطار عام للاتِّفاق، على أن يقوم الطرفان بوضع التفاصيل في جنيف. ولكن السَّادات كان حريصاً على الوصول

إلىٰ نتائج، وطلب من كيسينجر البقاء في المنطقة إلىٰ حين تحقيق اتِّفاق. وهكذا شرع كيسينجر في ممارسته الأولى لـ «دبلوماسيَّة المكوك»، طائراً ما بين القاهرة وتل أبيب حاملاً المقترحات.

وفي 13 كانون الثاني/ يناير سلم الإسرائيليون كيسينجر، خريطة فكّ الاشتباك المقترح، وفوَّضوه بعرضها على السَّادات، وهو ما فعله في اليوم التالي. وكان السَّادات قد وافق سابقاً، في حديثه الأول مع كيسينجر، على فكرة تحديد القوَّات في ثلاث مناطق، ووعد على العمل من أجل إنهاء حظر النّفط حالما يتم التوصّل إلىٰ اتِّفاق. وقد وافق أيضاً على فكرة وجود قوَّات إسرائيلية غرب الممرّات، ولكنه لم يوافق على الحجم المقترح لهذه القوَّات[28]. ومن أجل التغلّب على تحفّظات السَّادات، اقترح كيسينجر أن تتحمّل الولايات المتحدة مسؤولية الاقتراح الخاص بتحديد القوّات؛ إذ من الأيسر بالنسبة للسادات قبول مشروع أمريكي، بدلاً من مشروع إسرائيلي. وبدلاً من الإعلان عن تلك القيود في وثائق رسمية، يمكن تحديدها في رسائل متبادلة بين السَّادات ونيكسون. وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن ضمانات السَّادات الشخصية بشأن عبور الشحنات الإسرائيلية للقناة، يمكن تسليمها في مذكرة تفاهم سرِّيَّة. ووافق السَّادات.

وفي اليوم التالي، في إسرائيل، وهو يوم 15 كانون الثاني/ يناير، أسقطت رئيسة الوزراء مائير طلب إنهاء حالة الحرب كجزء من اتِّفاق فكّ الاشتباك. كما تم إجراء بعض التعديلات في مستوى القوَّات، وخط فكّ الاشتباك، وهي تعديلات اضطلع دايان، بدور بنَّاء للغاية في تحقيقها. وعاد كيسينجر إلىٰ أسوان ليقابل السَّادات يوم 16 كانون الثاني/ يناير، وفي يده خارطة جديدة، ووافق السَّادات على تخفيض الوجود المصري في الضفة

(28) المصدر السابق، الصفحات 821 ـ 829 و534-35. Kalb and Kalb, Kissinger, PP.

الشرقية إلىٰ ثماني كتائب و30 دبابة[29]. عندئذٍ عاد كيسينجر إلىٰ إسرائيل، وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي أعلن الرئيس نيكسون، أن الطرفين قد توصَّلا إلىٰ اتِّفاق لفكّ اشتباك قوَّاتهما العسكرية. وفي اليوم التالي وقَّع رئيسا الأركان، في كل من مصر وإسرائيل الاتِّفاق عند الكيلومتر 101[30].

بتوقيع اتِّفاق فكّ الاشتباك في 18 كانون الثاني/ يناير يكون نيكسون وكيسينجر قد ربطا الولايات المتحدة بالتزامات مهمة، ولا سابق لها. وكانت مكانة الولايات المتحدة في العالم العربي آخذة في الصعود، وبدت الولايات المتحدة تمسك بأوراق اللعبة، أكثر من أي وقت آخر. وربما شكا الإسرائيليون من الضغوط الكثيفة، ولكن الاتِّفاق لم يكن سيئاً بالنسبة لإسرائيل، وكانت المعونة الأَمريكيَّة ما تزال تتدفّق عليها بكميات كبيرة. وساد شعور بالتفاؤل غالبية دول الشرق الأَوسط، وهو أمر نادر الحدوث.

فترة فاصلة بين اتِّفاقيات الفصل

كانت مهمّة كيسينجر التالية، أن يحافظ على هذا الشعور عن طريق ترجمته إلىٰ اتِّفاقات جديدة، تساعد على خلق قوة دفع باتجاه التسوية. ولتحقيق ذلك انطلق مباشرة من أسوان لإجراء محادثات مع الملك حسين والرئيس الأَسد. وفي الوقت نفسه طار السَّادات، كما وعد، إلىٰ العربية السعودية ليحاول إقناع الملك فيصل بأخذ المبادرة، في رفع حظر النّفط ضد الولايات المتحدة، وهو الحظر الذي كان يصفه كيسينجر في وقت مبكر من الشهر، بأنَّه «غير مناسب على نحو متزايد»[31].

---

(29) Kalb and Kalb, Kissinger, P. 539.

(30) النص والخريطة منشوران في The Agreement: New Deployment of Forces along the Suez Canal, Jerusalem Post, January 20, 1974, P. 1 وفي Kissinger, Years of Upheaval, P. 839 (map) and P. 1250.

(31) «Secretary Kissinger's News Conference of January 3, 1974,» Department of State Bulletin, vol 70 (January 28, 1974), P. 78. وفي 6 حزيران/ يونيو 1974 أثار وزير الدفاع شليزنجر للمرة الأولى احتمال استخدام القوة إذا ما استمر حظر النفط إلىٰ ما لا نهاية.

لم يحقِّق الاتِّفاق على الجبهة المصرية ـ الإسرائيلية الكثير في الحد من التوقعات، أو تخفيف التوتر في أرجاء أخرى من الشرق الأوسط. فسورية الآن، والأردن، وربما منظمة التحرير الفلسطينية باتت مستعدة للدخول في العمليَّة. بيد أن إسرائيل كانت قلقة من مواجهة سلسلة جديدة من المفاوضات، خوفاً من فرض ضغوط أمريكيَّة أخرى، لانتزاع تنازلات إقليمية ثمناً لاستمرار الجهود الدبلوماسيَّة. ورغم أن التحسّن في العلاقات الأمريكيَّة ـ العربية، كان مرغوباً بصورة مجردة، إلاَّ أن رئيسة الوزراء كانت تخشى أن تدفع إسرائيل الثمن. ولهذا كان توقيت الخطوة الثانية بمثابة مشكلة. وعزم كيسينجر استخدام الفترة التي لا يمكن تجنّبها، لتدعم مكاسب الجولة الأولى، ولوضع أساس الخطوة التالية بين سورية وإسرائيل.

وبدأ كيسينجر محاولة لإنهاء حظر النّفط، وفي الوقت نفسه وضع أرضية لاتفاق سوري ـ إسرائيلي. وكان نيكسون توّاقاً إلىٰ الإعلان عن انتهاء الحظر، في الخطاب السنوي عن «حالة الاتحاد» أمام الكونغرس في نهاية الشهر، وراح يقذف المصريين والسعوديين بوابل من الرسائل حول هذا الشأن[32]. وبدأ كيسينجر أيضاً في محاولة اختبار فكرة كان قد طرحها بتردّد، في رحلته الأخيرة إلىٰ سورية وإسرائيل؛ وهي أن تقدم سورية لائحة بأسرى الحرب الإسرائيليين، إلىٰ الولايات المتحدة، في مقابل أن تقدِّم إسرائيل اقتراحاً ملموساً لفكّ الاشتباك.

---

(32) هذه الرسائل التي يبدو أنها تلمح إلىٰ أن نيكسون يرغب في رفع الحظر لأسباب سياسة داخلية، ثبت فيما بعد أنَّها كانت أمراً محرجاً بالنسبة له. فحين قصرت السعودية في الوفاء بوعودها بأن ترفع الحظر، ألمح كيسينجر إلىٰ أنه قد يضطر إلىٰ نشر نصوص الالتزامات التي تعهّد بها فيصل. وردت السعودية بأنَّها أيضاً ربما كانت لديها بعض الرسائل المحرجة لتنشرها، وسرعان ما تم إسقاط هذا الموضوع. انظر Kissinger, Years of Upheaval, P. 947. كان (نيكسون) في الشهر العاشر لعذابه ما زال أسيراً لفكرة أن رفع الحظر بصورة مثيرة تحت قيادته شخصياً سيكون الدواء الناجع لمعاناته من فضيحة ووترجيت».

اقترحت الولايات المتحدة خطة على الأَسد في 5 شباط/ فبراير، مفادها أن تُعلم سورية الولايات المتحدة بعدد أَسرى الحرب الإسرائيليين، ثم تُنقل هذه المعلومات إلىٰ إسرائيل. وعندما تستلم إسرائيل الأسماء الحقيقية، تتقدَّم باقتراح محدد لانسحاب قوَّاتها. وبعد قيام الصليب الأحمر بزيارة الأسرى الإسرائيليين في سورية، يتولى كيسينجر نقل الاقتراح الإسرائيلي إلىٰ الأَسد، ويدعو وفداً إسرائيلياً إلىٰ واشنطن من أجل مزيد من المباحثات. ثم تبدأ المفاوضات في جنيف ضمن إطار فريق العمل العسكري المصري ـ الإسرائيلي القائم بالفعل. وفي 9 شباط/ فبراير وافق الأَسد على هذا الإجراء.

في 18 شباط/ فبراير قرّر نيكسون وكيسينجر إسقاط موضوع الحظر في الوقت الحاضر. وفي اليوم التالي أعلن نيكسون أن كيسينجر سيقوم بزيارة أخرى إلىٰ المنطقة. وفي يوم 25 شباط/ فبراير انطلق كيسينجر في زيارته الرابعة في خلال أربعة شهور.

دبلوماسيَّة المكوك

اجتمع كيسينجر مع الأَسد أربع ساعات ليلة 26 شباط/ فبراير، ثم اجتمعا ثانية في صباح اليوم التالي. وكانت المناقشات صعبة، ولكنها جرت في جوّ ودِّي، وأبدى الأَسد مرونة في القضايا الإجرائية، وصلابة في القضايا الجوهرية. وكما جرى الاتِّفاق سابقاً كان كيسينجر مفوضاً بأن ينقل إلىٰ الإسرائيليين، قائمة بأسرى الحرب، والتي كان قد تسلّمها فعلاً قبل أن يغادر واشنطن[33]. وستبدأ زيارات الصليب الأحمر، ويتوقع من إسرائيل أن تقدِّم اقتراحاً ملموساً بشأن فكّ الاشتباك. وأوضح الأَسد أنه إذا عرضت إسرائيل مجرد العودة إلىٰ خطوط وقف إطلاق النَّار عام 1967 فإنه سيقطع المباحثات.

---

(33) Brenard Gwertzman, «Israel and Syria to Confer in U. S,» New York Times, March 3, 1974, P. 1. تضمنت القائمة خمسة وستين اسماً، أي أكثر مما كان يتوقعه بعض المراقبين.

وكان كيسينجر ميالاً إلىٰ الاعتقاد بأنَّه جاد، وهذا ما أبلغه للإسرائيليين أثناء توقفه في إسرائيل يوم 27 شباط/ فبراير. ثم تركهم ليعدّون اقتراحهم في غضون الساعات الأربع والعشرين لحين عودته.

أثناء ذلك طار كيسينجر إلىٰ مصر لإجراء محادثات مع السَّادات. وكانت العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصرية تتطور بسرعة وعلى نحو جيد، وأُعيدت العلاقات الدبلوماسيَّة الكاملة في 28 شباط/ فبراير. ووجه السَّادات دعوة إلىٰ نيكسون لزيارة مصر. كما نُوقشت قضايا ثنائية، ومن بينها المساعدات، والآفاق الطويلة الأجل لمبيع الأَسلحة الأَمريكيَّة إلىٰ مصر بتمويل من العربية السعودية. وكان كيسينجر في ذلك الوقت يعتمد على نصيحة السَّادات اعتماداً كبيراً في كيفية التعامل مع الزعماء العرب الآخرين.

كان كيسينجر سعيداً في محادثاته مع السَّادات، وبدأ يعتمد على الزعامة المصرية للعالم العربي اعتماداً كبيراً. وإذا كان كيسينجر قد أخطأ مرة في الانتقاص من مكانة السَّادات ومصر، فقد بدا الآن وكأنه على وشك ارتكاب الخطأ المقابل.

وطار كيسينجر من مصر إلىٰ إسرائيل حيث تلقى الاقتراح الإسرائيلي. وكانت الخطة الإسرائيلية قد وُضعت بشكل أساسي على غرار الاتفاق المصري ـ الإسرائيلي لفصل القوَّات في كانون الثاني/ يناير، وتتضمَّن ثلاث مناطق: الأولى لإسرائيل، والثانية تحت إدارة الأُمم المتَّحدة، والثالثة لسورية ـ وكلها داخل الأَراضي التي استولت عليها إسرائيل في تشرين الأول/ أكتوبر 1973. ولا يقتصر الأمر على بقاء القنيطرة تحت السيطرة الإسرائيلية بالكامل، بل إن القوَّات الإسرائيلية سترابط وراء خطوط 6 تشرين الأول/ أكتوبر مباشرة.

خشي كيسينجر أن يرفض الأَسد الاقتراح، وأن تتوقف المحادثات عندئذٍ بصورة نهائية. ولذلك فإنه لم يقدِّم للأسد، عند وصوله إلىٰ دمشق ليلة الأول من آذار/ مارس (مارس) تفاصيل الخطة الإسرائيلية. وركَّز بدلاً من ذلك على

مفهوم المناطق ذات القوّات المحدودة، والمنطقة العازلة التابعة للأُمم المتّحدة. وحصل كيسينجر على موافقة سورية على إرسال موفد لها إلىٰ واشنطن لإجراء مباحثات في نهاية الشهر، تلي زيارة مشابهة يقوم بها مسؤول إسرائيلي. وغادر كيسينجر دمشق وليس في جعبته إلاّ القليل من إحراز تقدم جوهري، ولكنه توصل إلىٰ اتّفاق حول مزيد من تبادل وجهات النظر في الأسابيع القليلة القادمة. ولكي لا يكون أقل من السّادات في مشاعره الفيّاضة عانق الأَسد كيسينجر على الطريقة العربية لأول مرة. وبدأت تنشأ بين هذين الرجلين المختلفين تماماً علاقة شخصية يصعب توقعها ولكنها كانت حقيقيّة.

محطة كيسينجر التالية هي العربية السعودية، وكان هدفه هناك الحضّ ثانية على إلغاء حظر النّفط، والتماس التأييد لفكّ الاشتباك السوري - الإسرائيلي. كما ناقش كيسينجر مع السعوديين، سُبُل تعزيز العلاقات الثنائية الأمنية والاقتصادية. وطرحت فكرة تشكيل عدة لجان مشتركة، وتمَّ تنفيذها بالفعل، وهي ترمز بطريقة ملموسة إلىٰ رغبة كيسينجر في استخدام التقنية، والسّلاح الأَمريكي كعنصرين مكملين لجهوده الدبلوماسيَّة، بهدف وجود أَمريكي قوي في البلدان العربية الرئيسية.

وفيما كان كيسينجر يتجه عائداً إلىٰ بلاده في 4 آذار/ مارس، كانت اتّفاقية فكّ الاشتباك المصرية ـ الإسرائيلية قد نفّذت، واحتل كل فريق مواقعه الجديدة. وفي الوقت نفسه تزايد التوتر على الجبهة السورية، حيث بدأ الأَسد في إثارة خطر تجدد القتال. وعلى مدى الشهرين التاليين كان يرافق مفاوضات فكّ الاشتباك، قصف شديد وسقوط كثير من الضحايا في الجانب السوري. وبات من الواضح أن الأَسد أصعب في تعامله من السّادات، كما أن الإسرائيليين لم يكن وارداً في خاطرهم أي مسعى توفيقي.

تباحث كيسينجر بعد عودته إلىٰ واشنطن، مع نيكسون حول نتائج رحلته. وكان ثمة مسألة تقتضي قراراً رئاسياً بشأن الشروط التي تتسلم بموجبها

إسرائيل 2,2 بليون دولار، كمساعدة عاجلة لتغطية مشترياتها من العتاد العسكري. لم يعارِض نيكسون فكرة الضغط على إسرائيل، لأنَّه لم يكن راضياً عن الاقتراح الإسرائيلي الأخير لفكّ الاشتباك. لذلك فقد اتفق مع كيسينجر على تقديم المبلغ المذكور بصفة قرض في الوقت الحاضر، وأن يحتفظ الرئيس لنفسه حتى الأول من تموز/ يوليو، بحقّ التنازل عن جانب من القرض يصل إلىٰ 1,5 بليون دولار. وإذا أبدت إسرائيل استعداداً للتعاون فإنَّها تستطيع أن تتوقَّع قراراً رئاسياً لصالحها. وفي الوقت نفسه كان يجري إعداد قائمة المعونات للسنة المالية 1975، والتي ستتضمَّن لأول مرة منذ سنوات مبلغاً جيداً ـ 250 مليون دولار ـ لمصر، ومعونة لم يسبق لها مثيل للأردن مقدارها 207,5 مليون دولار[34]. وسيقتصر طلب المعونة لإسرائيل على مبلغ 350 مليون دولار، نظراً لأن الكونغرس سوف يزيد هذا المبلغ بدرجة كبيرة على أية حال. وبات من الواضح أن المساعدات ستصبح عاملاً مهمّاً في دبلوماسيَّة نيكسون وكيسينجر.

اعترف كيسينجر بصعوبة التوصل إلىٰ اتِّفاق، بين إسرائيل وسورية حول فكّ الاشتباك. والولايات المتحدة وحدها قد تكون القادرة على إقناع إسرائيل بتقديم التنازلات اللازمة، مستخدمة في ذلك جملة من الضغوط والإغراءات. ولكن كيف يمكن حمل سورية على اتخاذ موقف أكثر مرونة من الناحية العملية؟ وهل يمكن للسادات والزعماء العرب الآخرين أن يلعبوا دوراً؟ وماذا عن السوفييت الذين بدوا توّاقين للمشاركة في المفاوضات؟ وهل يمكن التأثير على الأَسد بتقديم مساعدة أَمريكيَّة؟ كان كيسينجر بحاجة إلىٰ وقت لاستكشاف

(34) طلب الملك حسين خلال زيارته لواشنطن في 12 آذار/ مارس 130 مليون دولار دعماً لميزانيته بالإضافة إلىٰ مبالغ أخرى كمساعدات عسكرية. وكانت الإدارة الأَمريكيَّة تبحث في ذلك الوقت منحه مائة مليون دولار أي حوالي ضعف ما قدمته له في العام السابق. وقد تم إرسال الطلب الرسمي لمساعدات الشرق الأوسط للعام المالي 1975 إلىٰ الكونجرس في 24 نيسان/ أبريل متضمناً مبلغ مائة مليون دولار لم يتم التعهد بها، تقدم فيما يعتقد كمعونة لسوريا إذا ما تم استئناف العلاقات الدبلوماسيَّة.

جميع هذه الاحتمالات، وأن يترك لكل فريق فرصة كي يعيد النظر في موقفه المعلن من فكّ الاشتباك.

كانت الأولوية لإنهاء حظر النّفط. وكان نيكسون قد أشار إلىٰ هذا الموضوع ثانية في مؤتمر صحفي يوم 6 آذار/ مارس. وكان من المقرّر أن يجتمع منتجو النّفط العرب في طرابلس قريباً. وإذا لم يتم رفع الحظر فسيتعرّض الجهد الدبلوماسي الأَمريكي للدمار. وبعد بعض التأخير أعلنت معظم الدول العربية المنتِجة للنفط في 18 آذار/ مارس، رفع حظر النّفط عن الولايات المتحدة مؤقتاً على الأقل.

عارضت سورية رفع الحظر. وكان كيسينجر يتطلّع بلهفة إلىٰ ممارسة ضغط عربي، لحمل الأَسد على قبول اتّفاق لفكّ الاشتباك. وكان بوسع كل من مصر والعربية السعودية والجزائر أن تضطلع بدور في هذا الشأن. وأراد كيسينجر أن يتأكّد من أن سورية ستكون معزولة، إذا ما تلقت عرضاً مقبولاً، أَو أن تأييدها سوف يقتصر على كتلة من الرافضين.

بات كيسينجر الآن بحاجة إلىٰ عرض إسرائيلي معقول، لإغراء الأَسد بالتقدم نحو تحقيق اتّفاق. وفي يومي 15 و19 من آذار/ مارس التقى كيسينجر مع وزير الخارجيَّة أبا إيبان. وشرح له استراتيجيته في محاولة فصل سورية عن الدول الثورية، وأكَّد على الحاجة إلىٰ حركة مستمرة على المسرح الدبلوماسي. على إسرائيل أن تنسحب إلىٰ خطوط 6 تشرين الأول/ أكتوبر، إن لم يكن أبعد من ذلك، وعليها أن تعيد القنيطرة. ولن يتوقع من إسرائيل في هذه المرحلة، أن تتخلّى عن مستوطناتها في الجولان. وعلى دايان أن يأتي باقتراح إسرائيلي، على أساس هذه الأفكار عند زيارته لواشنطن في وقت لاحق من الشهر.

في 24 آذار/ مارس انطلق كيسينجر إلىٰ الاتّحاد السوفييتي حيث سيحاول من بين أهداف أخرى، الحيلولة دون إعاقة السوفييت لجهوده، لتحقيق فكّ اشتباك على الجبهة السورية ـ الإسرائيلية. وخلال اجتماع دام ثلاث ساعات

ونصف يوم 26 آذار/ مارس، وصف بأنّه «الأصعب والأكثر جفاء» مع بريجينيف ومساعديه، قاوم كيسينجر الضغط السوفييتي لإعادة المفاوضات إلىٰ جنيف. أما الأمين العام بريجينيف، فقد اتهم كيسينجر، بخرق الاتّفاقات التي تتضمن عقد المحادثات تحت رعاية مشتركة أَمريكيَّة ـ سوفييتية، ونوَّه بالتأكيدات التي أُعطيت لوزير الخارجيَّة غروميكو في شهر شباط/ ڤبراير الماضي، بأن المفاوضات ستجري في جنيف. ودافع كيسينجر عن تصرّفه الذي جاء استجابة لطلب الأطراف الإقليمية. وهذه الاتّفاقات ما هي إلاَّ تمهيد لمباحثات التسوية النهائية التي ستُعقد في جنيف. ووجَّه بريجينيف إلىٰ كيسينجر، بسبب سخطه الواضح على التورط الأَمريكي المتزايد في العالم العربي، اتهاماً واضحاً بمحاولة إقصاء الاتّحاد السوڤييتي عن جوهر المفاوضات. وقال إن سورية تريد أن يكون السوڤييت حاضرين.

سارع كيسينجر إلىٰ مراجعة الأَسد، حول ما إذا كان حقاً يريد مشاركة السوفييت في هذه المرحلة. ورد الأَسد بطريقة غير مباشرة بأن الإجراء المتفق عليه، يقضي بأن يذهب دايان إلىٰ واشنطن ثم يتبعه ممثِّل عن سورية. وعقب هذا يمكن لفريق عمل عسكري، أن يضع تفاصيل اتِّفاق في جنيف بحضور سوفييتي.

التقى وزير الخارجيَّة كيسينجر، بعد عودته بوقت قصير من موسكو، مع دايان في واشنطن في 29 آذار/ مارس[35]. وكان دايان قد حمل معه طلباً للحصول على مقادير ضخمة من العتاد: ألف دبابة، وأربعة آلاف ناقلة جند مدرعة وغيرها، وكذلك حمل معه اقتراحاً حول خط فكّ الاشتباك يقع شرق خط 6 تشرين الأول/ أكتوبر، مع التأكيد على أن القوَّات الإسرائيلية ستبقى في

(35) أوشكت زيارة ديان على أن تلغى من جانب الإسرائيليين احتجاجاً على ما اعتبره انتهاكاً من مصر لشروط اتّفاقية فض الاشتباك. ووردت الإشارة إلىٰ النِّزاع حول هذه الانتهاكات في «Arabs Assess Talks Progerss,» Washington Post, March 26. 1974, P. A 13.

القنيطرة. انزعج كيسينجر من الاقتراح الإسرائيلي، الذي كان العنصر القيّم الوحيد ضمنه فكرة المنطقة العازلة، التي تحيط بهما منطقتان شرقاً وغرباً، تنتشر فيهما وحدات محدودة وحذّر كيسينجر الإسرائيليين، بأن الأَسد لن يقبل هذا الخط، ووصف اقتراحهم بأنَّه غير ملائم، ولكنه كرر القول إنه لا يتوجب على إسرائيل أن تتخلَّى عن أي من المستوطنات في هذه المرحلة.

فكّ الاشتباك

بعد أن حقَّق كيسينجر ما يكفي، في شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، لتسويغ جولة جديدة في إطار دبلوماسيَّة المكوك، انطلق إلىٰ الشرق الأَوسط في 28 نيسان/ أبريل. ولم يدر في خلده في ذلك الوقت، كم ستكون المفاوضات شاقة وطويلة. كان من الواضح بالنسبة له ولزملائه، أن اتِّفاق فكّ الاشتباك بين سورية وإسرائيل سيكون، أبعد منالاً بكثير من الاتِّفاق بين مصر وإسرائيل. ففي الحالة الأخيرة كان الطرفان يريدان اتفاقاً، وقد اقتربا أحدهما من الآخر إلىٰ اتِّفاق، حول المسائل الأساسية حتى قبل أن يبدأ كيسينجر رحلاته المكوكية. أما في حالة سورية ـ إسرائيل فقد كانت مواقف الطرفين متباعدة كثيراً، مع غياب الحوافز لتحقيق اتِّفاق، فضلاً عن أن الوضع على الأَرض موضوعياً، لم يكن يساعد كثيراً على تحقيق اتِّفاق، بالمقارنة مع الوضع في سيناء. وفوق كل ذلك كان يحكم كلاً من سورية وإسرائيل، ائتلافان مهزوزان بعض الشيء، ولم يكن بوسع أي منهما أن يظهر بمظهر المتساهل في المفاوضات.

إذا كانت الأطراف المحلية أقل اهتماماً بالتوصل إلىٰ اتِّفاق، فإن الولايات المتحدة كانت تواجه مخاطر أكثر من ذي قبل. إذ كان عليها، من ضمن أشياء أخرى، أن تحمي الاتِّفاق المصري ـ الإسرائيلي، وأن تعمل فوق ذلك على ازدهار العلاقات المصرية ـ الأَمريكيَّة. وإذا رفضت سورية التوصّل إلىٰ اتِّفاقية مماثلة لفكّ الاشتباك، فإن موقف السَّادات سيصبح مهدداً في العالم العربي، وقد تكسب كتلة الرفض المتطرفة مزيداً من النفوذ. كما يمكن أن تُستأنف

الحرب على الجبهة السورية، والتي يمكن أن تنجرّ إليها مصر. وبالإضافة إلىٰ الخطر المحتمل لنشوب حرب أخرى، فإن الوضع سيتيح للاتّحاد السوفييتي فرصاً جديدة، لإعادة تأكيد حضوره في المنطقة. وأخيراً فإن عدم التوصل إلىٰ اتّفاق قد يفرض حظراً جديداً مزعجاً على النفط.

تأكّد لكيسينجر أنّه سيواجه صعوبات كبيرة مع السوريين والإسرائيليين. ومن أجل أن يتعامل مع الأوائل اعتمد على حشد تأييد عربي قومي لجهوده. أما مع الإسرائيليين فلا بد، كالعادة، من الجمع بين العصا والجزرة. فقبل مغادرة كيسينجر إلىٰ الشرق الأوسط، تنازل نيكسون عن سداد مليار دولار من أصل 2,2 بليون دولار، قُدِّمت كمساعدة لتغطية مبيعات السِّلاح. وقد كان من شأن مبادرة كهذه في الظروف الطبيعية، أن توفِّر لكيسينجر استقبالاً ودياً في إسرائيل، ولكن الظروف لم تكن كذلك، وهو ما يعود جزئياً إلىٰ استمرار فضيحة ووترغيت.

شعر كيسينجر، بأنه يتعين على إسرائيل تقديم تنازلات بالنسبة لخط فكّ الاشتباك، وأن على السوريين الذين رفضوا أي تخفيض للقوّات، عدا منطقة عازلة ضيِّقة، أن يتراجعوا أيضاً. ولا بدّ له أولاً من أن يحصل على توافق حول الخط المقبول. ثم قد يتوفر الأمل في أن تتوالى عناصر أخرى.

لم تؤد مباحثات كيسينجر في إسرائيل، في الثاني من أيار/ مايو، إلىٰ أي شعور بالتفاؤل. فالإسرائيليون كانوا غاضبين من الولايات المتحدة بسبب تصويتها في الأُمم المتَّحدة، وكانوا عازفين عن إجراء أي تعديل للموقف الذي طرحه دايان في أواخر آذار/ مارس. لماذا ينبغي أن يُكافىء الأسد على حرب شنَّها ضد إسرائيل وخسرها؟ ولماذا يحظى الآن بعرض أفضل من السَّادات الأكثر تعقّلاً؟ وماذا يفيد المصالح الأمريكيَّة أن تسترضي أشد العرب تشدّداً؟ وماذا سيعتقد العالم إذا خضعت إسرائيل والولايات المتحدة لمثل هذا الابتزاز؟ وهكذا استمرت المجادلات إلىٰ أن وجد كيسينجر، أن لا مفر من اللجوء إلىٰ

نيكسون طلباً للمساعدة. فوجه نيكسون رسالة إلىٰ مائير في 4 أيار/ مايو يحذِّرها فيها من السماح لإسرائيل بأن تعرّض الاتجاهات المرغوبة في المنطقة للخطر. وإلاَّ فإن الولايات المتحدة، انطلاقاً من صداقتها لإسرائيل وشعورها بالمسؤولية، ستعيد النظر في العلاقة بين البلدين. وفي اليوم التالي، في دمشق، تجنّب كيسينجر إجراء مناقشة محددة للخط الإسرائيلي لفكّ الاشتباك. وبدلاً من ذلك أكّد للأسد ضعف الموقف الداخلي لرئيسة الوزراء مائير، والارتباط ما بين سياسة إسرائيل الداخلية وسياستها الخارجية. وأثار موضوع المعونة الأمريكيَّة لمساعدة سورية على إعادة الإعمار. وظل الأسد مُصرّاً على أن يكون خط فكّ الاشتباك إلىٰ الغرب من خط 6 تشرين الأول/ أكتوبر، ولكنه أبدى مرونة إزاء مسائل أخرى، مثل تحديد القوّات.

على مدى الأيام القليلة التالية، بدأت إسرائيل تعدل اقتراحها بشأن خط فكّ الاشتباك[36]. وسيعاد الآن جزء من القنيطرة إلىٰ سورية، على أن يبقى الجزء الغربي من المدينة تحت السيطرة الإسرائيلية. وأبلغ كيسينجر الإسرائيليين أن الأسد لن يقبل مثل هذا الترتيب. وفي 7 أيار/ مايو طار كيسينجر إلىٰ قبرص ليطلع غروميكو على المحادثات، ووجد أن السوفييت كانوا مستعدين للمحافظة على الحياد[37].

ورغم إحراز بعض التقدّم في إسرائيل في يومي 6 و7 أيار/ مايو، لم يكن كيسينجر متفائلاً. وفي زيارته لدمشق يوم 8 أيار/ مايو، كشف للأسد عن بعض تنازلات إسرائيل، وحجب عنه الباقي، حتى يكون لديه ما يقدِّمه في زياراته التالية. وكان هذا التاكتيك خطراً، بيد أن كيسينجر شعر بضرورة تفادي إثارة

---

(36) يقدم Kissinger, Years of Upheaval, PP. 1052-1110 بياناً مفصلاً للجولات المكوكية بين دمشق والقدس. ويغطي Sheehan, Arabs, Israelis, PP. 94-106 هذه الفترة، بما فيها نصوص لبعض المحادثات التي دارت بين كيسينجر ومائير. انظر أيضاً Golan, Secret Conversations of Kissinger, P. 194.

(37) بيد أن البرافدا حذّرت الأسد في 20 أيار/ مايو 1974 ألا يقنع بأنصاف الحلول.

شهية الأَسد، التي انفتحت على تنازلات إسرائيلية، وأراد أن يبدو قادراً على إحراز تقدم مستمر[38]. وعلى أية حال بدأ الأَسد يوم 8 أيار/ مايو، يتحدَّث بجدية عن خط يمتد على مقربة من الخط الذي اقترحته إسرائيل[39]. وبقيت القنيطرة والتلال الثلاثة المحيطة بها عقبة كأداء في طريق أي تقدّم.

جُوبه كيسينجر بالجمود في لقائه مع الأَسد يوم 11 أيار/ مايو. فقد أصرّ الأَسد على (إجلاء) كل القنيطرة والتلال الثلاثة المحيطة بها. ولم تكن إسرائيل مستعدة للتنازل عن التلال، «جبال هيمالايا الجنرال غور» على حد تعبير كيسينجر. ولكنه في 11 أيار/ مايو، حصل على موافقة إسرائيل بوجود مدني سوري في كل القنيطرة، مع تنازلين صغيرين آخرين[40]. وقرَّر القيام بزيارة أخيرة إلىٰ دمشق في 14 أيار/ مايو، ثم يعود بعد ذلك إلىٰ واشنطن. وفي دمشق وجد الأَسد غير راضٍ عن الاقتراح الإسرائيلي الأخير، وأصرّ على أن يمتد الخط عبر قمم التلال، وأن ترابط وحدات الأُمم المتَّحدة في هذه التلال، وليس الإسرائيليون. وهنا أصبحت المساومة على بضع مئات من الأمتار، ولكن أياً من الطرفين لم يكن مستعداً للتنازل[41].

عند هذه النقطة ألقى نيكسون بثقله وراء كيسينجر، وحضّه على الاستمرار في العمل من أجل تحقيق اتِّفاق، ووعده بالمساندة الكاملة. وإذا ظلَّت إسرائيل على عنادها، فإن نيكسون كان مستعداً للذهاب إلىٰ أبعد مدى إذا لزم الأمر. وفي 14 أيار/ مايو طلب قائمة بجميع المساعدات العسكرية

(38) أقر السادات للأسد تماماً بهذا النهج.

(39) Golan, Secret Conversations of Kissinger, p. 196; and Bernard Gwertzman,» Syria-Israel Gain Seen by Kissinger,: New York Times, May 9, 1974, p. 1.

(40) أرسل نيكسون خطاباً إلىٰ مائير يوم 10 أيار/ مايو يعرب فيه عن اهتمامه بالتوصل إلىٰ اتفاق.

(41) كان الأَمريكيون يتوقعون مفاوضات صعبة حول القنيطرة. وقد حضروا مسلحين بصورة جوية كبيرة للمنطقة. وقد استخدمت هذه الصور بالفعل في رسم الخطوط النهائية بدلاً من الخرائط نظراً لتفاصيلها التي اتسمت بدقة غير عادية.

والاقتصادية الموعودة لإسرائيل، بما في ذلك إجمالي التبرعات الخاصة، المعفاة من الضرائب، لإسرائيل[42]. وطلب أيضاً عرض أفكار حول تقديم المعونة لسورية كحافز محتمل.

كان هذا ما يخشاه الإسرائيليون منذ زمن: الضغط عليهم وتقديم المساعدات للعرب. بيد أن نيكسون في هذه اللحظة، لم يقطع المساعدة عن إسرائيل. وعلى العكس فإن المفاوضات سارت قُدُماً، فيما كان كيسينجر يغدو ويروح في جولاته المكوكيّة. وقرَّر كيسينجر، بتشجيع من بعض الوزراء الإسرائيليين، أن يبدأ يوم 15 أيار/ مايو بعرض أفكاره الخاصة في مباحثاته مع الأسد والإسرائيليين. وكما فعل في كانون الثاني/ يناير عندما ضاقت الفجوة، فإنَّه سيحاول إيجاد تسوية تحقِّق لكلا الجانبين، عدم المساس بمصالحه الشخصية. ولعل السوريين قد يجدون أفكاره أكثر قبولاً من أفكار الإسرائيليين.

في 16 أيار/ مايو نجح كيسينجر في إقناع الإسرائيليين بالانسحاب إلىٰ سفوح التلال. وطار من فوره إلىٰ دمشق لاختبار الأفكار التي طرحها بنفسه[43]. وفي اليوم التالي أعلم الرئيس نيكسون، أنه بات قاب قوسين أو أدنى من تحقيق اتِّفاق حول خط فكّ الاشتباك. بيد أنه في زيارته لدمشق يوم 18 أيار/ مايو بدا أن الثغرة المتبقية يصعب ردمها. وقرَّر كيسينجر أن يغادر، وبدأ يعد مسودة بيان المغادرة، وبعث بحقائبه إلىٰ الطائرة. وفي اللحظة الأخيرة

---

(42) يروي Kissinger, Years of Upheaval, p. 1078 أوامر نيكسون بقطع كافة المعونات عن إسرائيل. إلاَّ أنه في سياق الهجوم الإرهابي الفلسطيني على الإسرائيليين الذي وقع في معلوت يوم 15 أيار/ مايو أحس كيسينجر أن مثل هذا الإجراء سيكون غير ملائم وأعرب عن معارضته له.

(43) أبلغ كيسينجر نيكسون بعد أربع ساعات قضاها مع رئيسة الوزراء مائير وثماني ساعات مع الرئيس الأسد، أن يوم 16 أيار/ مايو كان أصعب أيام حياته، فقد كانت إسرائيل في اليوم السابق في صدمة من جراء مذبحة معلوت التي لقي فيها العديد من تلاميذ المدارس مصرعهم مما أسهم في خلق مزاج معارض في إسرائيل تجاه تقديم تنازلات لسوريا، وزاد من صعوبة مهمة كيسينجر.

أسقط الأَسد إصراره على الإشراف على التلال الواقعة غرب القنيطرة، وحثّ كيسينجر على متابعة المحاولة للوصول إلىٰ اتّفاق. وتستطيع إسرائيل أن تحتفظ بالتلال إذا ضمن له كيسينجر عدم وضع أَسلحة ثقيلة هناك قادرة على ضرب القنيطرة. وفي 19 أيار/ مايو تمكّن كيسينجر من الحصول على استجابة إسرائيل لطلب الأَسد، وعاد في 20 أيار/ مايو إلىٰ دمشق ومعه خريطة بالخط المقبول.

وعندما أصبح الاتّفاق على خط فكّ الاشتباك مضموناً، برزت مشكلة تحديد القوات وحجم المناطق المحدودة السّلاح[44]. وبالإضافة إلىٰ ذلك أراد الأَسد من إسرائيل أن تتخلّى عن جميع المواقع على قمة جبل الشيخ، وأن تتواجد قوة صغيرة تابعة للأُمم المتّحدة في المنطقة العازلة. بينما فضّلت إسرائيل ألا تقل قوّات الأُمم المتّحدة عن ألفين إلىٰ ثلاثة آلاف جندي. وبعد يومين من الأخذ والردّ حول هذه المسائل، بدأ كيسينجر يوم 22 أيار/ مايو، يفقد حماسته. ومرة ثانية عكف على إعداد بيان الرحيل، وعزم على المغادرة في اليوم التالي. ولكن مصر كانت قد أوفدت الفريق الجمسي إلىٰ سورية، وعند عودة كيسينجر إلىٰ دمشق في 23 أيار/ مايو، غيّر الأَسد موقفه، ووافق على قوة كبيرة للأُمم المتّحدة، وعلى منطقة عازلة أكبر بعمق 10 ك م، ومناطق محدودة القوّات بعمق 15 ك م. ولكنه ظل يصرّ على حجم كبير نسبياً من التسليح في المناطق المحددة السّلاح، كما وافق على مفهوم نُفِّذ على الجبهة المصرية يقضي بالاحتفاظ بصواريخ أرض ـ جو ومدفعية ثقيلة بعيدة عن مدى الطرف الآخر. وعندما عاد كيسينجر إلىٰ إسرائيل يوم 24 أيار/ مايو، واجه مطالب إسرائيلية بأن يلتزم الأَسد بمنع الهجمات الإرهابية من وراء خطوطه. كما طالبت إسرائيل بعدم انسحاب قوات الأُمم المتّحدة إلاّ بموافقة طرفي الاتّفاقية. وطالبت أيضاً بالحصول على تأكيدات، تتعلّق بإمدادات عسكرية

(44) «Two Issues Said to Delay Troop-Separation Accord,» New York Times, May 23, 1974, p. 1.

طويلة المدى. وعند هذه المرحلة كانت رئيسة الوزراء مائير، ووزير الدفاع دايان، متعاونين ومرنين للغاية في إعداد التفاصيل النهائية للاتّفاق.

وفي 26 أيار/ مايو بدأ وضع مسودة الوثائق النهائية. ولكن كيسينجر أحسّ بالذعر، عندما عاد الأَسد إلىٰ إثارة المسائل التي كان يعتقد أنَّها قد سُوِّيت. ومرة أخرى بدا كما لو أن المباحثات على وشك الانهيار[45]. وفي 27 أيار/ مايو تراجع الأَسد، وبعد عشر ساعات من المباحثات، وافق كيسينجر على القيام برحلة أخرى إلىٰ إسرائيل، من أجل الوصول إلىٰ حلول وسط حول عدد من النقاط. وفي يوم 28 أيار/ مايو، وبعد أربع ساعات من المباحثات المنفردة، أعطى الأَسد التزاماً شفوياً بأنه لن يسمح بأن يكون خط فكّ الاشتباك من الجانب السوري، مصدراً لهجمات إرهابية ضد إسرائيل. وبحصوله على هذا التنازل طار كيسينجر إلىٰ إسرائيل، وفي يوم 29 أيار/ مايو تم الإعلان عن أن سورية وإسرائيل قد توصلتا إلىٰ اتِّفاق حول شروط فكّ الاشتباك. وبعد يومين وقَّع ممثلون عسكريون سوريون وإسرائيليون الوثائق الضرورية في جنيف[46].

يتكوَّن الاتِّفاق من وثيقة علنية، وخريطة، وبروتوكول بشأنه وضع قوَّات الأُمم المتَّحدة، وعدة رسائل سرِّيَّة بين الولايات المتحدة والطرفين، تتناول بالتفصيل التفاهمات حول مستوى القوَّات وشؤون أخرى[47]. وتضمَّنت اتِّفاقية تحديد حجم القوَّات، تعيين منطقة عازلة تابعة للأُمم المتَّحدة موازية لخط ما بعد 1967 بما في ذلك مدينة القنيطرة. وفي منطقتين بعمق 10 ك م شرقي المنطقة العازلة وغربها يحقّ لكل من الطرفين، وضع لواءين، على ألا يزيد

(45) Sheehan, Arabs, Israelis, p. 126.

(46) ظلت سوريا تحاول حتى 2 حزيران/ يونيو إحداث تغييرات في خط فض الاشتباك، ورفضت إسرائيل ذلك.

(47) بالنسبة لنص الاتّفاقية، انظر Arab Report and Record, May 16-31, 1974, p. 215.

على 6 آلاف فرد مع 75 دبابة و36 بطارية مدفعية قصيرة المدى (122 مم). وفي المناطق المتاخمة وعلى عمق 10ك م لا يسمح بوجود مدفعية يزيد مداها على 20ك م ولا يزيد عددها على 162 بطارية مدفعية، ولا يسمح بنصب صواريخ أرض ـ جو أقرب من 25ك م من خطوط الجبهة. وتتمتّع قوّات الأُمم المتّحدة لمراقبة فكّ الاشتباك (UNDOF) بحق التفتيش في هذه المناطق. وتقوم طائرات الاستطلاع الأَمريكيّة، برحلات استطلاعية على غرار ما هو جارٍ بالنسبة لاتّفاقية كانون الثاني/ يناير المصرية ـ الإِسرائيلية. كما تمّ التوصّل إِلىٰ اتّفاق حول تبادل الأسرى، وصرّح كلا الطرفين أن اتّفاق فكّ الاشتباك، ما هو إِلاّ مجرد خطوة نحو سلام عادل ودائم على أساس قرار الأُمم المتّحدة 338.

وفي 29 أيار/ مايو كتب نيكسون إِلىٰ الأَسد، رسالة يؤكّد فيها أن إِسرائيل سوف تلتزم بوقف إطلاق النّار في التلال المحيطة بالقنيطرة، وبعدم تواجد قوّات أَو أَسلحة إِسرائيلية على المنحدرات الشرقية للتلال، وبعدم وجود أَسلحة على التلال يصل مداها إِلىٰ القنيطرة. كما أبلغ نيكسون الإِسرائيليين أن الفقرة الأخيرة من الاتّفاق المعلن، ينبغي أن تفسّر على أن غارات الفدائيين تتعارض مع وقف إطلاق النّار، وأن الولايات المتحدة تعترف بحق إِسرائيل في الدفاع عن النفس في حال حدوث انتهاكات. وأصرّ الإِسرائيليون كالعادة على مذكرة تفاهم تتناول احتمالات، مثل انهيار وقف إطلاق النّار من جانب سورية، وتحديد خطّا المفاوضات. وتعهدت الولايات المتحدة للسوريين بالعمل على التنفيذ الكامل بقرار الأُمم المتّحدة 338.

وبتوقيع الاتّفاق بين سورية وإِسرائيل، وكذلك الاتّفاقات الجانبية التي تمّ تبادلها عن طريق الولايات المتحدة، أمكن لنيكسون وكيسينجر أن يشيرا إِلىٰ إنجاز متميّز آخر في دبلوماسيَّة الشرق الأَوسط التي انتهجاها. كانت الخطوة في حدّ ذاتها متواضعة، ولكنّها في ضوء التاريخ الحديث للعلاقات السورية ـ الإِسرائيلية تُعتبر خطوة جوهرية حقاً. ويبقى السؤال المحيّر: هل كانت خطوة

نحو اتّفاق سلام أشمل، أم أنّها مجرد فترة هدوء، قبل نشوب جولة جديدة من القتال في وقت لاحق. وهل كان كيسينجر عازماً على مواصلة جهوده، أم أنّه ـ بعد شهر كامل من المفاوضات المنهكة والعسيرة من أجل نتائج محدودة ـ سيستخلص استحالة تحقيق مزيد من التقدّم؟ وهل تبقى «الخطوة ـ خطوة» أسلوبه التاكتيكي المفضل، وإذا كان الأمر كذلك، فأين تكون الخطوة التالية؟ لا بدّ من مواجهة هذه الأسئلة في المستقبل القريب. ولكن الرئيس نيكسون كان يريد أن يجني ثمار الجهود التي بذلها كيسينجر أولاً، وذلك من خلال القيام بجولة خاطفة في الشرق الأَوسط، لعل ترحيب الجماهير المصرية تصرف ذهنه بعيداً عن ووترغيت.

رحلة نيكسون إلى الشرق الأَوسط

كانت رحلة الرئيس نيكسون إلى الشرق الأَوسط أمراً غير مألوف[48]. من المؤكّد أن حاشية كبيرة من المساعدين ورجال الأَمن والصحفيين كانت ترافقه. كما أن إعداد جميع تفاصيل الزيارة تمّ على يد رجال ذوي خبرة. وقد وجدت الحكومات المحلية، وكأنّها قد غُزيت بجيش من التقنيين، وخبراء العلاقات العامّة، وطواقم التلفزة الأَمريكيين ومن يلوذ بهم.

ولم يكن نيكسون نفسه في صحة جيدة، فقد كانت قدمه ملتهبة ومتقرحة، بسبب هجمة خفيفة من التهاب الوريد. كما أن حالته النفسية لم تكن صافية بدورها[49]. وعلى مدى بضعة أيام تالية بدا كيسينجر عابساً في الصف

---

(48) Kissinger, Years of Upheaval, pp. 1123-43; and Richard M. Nixon, RN: The Memoirs of Richard Nixon (Grosset and Dunlap, 1978), pp. 1007-18.

(49) لم يستطع نيكسون مطلقاً التغلّب على إيمانه بخطة أيزنهاور ـ شتراوس الخاصة بتحقيق السَّلام في الشرق الأَوسط عن طريق جعل الصحراء زاهرة من خلال توفير المياه العذبة التي تنتجها محطات لتحلية المياه تعمل بالطاقة النووية. ومثل العديد من الأفكار الرديئة، فإن هذه الفكرة كان من الصعب التخلّص منها، وكان عرض تزويد مصر وإسرائيل بمحطات للطاقة النووية صورة أخرى لهذه الفكرة.

الخلفي، فيما كان نيكسون يحظى باستقبال حماسي لا يصدق في القاهرة والإسكندرية. وذهب السادات بعيداً في التأكيد على الصفحة الجديدة في العلاقات الأَمريكيَّة المصرية، التي ساعد على فتحها. كان الرجلان على خير ما يرام، وقد نجحت الجماهير المحتشدة في رفع معنويات نيكسون المتردية.

طار نيكسون إِلىٰ السعودية، في زيارة استغرقت يومي 14 و15 حزيران/ يونيو، وفي محادثاته، ركّز بالدرجة الأولى على تعزيز العلاقات الثنائية والنّفط. ثم اتّجه بعد ذلك إِلىٰ دمشق حيث كان الاستقبال متحفّظاً بعض الشيء، وأجرى محادثات ودِّيَّة مع الرئيس الأَسد. وعادت العلاقات الدبلوماسيَّة بين البلدين كاملة يوم 16 حزيران/ يونيو. كما بحث مع الأَسد الخطوات التالية في عمليَّة صنع السَّلام. وقال نيكسون إنه ينبغي على مؤتمر جنيف أن ينعقد في أيلول/ سبتمبر. واعترت الأَسد مشاعر البهجة والدهشة، وهو يستمع إِلىٰ شرح نيكسون، بأن الهدف من دبلوماسيَّة الخطوة خطوة، هو إقناع الإِسرائيليين بالانسحاب تدريجياً على الجبهة السورية، إِلىٰ أن يصلوا إِلىٰ حافة مرتفعات الجولان، ثم ينحدرون منها ويعودون إِلىٰ الحدود القديمة[50]. الصورة كانت خيالية، ولكن السوريين أخذوها على محمل الالتزام بالعمل، من أجل انسحاب إِسرائيلي كامل. ولدى مغادرة دمشق أعد نيكسون قائمة طويلة بمشروعات المساعدة المحتملة، التي يمكن تقديمها إِلىٰ سورية. وكان يخشى أن يطلب الأَسد إغراءات كبيرة، من أجل أن يحافظ على سلوكه الحسن.

وفي المحطة التالية، إِسرائيل، شعر نيكسون بأنه بين أهله أكثر من ذي قبل. ولكن نظيره المضيف لم تعد غولدا مائير، صديقته وخصمه الجدير بالتقدير في الأَزمات السابقة، بل بات إسحاق رابين رئيس الوزراء الذي لم يكن معروفاً جيداً، على الرغم من السنوات التي أمضاها سفيراً في واشنطن.

---

(50) Kissinger, Years of Upheaval, p. 1134.

وتحدَّث نيكسون بشيء من الإسهاب، عن أهمية التعامل بسرعة مع الملك حسين حول مصير الضفة الغربية. وألمح إلىٰ أنَّه من الأفضل التعامل مع الحسين اليوم، من التعامل مع عرفات غداً[51]. ولدى مناقشته قضية الإرهاب أدهش نيكسون مضيفيه، عندما قفز من مقعده قائلاً إن هناك طريقة واحدة للتعامل مع الإرهابيين. وراح يطلق النار من مدفع رشاش خيالي، باتجاه أعضاء الوزارة المجتمعين، على طريقة رجال العصابات في شيكاغو. كان تصرّفاً غريباً من رئيس غريب. هل هو أفضل صديق لإسرائيل أم أنه عدو خطر؟ كان الجواب صعباً.

وفي التاسع عشر من حزيران/ يونيو عاد الرئيس إلىٰ واشنطن. وبعد ثلاثة أيام استكملت اللجنة القضائية جلسات الاستماع، التي تابعها الجمهور باهتمام شديد على شاشات التلفزة، في الوقت الذي كان الرئيس يقوم بجولته في الشرق الأوسط. وفي 24 حزيران/ يونيو أصدرت اللجنة أربع مذكرات استدعاء أخرى بحقّه. وفي اليوم التالي غادر نيكسون البلاد متوجهاً إلىٰ موسكو. كانت شؤون الدولة توفِّر له بعض الراحة من ووترغيت، وكان واثقاً من أن الزعماء السوفييت لن يأخذوا الاتهامات الموجهة إليه، بعرقلة العدالة وسوء استعمال السلطة، على محمل الجد.

وعند العودة إلىٰ واشنطن وافق نيكسون في اليوم الأخير من السنة المالية، على إعفاء إسرائيل من سداد 500 مليون دولار من حساب شراء الأسلحة، بمثابة جزرة أخرى لإسرائيل توقعاً للمفاوضات بينها وبين الأردن. وثابر كل من نيكسون وكيسينجر طوال شهر تموز/ يوليو على الضغط لتحقيق اتِّفاق[52].

---

(51) Golan, Secret Conversations of Kissinger, pp. 214-17.

(52) يدعي كيسينجر Secret Conversations of Kissinger, pp. 220-21 أنه تم تأجيل شحنات السلاح كنوع من الضغط على إسرائيل.

كان السادات على استعداد لمراجعة موقفه السابق، وتأييد الملك حسين متحدثاً باسم الفلسطينيين المقيمين في المملكة الأردنية الهاشمية[53]. أما الحكومة الإسرائيلية التي كانت تلهو بصيغة تسمح لإسرائيل بالتحدّث إلىٰ منظمة التحرير الفلسطينية، إذا أنهت الأخيرة أعمال الإرهاب وقبلت بوجود إسرائيل، فإنَّها سرعان ما قلبت موقفها، وعادت إلىٰ الموقف القائل، إن الأردن هو المتحدِّث باسم الفلسطينيين[54]. وفي 21 تموز/ يوليو رفض مجلس الوزراء الإسرائيلي فكرة فكّ الاشتباك على طول نهر الأردن، وأخفق كيسينجر في مباحثاته مع وزير الخارجيَّة آيغال آلون في الأسبوع التالي في حثّ الإسرائيليين على تغيير موقفهم[55].

وفي الوقت نفسه، في غضون الأسبوعين ونصف التي تلت، وصلت أزمة ووترغيت إلىٰ ذروتها، عندما شرعت «اللجنة القضائية» التابعة لمجلس النوَّاب، في التصويت على ثلاث مواد من قرار الاتهام. وفي 8 آب/ أغسطس أعلن الرئيس أنه سيستقيل من الرئاسة، وهي الاستقالة التي ستصبح نافذة ظهر اليوم التالي. وأدَّى خليفته جيرالد فورد اليمين القانونية، ليصبح أول رئيس غير مُنتخَب في تاريخ البلاد.

تقييم سياسة نيكسون الشرق أَوسطية

يستحيل أن نعرف عن يقين، ما إذا كانت السياسة الأَمريكيَّة تجاه الشرق

---

(53) البيان المصري الأردني المشترك و19 تموز/ يوليو 1974 وفي Foreign Broadcast Information Service, Daily Report: Middle East and North Africa, July 19, 1974, p. D 1.

(54) صرَّح أهارون ياريف وزير الإعلام في تموز/ يوليو 1974 بأنه «من الممكن إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية شريطة أن تعلن المنظمة استعدادها للدخول في مفاوضات، مع الاعتراف بوجود الدولة اليهودية في إسرائيل وإيقاف كافة الأَمال العدائية ضدها. «Israel for the First Time, Gives Basis of Talks with Palestinaisn,» New York Times, July 13, 1974, p. 1.

(55) Golan, Secret Conversations of Kissinger, pp. 220-22.

الأَوسط بعد حرب تشرين/ أكتوبر 1973، ستختلف جوهرياً، لولا الآثار الضارّة لفضيحة ووترغيت. تبدو الإجابة سلبية بصورة عامة. فالسياسة التي نشأت عن حرب تشرين/ أكتوبر لم يكن لها علاقة ذات شأن بووترغيت. فهي سياسة كانت تهدف إِلىٰ إنهاء الضغوط المتعددة التي ولدتها الحرب. والتي وضعت الولايات المتحدة، في موقع ممارسة التأثير على عمليَّة السَّلام بين إِسرائيل وجاراتها العربيات. ولم يكن بالإِمكان جعل مستوى الالتزام ومقدار الجهود المبذولة في هذه السياسة أعلى من ذلك. كما لم يكن يبدو من الممكن السير في هذه الدبلوماسيَّة بخطى أسرع، أَو تحقيق اتِّفاقيات جوهرية أكثر. فقد كان الإِسرائيليون والمصريون والسوريون، يعملون تحت وطأة قيود ثقيلة. إذ حتى اتِّفاقيات فكّ الاشتباك المتواضعة، كانت عامل ضغط على أنظمتهم السياسية إِلىٰ حد الانهيار تقريباً.

وإذا كنا نريد أن نحكم على مدى جدارة دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة التي انتهجها كيسينجر، فإِنَّها ذات جدارة عالية على المستوى التاكتيكي، ولكنَّها أخفقت في نقل أي شعور بالغاية بعيدة المدى. فكسب بضعة كيلومترات أَو خسارتها في سيناء أَو الجولان لم يكونا بالتأكيد يستحقان أَزمات الثقة المتكرِّرة مع إِسرائيل، ولا عروض المساعدة السخية مع جميع الأطراف. أما تبرير كيسينجر لجهوده فأنه لولا اتِّفاقيات فكّ الاشتباك لنشبت حرب أخرى، مترافقة مع حظر آخر للنفط، وعودة للنفوذ السوفييتي إِلىٰ العالم العربي. والحيلولة دون هذه الهزَّات، كانت مبرراً كافياً لأسفاره الكثيرة، وانغماسه في مفاوضات فكّ الاشتباك.

كان كيسينجر يعرف ما يريد أن يتجنّبه على نحو أفضل، من معرفته للأهداف الإيجابية التي كان من الممكن أن يحقِّقها. فقد كانت حرب تشرين/ أكتوبر المرجع الفوري الذي يعود إليه. إذ كان الدرس البسيط المستخلَص من تلك الأَزمة، أن الوضع القائم في الشرق الأَوسط متقلِّب وخطير، وقد يتفاقم

مخلفاً عواقب وخيمة، على مصالح الولايات المتحدة الكونية والإقليمية. وبالتالي كان لا بدّ من العمل على استقرار الوضع القائم، من خلال الجمع ما بين الدبلوماسيَّة وشحنات الأَسلحة. كما يتعيّن البدء بعمليَّة سياسية تقدم للعرب بديلاً عن الحرب، على أن تُنفَّذ بخطى يمكن أن يقبلها الإِسرائيليون. وكان ذلك هو سقف عمليَّة تشكل المفاهيم الأولية لدى نيكسون وكيسينجر. لم تكن هناك خطة سلام أَمريكيَّة شاملة، وهي ما جرت تجربته عام 1969 وأخفقت التجربة.

ولكن هل كان بوسع أطراف المفاوضات، بدون صورة مقنعة حول توجه دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة، أن يتصدوا لمسائل جوهرية مثل السَّلام، والأمن، والفلسطينيين؟ وهل كان بوسع الولايات المتحدة أن تبقى غير ملتزمة بالنتائج إِلىٰ ما لا نهاية؟ والردّ بالتأكيد هو النفي، فقد وجد نيكسون نفسه في أواسط عام 1974، يقدم تعهدات خاصة إِلىٰ كل من السَّادات والأَسد ورابين وحسين حول توجه الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة.

كان بوسع دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة في ظل قيادة رئاسية قوية، أن تتحوَّل إِلىٰ بحث عن تسوية أوسع تضم الأردن والفلسطينيين. وبدلاً من ذلك كانت الولايات المتحدة غارقة في أَزمة سلطة لم يسبق لها مثيل، ولم يكن من المحتمل بالنسبة لخليفة نيكسون أن يعطي إحساساً واضحاً بأهداف في السياسة الخارجية. وهكذا بقيت دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة، بمثابة تاكتيك لكسب مزيد من الوقت، أي إجراء منفصل عن المفهوم السياسي الأشمل للسلام في الشرق الأَوسط. وإزاء عدم قدرة كيسينجر على التحرّك إِلىٰ ما هو أبعد من دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة، وخوفه مع ذلك من فقدان قوة الدفع إذا لم تتحقَّق أية نتائج. فقد اضطر إِلىٰ مواصلة البحث عن حلول جزئية، سواء على الجبهة الأردنية أَو الجبهة المصرية. وضاعت الفرصة لوضع سياسة أكثر طموحاً عندما اضطر

نيكسون للاستقالة، وكان لا بدّ أن يمضي وقت طويل قبل أن تبزغ مبادرة أَمريكيَّة جديدة في الشرق الأَوسط[56].

رئاسة فورد

كان جيرالد فورد رئيساً غير متوقع. وهو لم يسع إِلىٰ المنصب، فقد كان طموحه السياسي، بوصفه عضواً قديماً في مجلس النواب، أن يصبح رئيساً للمجلس ـ إِلىٰ أن اختاره نيكسون نائباً له في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973 عندما استقال نائب الرئيس سبيرو أغينيو. وفي غضون أقل من سنة، وتحديداً في 9 آب/ أغسطس 1974، أتى به الفصل الأخير من فضيحة ووترغيت إِلىٰ «المكتب البيضاوي».

كان هذا الرئيس مختلفاً عن سابقيه. فهو لم يُنتخب. وجاءت شعبيته في البداية مما كان يبدو عليه من أمانة وصدق، وليس من الثقة في قدرته أَو زعامته. وحتى هذه الشعبية بدأت تضعف بعدما عفا عن ريتشارد نيكسون. وكان من الواضح أن السياسة الخارجيَّة ليست ميدان خبرته. وبدا من المرجح أنه سينزل عند إرادة وزير خارجيَّته، ومستشاره للأمن القومي الذائع الصيت هنري كيسينجر. ولكن هل كان بوسع كيسينجر أن يظل بمثل فعاليته في الماضي، بدون وجود رئيس قوي يدعم مبادراته؟ وبالرغم من أن كيسينجر كان لديه بعض المخاوف تجاه نيكسون، إِلاَّ أنه كان معجباً بحسمه ورغبته في ركوب المخاطر. فهل كان لدى فورد الخصال ذاتها؟

---

(56) هناك اعترف في Kissinger, Years of Upheaval, p. 1247, note 1 من جانب كيسينجر بصحة هذا النقد، ولكنه يرى أنه في أعقاب حرب تشرين 1973 مباشرة لم يكن هناك ما يصلح سوى نهج الخطوة خطوة. وإنني أتفق بالنسبة لتلك الفترة، ولكني أعتقد أنَّه كان من الممكن أن نفعل أكثر مما فعلنا تأسيساً على اتّفاقية فض الاشتباك الثانية لو لم تكن سلطة الرئاسة قد ضعفت إِلىٰ هذا الحد. خلاصة القول إن التأثير الأَمريكي كان من الممكن أن يغيّر من الأمر، ولكنه لم يكن موجوداً اعتباراً من منتصف عام 1974.

لم يكن يُعرف بصورة عامة، إلاَّ القليل عن آراء فورد في ميدان السياسة الخارجيَّة. فهو كعضو في الكونغرس كان يؤيِّد سياسة دفاعية قوية، كما أنه ساند نيكسون في سياسته في جنوب شرق آسيا. وكان معروفاً بأنه صديق جيد لإسرائيل، وفيما عدا ذلك لم تكن أفكاره بشأن الشرق الأَوسط ثابتة. وكان من المرجح أن يمضي بعض الوقت قبل أن تتبين سياسة خارجيَّة متميزة لفورد، فيما سيظل كيسينجر يمارس مسؤولياته[57].

لعل كيسينجر كانت لديه شكوكه حول جدوى الاستمرار في السعي لعقد اتِّفاقيات سياسية، على كل جبهة عربية على حدة. ولكن ما هي البدائل؟ فالمفاوضات الدولية في جنيف، كانت محتومة الفشل إذا لم يُعد لها بعناية مسبقاً. وكان الإسرائيليون حذرين من جنيف، كما كان كيسينجر نفسه يعارض إعادة الاتّحاد السوفييتي إلىٰ تحركات صنع السَّلام. وكان فرض تسوية أَمريكيَّة ـ سوفييتية يتطلَّب درجة أعلى من الاتِّفاق بين الدولتين العظميين مما هو قائم، كما يحتاج إلىٰ رئيس أَمريكي قوي. وبالإضافة إلىٰ ذلك كان كيسينجر يعارض مثل هذا النهج مع إسرائيل. وكان تعليق الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة أمراً وارداً، ولكن من شأنه المخاطرة بإضعاف الائتلاف العربي «المعتدل»، الذي عمل كيسينجر على تشجيعه.

مع استبعاد البدائل الأخرى عاد كيسينجر إلىٰ دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة، بكل قيودها الواضحة، بوصفها أفضل وسيلة لإبقاء العملية السلمية مستمرة. ولكن من أين يبدأ؟ وكانت الإجابة، دون تفكير عميق، هي الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية. فالاعتقاد غير المُعلن أنه يجدر محاولة إدخال الأردن في العمليَّة

---

(57) كان فورد يشاطر كيسينجر تشككه في الاتّحاد السوفييتي. انظر Gerald R. Ford, A Time to Heal: The Autobiography of Gerald R. Ford (Harper and Row, 1979), p. 183» قبل أن أصبح رئيساً، كان كيسينجر قد حقَّق نجاحاً كبيراً في إخراج السوفييت من الشرق الأَوسط. لقد كنت أعتقد أنهم لا يريدون تسوية صادقة هناك، وأن هدفهم الوحيد هو زيادة عدم الاستقرار، ومن ثم أردت أن أبقيهم خارجاً.

الدبلوماسيَّة، كوسيلة لقطع الطريق على منظمة التحرير الأكثر راديكالية. وكان على كيسينجر أن يستمر في الضغط من أجل خطوة تالية ما بين مصر وإسرائيل[58].

تسوية أردنية ـ إسرائيلية؟

واجه كيسينجر في المفاوضات على الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية مشكلات لا سابق لها. ولم يكن «فكّ الاشتباك» مفهوماً ملائماً هنا، إذ لم يكن ثمة اشتباك عسكري بين الدولتين في حرب تشرين/ أكتوبر. فبدلاً من المباحثات حول قوّات عسكرية متفرقة على طول خط وقف إطلاق النّار، كان على كيسينجر أن يعالج قضايا سياسية حسَّاسة كالسيادة ووضع الفلسطينيين. وعلى الرغم من التعاون الضمني الذي كان قائماً على بعض المستويات بين الأردن وإسرائيل كانت آفاق الوصول إلىٰ اتِّفاق ضيقة على نحو غير عادي، وهو ما يعود بالدرجة الأولى إلىٰ الوضع السياسي الداخلي في إسرائيل، والضغوط العربية على الملك حسين. وكانت إسرائيل آنذاك يحكمها زعيم لم تسبق تجربته أَو اختباره وهو إسحاق رابين. وهذا كان مضطراً في قضايا السياسة الخارجيَّة إلىٰ العمل بشكل وثيق، مع خصمه السياسي ووزير الدفاع شمعون بيريز، ووزير خارجيته آيغال آلون. ولسوء حظ إسحاق رابين، لم تكن آراء هذين العضوين في حكومته متوافقة. وكان الإجماع الوحيد الذي يستطيع رابين أن يحقِّقه بالنسبة للضفة الغربية سلبياً بالدرجة الأولى: أن يدعو إلىٰ إجراء انتخابات قبل الموافقة على أي شيء يمس الأَراضي الأردنية السابقة.

---

(58) للاطلاع على أفضل تقرير مفصل عن هذه المفاوضات انظر Cecilia Albin and Harold H. Saunders, «Sinai 11: The Polities of International Mediation,» FPI Case Study 17, Johns Hopkins University, School of Advanced International Studies, Washington, 1991 ويشير المؤلفان إلىٰ أن فورد نفسه كان يميل إلىٰ التركيز على الجبهة المصرية الإسرائيلية. ويرجع ذلك جزئياً إلىٰ أن هذه الجبهة كانت تبدو أكثر ملائمة من الناحية السياسية (الصفحات 37 ـ 38).

وكانت الضغوط على الملك حسين مماثلة، وإن بدت أقل شدة. فإحساسه الخاص بالمسؤولية، وخوفه من أن يتهم بالتفريط لصالح إسرائيل، قد دفعا به إلىٰ الإصرار على شروط للمفاوضات، يستطيع الدفاع عنها أمام العرب الآخرين وأمام الفلسطينيين. ولم يكن الحسين، بالرغم من ميوله «المعتدلة» وموافقته الحقيقية على حق إسرائيل في الوجود، في موقف يسمح له بالخضوع لمطالب إسرائيل. كان بحاجة إلىٰ أن يبرهن لشعبه وللعالم العربي، كشأن الرئيسين الأسد والسَّادات، أنه يستطيع استعادة الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل. وأنه قبل كل شيء، لن يقبل بما تطلبه إسرائيل، بأن يتولى إدارة المناطق الآهلة بالسكان في الضفة الغربية، في حين تحتفظ إسرائيل بالسيطرة العسكرية على المنطقة.

شرع فورد بعد بضعة أيام من توليه الرئاسة، بالتشاور مع ديبلوماسيي وزعماء الشرق الأوسط، فيما كان كيسينجر يُطلعه على تعقيدات المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية. وكان أول من وصل لإجراء مباحثات مع فورد وزير الخارجيَّة المصري فهمي[59]. وبعد بضعة أيام التقى الملك حسين بفورد وكيسينجر ووزير الدفاع جيمس شليسينغر. وقيل للملك إن الولايات المتحدة سوف تعطي الأولوية للبحث عن اتِّفاق أردني ـ إسرائيلي، بالإضافة إلىٰ استكشاف احتمالات اتخاذ خطوة أخرى في سيناء. ووصل بعد ذلك وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدَّام لمقابلة كيسينجر في 22 آب/ أغسطس. كما جاء رئيس الوزراء رابين ـ حتى لا يكون بعيداً عن الصورة ـ إلىٰ واشنطن في 10 أيلول/ سبتمبر لإجراء مباحثات مع الرئيس الجديد. وأوضح رابين أنه يفضل خطوة مرحلية أخرى مع مصر وليس مع الأردن[60].

---

(59) أخبر فهمي فورد أن مصر مستعدة للمضي نحو اتِّفاقية جزئية أخرى مع إسرائيل قبل التوصل إلىٰ اتفاق إسرائيلي أردني. كما أعرب عن اعتقاده بأن إجراء مفاوضات متزامنة على هاتين الجبهتين أمر مستحيل، المصدر السابق. الصفحات 29 ـ 30.

(60) Kissinger, Years of Upheaval, pp. 368-64 ويقول أن كلا من مصر وإسرائيل عملتا على تقويض الخيار الأردني.

كانت محصلة جميع هذه المشاورات الأولية، جولة جديدة لكيسينجر في الشرق الأَوسط. وكانت إِسرائيل ما تزال عازفة عن الانسحاب من نهر الأردن، فيما كان الحسين لا يرضى بأقل من ذلك[61]. ولهذا فإن كيسينجر قد بدأ تنقلاته مصحوباً بفرصة ضئيلة من النجاح. وحاول كيسينجر في مباحثاته مع السَّادات، أن يضغط من أجل مساندة مصرية للأردن، في مؤتمر القمة العربي الوشيك في الرباط. وقد تراجعت هذه المساندة بعض الشيء في أيلول/ سبتمبر، كما أن ديناميكيّات السياسة العربية، كانت ستؤدي إِلىٰ تأييد قاطع لمنظمة التحرير، واستبعاد الأردن، وهو ما حاول كيسينجر أن يحول دونه. وناقش الأخير مع السَّادات، كطُعم، الخطوط العامة لاتِّفاقية أخرى بين مصر وإِسرائيل. وكان موقف السَّادات حاسماً: في الخطوة التالية لا بد أن يستعيد ممري متلا والجدي، وحقول النّفط في أبو رديس. إذ لا شيء من ذلك يمكن أن يبرِّر المخاطر التي تتعرض لها مصر من الدخول في اتِّفاقية ثانية مع إِسرائيل. بيد أن السَّادات كان راغباً في أن يعرض على إِسرائيل، بعض «العناصر العملانية لوقف حالة الحرب»[62]. وفي عمان استعرض كيسينجر وحسين الاحتمالات الضعيفة لإبرام اتِّفاقية، وناقشا احتمال المصادقة في الرباط على اعتبار م. ت. ف المفاوِض الوحيد عن الضفّة الغربية، والمتحدِّث الوحيد باسم الفلسطينيين. فإذا ما حدث ذلك، فإن الملك سوف ينسحب من المفاوضات كلياً. وكثير من الأردنيين، كانوا سيبتهجون لغسل أيديهم من المشكلة الفلسطينية برمتها. إذ سيكون من الأفضل التركيز على تنمية الضفة الشرقية، وعلى إقامة علاقات مع سورية والمملكة العربية السعودية، من التعرّض إِلىٰ مخاطر العزلة والمعارضة العنيفة التي قد تنجم، إذا ما وقَّع الملك اتفاقاً مع إِسرائيل غير مقبول. واتفق

(61) المصدر السابق، ص 30، يشير إِلىٰ قيام الملك حسين بتقديم تنازل هام بقبوله فكرة إمكان أن تبقى القوات الإِسرائيلية في الخلف في مواقع محددة على طول نهر الأردن بعد اتِّفاقية فضّ الاشتباك. ويشار إِلىٰ ذلك بفكر «البقع على جسم الفهد».

(62) كيسينجر، مصدر سبق ذكره، ص 382.

حسين وكيسينجر في ذلك الوقت، على انتظار نتائج القمة العربية في الرباط. وشعر كيسينجر، بتأييد ثقة من السَّادات، في أن يخرج الملك حسين بصلاحية التفاوض بشأن الضفّة الغربية.

كان من دواعي انزعاج كيسينجر وأسفه البالغين، أن الرؤساء العرب المجتمعين في الرباط في غضون الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، لم يتصرَّفوا كما كان يتوقع. ففي 28 تشرين الأول/ أكتوبر أقر المؤتمر بالإجماع أن م. ت. ف هي الممثِّل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. ولم يعد للحسين أي حق في نظر العالم العربي بالتفاوض حول الضفة الغربية أكثر من أي زعيم عربي آخر. وفي مواجهة هذا الإجماع العارم وافق الحسين نفسه على هذا القرار النهائي. وكان السَّادات قد حاول أن يصل بالمؤتمر إلىٰ نتيجة أكثر غموضاً ولكنه باء بالفشل. وكانت العربية السعودية، والتي يفترض أنَّها دولة عربية معتدلة، وسورية من بين أعلى الأصوات التي ناصرت المنظمة.

تلا قمّة الرباط بوقت قصير ظهور رئيس اللجنة التنفيذية في م. ت. ف ياسر عرفات في الأُمم المتَّحدة في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، الأمر الذي دفع بالفلسطينيين فجأة إلىٰ صدارة النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي. ولم يكن كيسينجر مهيئاً لمثل هذا التحول في الأحداث. إذ كان يأمل في تأجيل المسألة الفلسطينية إلىٰ وقت لاحق، بينما يحاول تعزيز موقف الملك حسين على حساب م. ت. ف. كما كان يتوقع أن تعترف مصر والعربية السعودية وحتى سورية، بالضرورة العملية لبقاء الأردن في المفاوضات. أما الآن فقد خرجت سياسته المرسومة بعناية عن الخط المرسوم لها.

والحق أن القرار الذي اتُّخذ في الرباط كان أقل حسماً بكثير مما بدا عليه آنذاك، ولكنه سبب المشكلات أمام كيسينجر، الذي بات بحاجة إلىٰ تحقيق نجاح لإنقاذ سياسته وسمعته. ولما بات مثل هذا النجاح لا يمكن أن يتحقَّق على الجبهة الأردنية، فلا بدّ إذن أن يكون في سيناء. بيد أن مصر لم تعد

الزعيمة القوية للعالم العربي كما كانت أيام عبد الناصر ـ وهذا ما أظهر صحته مؤتمر الرّباط ـ وكان عليها أن تتصرَّف بحذر في أية خطوة تالية. وفي الوقت نفسه لم يكن مزاج إسرائيل يسمح بتقديم تنازلات، كما لم يبد أن لدى الحكومة الإسرائيلية الجديدة أية استراتيجية دبلوماسيَّة واضحة. ولعل غولدا مائير كانت شديدة المراس، ويصعب التعامل معها، ولكنَّها على الأقل كانت مسيطرة على حكومتها. ولم يكن من الواضح أن رابين قادر على قيادة بلد منقسم عبر مفاوضات معقَّدة، خاصة وأن وزير دفاعه، شمعون بيريز، كان توّاقاً لاحتلال مكانه إذا ما أخطأ[63].

خطوة مصرية ـ إسرائيلية ثانية

أصبح أسلوب كيسينجر في ترتيب اتِّفاقيات محدودة بين إسرائيل والعرب أسلوباً متطوراً. فقد بدأ بانتزاع مقترحات من كل طرف، ثم الوقوف على ردود فعل أولية، وتحديد العقبات، ثم الشروع بعمليَّة دبلوماسيَّة تؤدي في النهاية إلىٰ ردم الفجوات الأساسية. وتتطلَّب هذه العمليَّة مقداراً كبيراً من الرشد والإقناع، عندما يقوم كيسينجر بشرح العواقب الدولية الوخيمة التي تترتّب على الإخفاق في الوصول إلىٰ اتِّفاق، كما تتطلَّب استخدام القوى المؤثِّرة على الأطراف، مثل البلدان العربية الأخرى أَو الكونغرس الأَمريكي. ثم يستخدم كيسينجر مكانته الشخصية في السعي للوصول إلىٰ اتفاق، متنقلاً كالمكوك ذهاباً وإياباً بين الجانبين. وعند هذه المرحلة الأخيرة قد يلجأ كيسينجر إلىٰ إشراك الرئيس، إذا كان الأمر يتطلب مزيداً من الضغط على إسرائيل أَو التزامات بمساعدات مستقبلية.

وكان كيسينجر، حتى قبل انعقاد مؤتمر الرّباط، قد حصل على فكرة جيدة عن الأهداف المصريَّة والإسرائيلية في المرحلة الثانية. فقد كانت مصر

(63) المرجع السابق، ص 380 ـ 381 يشير إلىٰ أن رابين وفورد لم يكونا على صلة وثيقة وأن رابين لم يكن مرناً.

تريد من إسرائيل الانسحاب إلىٰ ما وراء ممري متلا والجدي المهمين من الناحية الاستراتيجية، وأن تتخلّى عن سيطرتها على حقول نفط أبو رديس ورأس سدر، التي كانت تزوِّد إسرائيل بحوالي 50٪ من مجموع احتياجاتها النفطية. وكان السَّادات يريد أن تعتبر هذه الخطوة، فكّ لاشتباك عسكري آخر، مع مغزى سياسي محدود فقط. فهو لا يحتمل أن ينظر العالم العربي إليه وكأنَّه انسحب من النِّزاع مع إسرائيل.

وكانت أهداف إسرائيل من اتِّفاق ثان مع مصر مختلفة تماماً. إذ هي تأمل في الفصل ما بين مصر وسورية، وبذلك تقل احتمالات هجوم عربي مشترك كما حدث في تشرين الأول/ أكتوبر 1973. وكان المطلوب من مصر أن تقدّم تنازلات سياسية جوهرية، ثمناً لانسحابات إسرائيلية أخرى. فقد كانت إسرائيل تطالب بإعلان مصر تخليها عن حالة الحرب، وأن تكون الاتِّفاقية الجديدة طويلة الأمد، وألاّ يتضمن الانسحاب الإسرائيلي الممرَّات أَو حقول النفط.

وخلال شهري تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1974، استطاع كيسينجر توضيح موقف كلا الجانبين. وكان قانعاً بأن السَّادات لن يقبل بأقل من الممرات وحقول النفط، وأنَّه لن يعلن رسمياً عن إنهاء حالة الحرب. وهذا ما أَعلم به الإسرائيليين، وحثّهم على التركيز بدلاً من ذلك على «المكافئات الوظيفية» لانعدام حالة الحرب، مثل إنهاء المقاطعة الاقتصادية.

ما أن شرعت مصر وإسرائيل بإظهار استعدادهما لاتِّفاقية ثانية، حتى ظهر مصدران خطيران كامنان للمعارضة. فقد كان السوريّون يعون جيداً أن إسرائيل كانت تحاول عزل مصر، مما سيجعل سورية بمفردها تواجه القوَّات العسكرية الإسرائيلية المتفوِّقة. ولهذا عارض الأسد أية خطوة ثانية على الجبهة المصرية. ومن أجل أن يؤكد الأسد موقفه، أمر قوَّاته المسلحة في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، بإعلان حالة التأهّب القصوى، أي عشية تجديد ولاية قوَّات الأمم المتَّحدة تحديداً. ثم هدأت الأَزمة، لكن بعد أن أوضح الأسد موقفه.

وكان المصدر الثاني لمعارضة استراتيجية كيسينجر هو الاتّحاد السوفييتي. فقد بات من الواضح للسوفييت الآن أن أحد أهداف كيسينجر الأولى، هو إضعاف النفوذ السوفييتي في الشرق الأَوسط، وخاصة في مصر. وكان الرئيس فورد والأمين العام بريجينيف قد التقيا في فلاديغو ستوك في يومي 23 و24 تشرين الثاني/ نوفمبر، وذلك من أجل مناقشة اتّفاقية ثانية للأَسلحة الاستراتيجية، وكذلك للبحث في شؤون الشرق الأَوسط. وكان الطرفان متباعدين تماماً في مواقفهما، فالسوفييت كانوا يصرون على إعادة انعقاد مؤتمر جنيف، فيما أراد فورد الاستمرار في دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة بطلب كل من مصر وإسرائيل بالطبع[64]. وبصورة عامَّة كانت العلاقات الأَمريكيَّة ـ السوفييتية تزداد برودة، وهو ما تبيَّن بوضوح في 14 كانون الثاني/ يناير، 1975 عندما رفض الاتّحاد السوفييتي عرض الدولة الأكثر رعاية في التجارة بشروط تتطلَّب إطلاق هجرة اليهود السوفييت.

في بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر 1974 وصل وزير الخارجيَّة الإسرائيلي آيغال آلون إلىٰ واشنطن لإجراء محادثات مع كيسينجر. وناقشا طوال عدة ساعات من يوم 9 كانون الأول/ ديسمبر مشروعاً أحضره آلون معه يتألَّف من عشر نقاط[65]. ولم يتحمّس كيسينجر وفورد لهذا العرض الإسرائيلي. وألمح ألون إلىٰ أنه مجرد موقف للمساومة يمكن أن يتغيَّر. فمدة الاتّفاقية مثلاً يمكن أن تصبح خمس سنوات بدلاً من اثنتي عشرة سنة. وكانت مشكلة كيسينجر الرئيسية مع العرض الإسرائيلي هي المطالبة بإنهاء حالة الحرب، وهو

---

(64) يقول البيان المشترك الصادر في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر إنه يتعين أن يقوم البحث عن السَّلام في الشرق الأَوسط على قرار الأُمم المتَّحدة رقم 338 «آخذاً في الاعتبار المصالح المشروعة لكافة شعوب المنطقة بمن فيها الشعب الفلسطيني، واحترام الحق في الوجود المستقل لكافة الدول في المنطقة» Department of State Bulletin, vol. 71 (December 23, 1974), p. 880

(65) Matti Golan, The Secret conversations of Henry Kissinger: Step-by Step Diplomacy in the Middle East (Quadrangle Books, 1986), p. 229.

مطلب وصفه رابين نفسه بأنّه غير واقعي، وكذلك رفض التخلي عن الممرات وحقول النفط. ومع هذا فقد نقلت النقاط الإسرائيلية إلىٰ السَّادات، الذي رفضها في الحال. وعند ذلك طلب كيسينجر من الإسرائيليين إعداد اقتراح جديد.

وعندما جاء آلون إلىٰ واشنطن في جولة ثانية من المحادثات مع كيسينجر في 15 ـ 16 كانون الثاني/ يناير، 1975، لم يكن لديه جديد يقدِّمه عدا دعوة لكيسينجر للعودة إلىٰ المنطقة. وكرّر الأخير تحذيره لألون، أنه لا يمكن التوصل إلىٰ اتِّفاق على أساس الاقتراح الإسرائيلي[66]. ومع هذا فقد قام بجولة أخرى ليستطلع إمكانية تضييق الفجوة. وبعد جولة «استكشافية» من المباحثات في شباط/ فبراير، عاد كيسينجر في شهر آذار/ مارس لاستكمال المفاوضات، ولكن على أن تُسقط إسرائيل مطلب إنهاء حالة الحرب، وأن تكون أكثر مرونة بشأن الأراضي[67].

وقبل مغادرة كيسينجر أعلن السَّادات جهاراً تأييده لجهوده، مضيفاً أن الولايات المتحدة باتت تمتلك الآن جميع الأوراق الرابحة[68]. وكانت تلك الكلمات هي ما أراد كيسينجر أن يسمعه من السَّادات. فهو لم يكن يلقى من السوريين والسوفييت إلاَّ مجابهة مستمرة لجهوده. وفيما بدا أن السَّادات يتحرّك نحو اتِّفاقية أخرى، بدأت سورية توحد الصفوف مع الأردن والفلسطينيين لمعارضته، بتأييد متزايد من الاتّحاد السوفييتي[69].

كان من المعروف أن جولة كيسينجر في شباط/ فبراير، لم تكن أكثر من جولة أولية، فهو لم يتوقع التوصل إلىٰ اتِّفاق، ولكنه كان يأمل من مصر

---

(66) تدخّل فورد أيضاً بنصح الإسرائيليين أن يكونوا أكثر مرونة. انظر Ford, Time to Heal, pp. 245-46 حيث كان يرى أن الإسرائيليين من القوة بحيث يمكنهم تقديم تنازلات.

(67) كيسينجر مرجع سابق 393 ـ 397.

(68) Le Monade, January 21, 1975.

(69) في 3 شباط/ فبراير 1975 أصدرت سوريا والاتّحاد السوفييتي بياناً مشتركاً يدعو إلىٰ إعادة انعقاد مؤتمر جنيف.

وإسرائيل أن تدركا كلتاهما الضغوط التي ترزح تحتها كل منهما، وأن يعدلا بعض العناصر الواردة في مقترحاتهما. بيد أنّه لم يجد إلاّ القليل. إذ بدا أن الإسرائيليين مستعدّون لتليين موقفهم قليلاً من موضوع إنهاء حالة الحرب، فيما أبدى السادات رغبة في إنهاء بعض الأعمال العدوانية ضد إسرائيل، ولكن الفجوة الأساسية ظلّت على حالها. كما لم ينجح كيسينجر في إقناع السوريين بإسقاط معارضتهم لخطوة ثانية في سيناء[70].

تابع كيسينجر في الأسابيع القليلة التالية، حثّ الطرفين على الاعتدال في مواقفهما، لأنّه كان يريد اتّفاقاً وبسرعة. ولكنه لم يكن يرغب في القيام بجولة «مكوكية» ثالثة حتى يتأكد فعلاً من النجاح. وغادر كيسينجر إلىٰ الشرق الأوسط ثانية، مفترضاً أن الطرفين يفهما الآن الشروط الدنيا المطلوبة لمفاوضات ناجحة، ووصل إلىٰ مصر في 8 آذار/ مارس[71].

كان موقف إسرائيل ـ كما نقل لأول مرة بصورة غير رسمية من قِبل رابين إلىٰ كيسينجر مساء يوم 9 آذار/ مارس ـ يتضمن سبع نقاط تحت عنوان «اقتراح حول العناصر الرئيسية لاتّفاق بين إسرائيل ومصر»[72]. وجاء في هذا الاقتراح أن إسرائيل تسعى إلىٰ اتّفاق منفصل مع مصر، لا يعتمد على اتّفاق مع الأطراف العربية الأخرى، ويتعيّن أن يكون الاتّفاق خطوة نحو السّلام في بعض النواحي العملية، مثل حرية عبور شحنات السفن الإسرائيلية في قناة السويس، وإنهاء

---

(70) ظل موقف الأسد من اتخاذ خطوة ثانية بشأن مرتفعات الجولان غامضاً فلم يكن يبدو متلهفاً بشكل خاص على مثل هذه الاتّفاقية إلاّ أنه لم يعمل على إعاقتها.

(71) كيسينجر، مرجع سبق ذكره ص 397 ـ 421.

(72) Wolf 1. Blitzer, «Kissinger Reveals Sadat's Twelve Concessions,» Jerusalem 12, 1975, p. 1 وطبقاً لـ Albin and Saunders, «Sinai 11,» p. 58 فإن السادات قدم لكيسينجر خطاً ثانياً أقل تشدداً لاستخدامه إذا اقتضت الضرورة. وقد أصبح ذلك هو التاكتيك النمطي للسادات في المفاوضات التالية Edward R. F. Sheehan, The Arabs, Israelis, and Kissinger: A Secret History of American Diplomacy in the Middle East (Reader's Digest Press, 1976), p. 156. انظر أيضاً ملخص لهذه النقاط Albin and Saunders, «Sinai II,» pp. 56-58.

المقاطعة الاقتصادية، وحرية حركة الأشخاص بين البلدين. ولا بدّ أن توافق مصر على وضع حد لاستخدام القوة، من خلال «التخلي عن حالة الحرب بوضوح بتعبيرات قانونية ملائمة». كما لا بدّ من إقامة منطقة عازلة بين القوّات العسكرية للجانبين. وكذلك إيجاد حل ما لـ «معضلة الغموض» فيما يتعلّق بمدة الاتّفاقية. وينبغي التوصل إلىٰ تفاهم حول العلاقة ما بين اتّفاق مرحلي في سيناء، وبين ما يمكن أن يحدث في وقت لاحق في جنيف. وأخيراً سوف توافق إسرائيل على مناقشة مسألة خط الانسحاب، بعد أن تجيب مصر على النقاط الستة الأولى[73].

أحسّ كيسينجر بالفزع لأن إسرائيل ما تزال متمسّكة بإنهاء حالة الحرب. وكان السّادات مستعداً لقبول بعض مطالب إسرائيل، ولكنه أصرّ على أن يعرف ما إذا كانت إسرائيل ستبقى في الممرّات أم لا. كما رفض كلياً الموافقة على إنهاء حالة الحرب، وإن كان سيأخذ بالاعتبار صيغة تقوم على «عدم استخدام القوّة». وبعد عدة أيام من الجولات المكوكية استطاع كيسينجر، أن يقنع الإسرائيليين بقبول صيغة عدم استخدام القوة، ولكن رابين وفريقه المفاوض تمسّكوا بعدم الانسحاب من الممرّات بأقل من إنهاء حالة الحرب. وهم في أفضل الأحوال قد ينظرون في الانسحاب إلىٰ خط في منتصف الطريق إلىٰ الممرات، ولكن الإسرائيليين لم يقدّموا أبداً طوال المفاوضات أية خريطة لكيسينجر توضح الخط الذي يقبلونه. ومما زاد المساومات تعقيداً إصرار إسرائيل على الاحتفاظ بمحطة استطلاع إلكترونية، في أم خشيبة عند الطرف الغربي من ممر الجدي. ولم يوافق السّادات على احتفاظ الإسرائيليين بالمحطة، حتى لو وضعت رسمياً داخل منطقة تابعة لإشراف الأُمم المتّحدة. وبالتالي فقد وصلت المفاوضات إلىٰ طريق مسدود، بسبب مشكلة إنهاء حالة

(73) Sheehan, *Arabs, Israelis,* p. 156. See also Albin and Saunders, "Sinai II," pp. 56-58 for a summary of these points.

الحرب ومكافآتها الوظيفيَّة، وبسبب حجم الانسحاب الإسرائيلي من الممرّات وحقول النفط، والوضع الخاص بمحطة أم خشيبة.

بعد عشرة أيام من الجولات المكوكية بين مصر وإسرائيل، مع رحلات جانبية إلىٰ كل من سورية والأردن والعربية السعودية، كان كيسينجر ما يزال غير قادر على زحزحة الإسرائيليين من الممرات. وقبلت إسرائيل بالتخلي عن حقول النفط، ولكنها رفضت السماح لمصر بالسيطرة على طريق يربط الحقول بالمنطقة المصرية. وفي يوم الجمعة 21 آذار/ مارس وصل كيسينجر إلىٰ إسرائيل حاملاً كلمة السَّادات النهائية: لا تستطيع إسرائيل أن تحتفظ بمحطة الاستطلاع، وأن ولاية قوَّات الأُمم المتَّحدة سوف تجدّد لسنة ثانية فقط. وتمسّك الإسرائيليون بمزيد من التنازلات المصريَّة أَو أنهم لن يتحركوا. ولم يتغيَّر هذا الموقف الإسرائيلي حتى بعد وصول رسالة فورد، شديدة اللهجة إلىٰ إسرائيل في 21 آذار/ مارس[74]، والتي ربما شحذت همة إسرائيل على المقاومة. وعلى أي حال فقد اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي يوم الجمعة مساء، ورفض عملياً جميع مطالب السَّادات. ونقل كيسينجر هذا الرفض الإسرائيلي إلىٰ مصر منتظراً رد السَّادات.

في اليوم التالي غادر كيسينجر إسرائيل، بعد أن أعلن عن تعليق مساعيه التفاوضية[75]. وبعد عودة كيسينجر إلىٰ واشنطن في 24 آذار/ مارس، أعلن

---

(74) Golan, Secret Conversations of Kissinger, . 236-38 وإن كان يعطي تاريخاً غير دقيق للخطاب بأنَّه في 19 آذار/ مارس. ويقدم Yitzhak Rabin, The Rabin Memluhîn irs (Little. Brown 1979), p. 256 نصاً جزئياً للخطاب الذي يهدِّد فيه فورد «بإعادة تقييم» السياسة الأَمريكيَّة، بما فيها العلاقات مع إسرائيل. ويقول Ford, Time to Heal, p. 247 إنه كان «غاضباً إلىٰ حد الجنون» من الإسرائيليين لتاكتيكاتهم في المفاوضات.

(75) قام كيسينجر قبل مغادرته بزيارة غولدا مائير، ورغم أنَّها كانت تؤيد رابين علانية فإنَّها ألمحت سراً لكيسينجر أن رابين أخطأ في معالجة المفاوضات، وأنَّه كان بإمكانها أن تعرف كيف تجعل مجلس الوزراء والكنيست يؤيدان الاتِّفاقية.

الرئيس فورد بتشاؤم، أنه ستجري عملية إعادة تقييم للسياسة الأَمريكيَّة تجاه الشرق الأَوسط[76].

إعادة التقييم

كانت خيبة أمل كيسينجر من الإِسرائيليين لإحباطهم جهوده لترتيب اتِّفاقية ثانية في سيناء. فقد شعر أن القيادة الإِسرائيلية قصيرة النظر، وضعيفة وتفتقر إِلىٰ الكفاءة. وفي رأيه أن إِسرائيل لا تملك سياسة خارجيَّة، بل لديها نظام سياسي داخلي فقط يدفع إِلىٰ الجمود والحائط المسدود. إن شخصاً مثل ديڤيد بن غوريون، أَو غولدا مائير قد يكون قادراً على قيادة إِسرائيل، ولكن ليس الثلاثي رابين ـ آلون ـ بيريز، كان كل منهم يتحرَّك في اتجاه مختلف. وألمح كيسينجر في اللحظات التي كان يتحرَّر فيها من القيود، إِلىٰ أن الإِسرائيليين يحاولون إسقاطه. ومهما كانت مبرّرات إعادة التقييم، فقد أصبحت جزئياً أداة في يد كيسينجر للتنفيس عن سخطه على إِسرائيل.

ومهما كان مدى ارتباط الرئيس فورد عاطفياً بإِسرائيل في الماضي، فقد كان هو الآخر ساخطاً عليها ووجَّه اللوم علانية لرابين بسبب افتقاره إِلىٰ المرونة[77]. وألقى فورد بثقله من أجل إعادة تقييم جادة للسياسة، تُعلَّق خلالها الاتِّفاقيات العسكرية والاقتصادية الجديدة مع إِسرائيل. ووجد فورد، كما حدث مع من سبقوه في الرئاسة، أن تعاطفه مع إِسرائيل ومفهومه للمصالح الأَمريكيَّة العالمية، والإقليمية لم يكونا يلتقيان دوماً. وعندما يبدو أن البلدين

---

(76) التقى فورد مع ماكس فيشر في 27 آذار/ مارس 1975، ليعرب له عن غضبه إزاء السياسة الإِسرائيلية. كان فيشر رجل أعمال ثرياً من ديترويت، من الجمهوريين، وأحد زعماء الطائفة اليهودية في أَمريكا. وعادة ما كان يعمل كقناة غير رسمية للاتصال بين الولايات المتّحدة وإِسرائيل. انظر Ford, Time to Heal, pp. 247, 286.

(77) لقاء فورد مع مجموعة صحف هيرست في 27 آذار/ مارس 1975. انظر «Bernard Gwertzman, Ford Says Israel Lacked Flexibility in Negotiations,» New York Times March 28, 1975. p. 1.

سيصطدمان، فإن فورد سيكون قادراً مثل نيكسون على ممارسة الضغط على إسرائيل لتقديم التنازلات. وكان الاختبار هو ما إذا كانت الضغوط ستؤدي إلىٰ النتائج المنشودة، وما إذا كان الضغط الإسرائيلي المضاد يمكن أن يرفع من كلفة الجهد.

إن إسرائيل في النهاية ليست محرومة من الأصدقاء والمؤيدين من ذوي النفوذ في الولايات المتحدة، كما لا يعوزها الناطقين الفاعلين باسمها الذين يستطيعون الدفاع عنها، أمام الرأي العام الأمريكي ضد تهمة عدم المرونة. فإذا كانت الإدارة تصر على وقف المساعدة التي تحتاجها، فإن إسرائيل تستطيع أن تناشد الكونغرس أن يؤيِّد مطالبها. فقد كانت قضية إسرائيل تبدو مقنعة: ففي مقابل تقديم تنازلات اقتصادية، وتنازلات عن الأراضي، لم تكن إسرائيل تطلب إلاَّ أن تتخلَّى مصر عن حالة الحرب. فلماذا يكون هذا أمراً غير مقبول وغير مرن؟ وهل ينبغي على إسرائيل أن تخاطر بأمنها مقابل شيء أقل من ذلك؟.

وكانت قضية كيسينجر ضد إسرائيل أقل إقناعاً بالنسبة إلىٰ كثير من الأمريكيين. فهو يزعم أن القادة الإسرائيليين ضلَّلوه بدعوته للقيام برحلات مكوكية، وهم يعلمون أن إنهاء حالة الحرب أمر لا يمكن تحقيقه، ومع هذا فقد استمروا في الإصرار عليه. ورفضت إسرائيل تقديم الحد الأدنى من التنازلات الإقليمية في الممرات وحول حقول النفط. وتذرع كيسينجر بأن الاتِّفاقية كانت ضرورية للمحافظة على التوازنات الدقيقة التي أوجدها بعد حرب تشرين/ أكتوبر 1973. وكان يلمح في بعض المناسبات بأن البديل للاتِّفاقية يمكن أن يكون الحرب وحظراً آخر على النفط العربي.

وفي نطاق سياسة إعادة التقييم اجتمع كيسينجر في الأول من نيسان/ أبريل، بمجموعة من الرجال البارزين في مؤسسة السياسة الخارجيَّة. وكان من بين هؤلاء جورج بول الذي كان ينتقد علناً سياسة الخطوة ـ خطوة التي ينتهجها

كيسينجر. إذ كان بول يحبِّذ اتِّفاقية أكثر شمولاً تقوم فيها الولايات المتحدة والاتّحاد السوفييتي بإعداد المبادىء التوجيهية للتسوية، ويجري التفاوض عليها بعد ذلك من جانب جميع الأطراف في جنيف. ووجه بول الانتقاد لكيسينجر لتجاهل السوفييت ومحاولة تقسيم العرب. ولم تكن تخيفه فكرة فرض التسوية[78]. وحبّذ آخرون ممن حضروا الاجتماع العودة إلىٰ مؤتمر جنيف، وبذل مجهود كبير لإعداد خطة سلام أَمريكيَّة.

وعلى مدى الأسابيع العديدة التالية، استمع كيسينجر إلىٰ توصيات مماثلة إلىٰ حد كبير من جانب أقرب معاونيه، ومن أكاديميين بارزين، ومن سفراء أَمريكيين في بلدان الشرق الأَوسط المهمة[79]. لقد ولى عهد دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة، وبات الأمر يتطلَّب استراتيجية طموحة. ولم يعد بالإمكان تجاهل الفلسطينيين. كما أن السوفييت ينبغي أن يشاركوا في المفاوضات. بدت جميع هذه الآراء مقبولة كأفكار مجردة، ولكن كيسينجر كان مسكوناً بالخوف من أن ينتهي هذا النهج إلىٰ الفشل أيضاً. إذ لا أحد يستطيع أن يحدِّد بالتفصيل الخطوات اللازمة لضمان النجاح. كما أن هذا النهج له تكلفته على صعيد السياسة الداخلية، لأنه يستلزم بالتأكيد ضغطاً شديداً ومتواصلاً على إسرائيل. ولم يكن فورد وكيسينجر واثقين على الإطلاق أنَّهما يريدان الإقدام على معركة كهذه، إلاَّ إذا كانت النتائج تكفل تبرير الجهد.

في الأسبوع الثالث من نيسان/ أبريل انتهى التقويم إلىٰ ثلاثة خيارات أساسية لرفعها إلىٰ الرئيس. كان أولها يحظى بمساندة كثيرين داخل الحكومة

---

(78) George Ball, «How to Avert a Middle East War,» Atlantic Monthly, January 1975, pp. 6-11.

(79) خلال هذه الفترة أوضح ستانلي هوفمان ببراعة أنه من مصلحة إسرائيل نفسها أن تتقدّم مبادرة سلام شاملة. وكان العيب الرئيسي في هذا الرأي أن هذه السياسة تتطلَّب وجود حكومة إسرائيلية قوية يدعمها توافق واسع في الرأي العام. ومن الواضح أن هذا لم يكن موجوداً، انظر «A New Policy for Israel,» Foreign Affairs, vol. 53 (April 1975), pp. 405-31.

وخارجها، وهو العودة إلىٰ جنيف بخطة سلام أَمريكيَّة مفصلة. وسوف تدعو الولايات المتحدة إلىٰ انسحاب إسرائيلي، مع تقديم ضمانات قوية للأمن الإسرائيلي. وسيدعى السوفييت إلىٰ التعاون. ويهدف الخيار الثاني إلىٰ تسوية شاملة فعلاً، وخاصة على الجبهة المصريَّة ـ الإسرائيلية، ولكنها لا ترقى إلىٰ المطالبة بانسحاب كامل وسلام نهائي. والخيار الثالث هو استئناف دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة من حيث انتهت في شهر آذار/ مارس[80]. وفي 21 نيسان/ أبريل نوَّه فورد بهذه الخيارات الثلاثة[81].

بدا لعدة أسابيع أن نهجاً أَمريكياً جديداً للسلام في الشرق الأَوسط سوف يبرز، ولكن سرعان ما بدأ يتبين أن شيئاً من ذلك لن يحدث. إذ لم تقدم المشاورات التي أجراها كيسينجر مع آلون والملك حسين والسوفييت، أي مبرِّر للتفاؤل بشأن انتهاج سياسة جديدة. ولم يكن تأييد الرأي العام الأَمريكي للقيام بمبادرة شاملة قوياً، كما بدأ الكونغرس يستجيب للمجادلات التي تفيد أن كيسينجر، كان يمارس الكثير من الضغط على إسرائيل. وفي 21 أيار/ مايو وجّه 76 عضواً في مجلس الشيوخ، رسالة إلىٰ الرئيس فورد، يحثّونه فيها على «الاستجابة لاحتياجات إسرائيل الاقتصادية والعسكرية». وكانت تلك إشارة واضحة إلىٰ أن استمرار الضغط على إسرائيل، ستكون له نتائج معاكسة من الناحية السياسية. وأدرك فورد وكيسينجر أن الاستراتيجية القابلة للتنفيذ، في ضوء هذه الحقائق، هي استئناف دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة[82]. وسوف يشارك

(80) Sheehan, Arabs, Israelis, p. 166; and Albin and Saunders, «Sinai II,» p. 79.

(81) يشير أيضاً إلىٰ السياسة الأَمريكيَّة على أنها «منصفة».

(82) يقول Ford, Time to Heal, p. 287 إنه يرحب علناً بالخطاب الوارد إليه من أعضاء مجلس الشيوخ، ولكن «في الحقيقة فإن هذا الخطاب أزعجني. فقد ادعى الشيوخ أن الخطاب كان تلقائياً، ولكن لم يكن لدي أدنى شك في أنه جاء بإيعاز من إسرائيل. لقد زودنا إسرائيل لسنوات طوال بكميات هائلة من المساعدات العسكرية والاقتصادية دون أن نطلب منها مطلقاً شيئاً في المقابل».

فورد بنفسه في مباحثات مع السَّادات ورابين لاستطلاع احتمالات الاتِّفاق. وساعد السَّادات في تحسين الجو بإعلان غير متوقع عن إعادة فتح قناة السويس في الخامس من حزيران/ يونيو، وبمدّ الأجل الممنوح لقوة الطوارىء التابعة للأُمم المتَّحدة. وبدا أن الرئيس المصري يريد التوصل إلىٰ اتِّفاق.

وفي الأول والثاني من حزيران/ يونيو، التقى الرئيس فورد بالسَّادات للمرة الأولى في سالزبورغ. وسرعان ما توافق الرجلان، وشعر كل منهما بالراحة في حضور الآخر والتحدّث بسهولة معه. وطالب السَّادات ببيان عام من جانب واحد، بوجوب انسحاب إِسرائيل إلىٰ خطوط 1967. ولكن فورد تردّد، مكرِّراً بدلاً من ذلك التزام نيكسون الشخصي في العام السابق بالعمل من أجل هذا الهدف[83]. ثم استطلع فورد استعداد السادات للقيام بمحاولة أخرى، للتوصل إلىٰ اتِّفاقية محدودة في سيناء. وكان السَّادات مستعداً لذلك، ولكن شروطه ما تزال هي نفسها كما كانت في السَّابق: أن تتخلَّى إِسرائيل عن الممرَّات وحقول النفط وألا تطالب بإنهاء حالة الحرب. وظل السَّادات يرفض فكرة احتفاظ الإِسرائيليين بمحطة الاستطلاع في أم خشيبة، ولكنه أعلن قبوله بالوجود الأَمريكي هناك[84]. وكانت فكرة وجود قوة عسكرية أَمريكيَّة في المنطقة العازلة قد أثيرت من قبل في الربيع الماضي، إلاَّ أن كيسينجر لم يكن متحمِّساً لها. ولكن سرعان ما أخذت تبرز فكرة وجود أَمريكي مدني كحل لواحدة من مشكلات المفاوضات[85].

---

(83) Sheehan, Arabs, Israelis, pp. 176-77.

(84) Golan, Secret Conversations of Kissinger, p. 59; and Ford, Time to Heal pp. 290-91.

(85) يقول Ford, Time to Heal, p. 291 إنه قدم أيضاً للسادات كميات كبيرة من المساعدات الاقتصادية (800 مليون دولار) وطائرات نقل «سي ـ 130» وقد تم استبعاد المعدات العسكرية الهجومية نظراً لمعارضة إِسرائيل القوية.

سيناء 2

في الوقت الذي وصل فيه رابين إلىٰ واشنطن، لإجراء محادثات مع الرئيس فورد، والوزير كيسينجر في يومي 11 و12 حزيران/ يونيو، كان قرار الاستمرار في دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة قد اتخذ بصورة أساسية. فقد رُفضت بدائل جنيف، أَو التسوية الأَمريكيَّة ـ السوفييتية المفروضة، أَو التخلي عن جهود حفظ السَّلام جميعها. إذ شعر كل من فورد وكيسينجر أن الوضع في الشرق الأَوسط يتطلّب تقدّماً دبلوماسياً مستمراً. وكما تبين في بداية عام 1974 فقد كانت الوساطة الأَمريكيَّة هي أفضل وسيلة لتحقيق هذا التقدّم. وإذا لم يتم تحقيق تقدّم نحو تسوية في غضون الأشهر القليلة القادمة، فإن الولايات المتحدة قد لا تكون قادرة على إطلاق مبادرة جديدة حتى عام 1977. إذ أن عام 1976 هو عام انتخابات الرئاسة الأَمريكيَّة، ومن المؤكّد أن سياسة الشرق الأَوسط لن يكون أمامها فرصة المنافسة في الحملة الرئاسية للحصول على الاهتمام.

سأل فورد ـ الذي بات الآن شديد الانغماس في إدارة الدبلوماسيَّة العربية الإسرائيلية ـ رابين أن يكون أكثر تساهلاً في المفاوضات وضغط من أجل انسحاب إسرائيلي إلىٰ خط جديد يقع شرقي سفوح الممرَّات. وكان رابين متلهفاً على وضع حد للمواجهة المؤلمة والمكلفة مع الولايات المتحدة[86]. وكان رفضه لمطالب كيسينجر في شهر آذار/ مارس، قد أسهم كثيراً في رفع مكانته داخل إسرائيل، وبالتالي فهو يستطيع الآن التفاوض بمزيد من الثقة. وهكذا تم رسم خط جديد لإثبات حسن النوايا لدى إسرائيل، وهو ما اعتبر خطوة متواضعة في الاتجاه الصحيح. وقابل فورد ذلك بالوعد بأنَّه بعد تحقيق الاتِّفاقية المرحلية التالية بين مصر وإسرائيل «يمكن متابعة التسوية الشاملة بطريقة

(86) كيسينجر، مرجع سبق ذكره، ص 441 ـ 242 يقول إن رابين قدم مطالعة استراتيجية مثيرة للإعجاب، يوضحها بالتفصيل في الصفحات 1095 ـ 1097.

منظمة ومدروسة، ولن يستدعي الأمر عند ذلك أن تتقدَّم الولايات المتحدة باقتراح شامل من جانبها، وإذا رغبت في ذلك مستقبلاً، فإنَّها ستبذل كل جهد لتنسيق مقترحاتها مع إسرائيل، لتجنّب طرح مقترحات لا تراها إسرائيل مُرضية»[87].

وعلى الرغم من هذه التأكيدات من جانب فورد، فإن رابين لم يستطيع الحصول على تفويض من مجلس الوزراء بتقديم تنازلات. وبعد أسبوع كان مضطراً إلىٰ العودة إلىٰ الاقتراح الإسرائيلي السابق، الذي يقضي بالانسحاب إلىٰ منتصف الممرَّات[88]. ومرَّة أُخرى غضب فورد وكيسينجر من رابين بسبب عدم مرونته وعدم لباقته الظاهرتين.

خلال الأسابيع الستة التالية، بقي كيسينجر في واشنطن، فيما كانت المواقف المصريَّة والإسرائيلية يجري تنقيحها وتبادلها من خلاله. وفي وقت ما من النصف الثاني من حزيران/ يونيو، وجد الإسرائيليون على ما يبدو أنه سيكون من المستحيل الحصول على التنازلات السياسية المبتغاة من السَّادات، وأنه من غير المرغوب فيه معارضة الولايات المتحدة إلىٰ ما لا نهاية. فإذا كانت مصر لا تريد اتِّفاق سلام فعلى إسرائيل على الأقل أن تساوم الولايات المتحدة على قضايا تتعلَّق بأمن إسرائيل. وإذا كان الأَمريكيون يريدون هذه الاتِّفاقية بإلحاح فعليهم أن يدفعوا الثمن. ولسوف توافق إسرائيل على الانسحاب إلىٰ

---

(87) خطاب فورد إلىٰ رابين أول أيلول/ سبتمبر 1975 يشير إلىٰ اجتماعهما في 12 حزيران/ يونيو 1975، نشر مجدداً في Michael Widlanski, ed., Can Israel Survive a Palestinian State? (Jerusalem: Institute of Advanced Strategic and Political Studies, 1990), pp. 120-21 وحسب كتاب Albin and Saunders, «Sinai 11», p. 92 فإن فورد أخبر رابين أنه يميل إلىٰ طرح خطط أَمريكيَّة.

(88) Golan, Secret Conversations of Kissinger, p. 245; and Terence Smith, «Israel Offers Compromise to Egyptian Sinai Accords,» New York Times, June 25, 1975, p. 1. Memoirs, p. 267 أنه تم إرسال الخريطة المقترحة والتي وافق عليها فريق التفاوض الإسرائيلي إلىٰ مصر حيث رفضت.

المنحدرات الشرقية للممرّات، على أن تحتفظ بالسيطرة على مرتفعات تلك الممرّات. ونزولاً عند إلحاح وزير الدفاع بيريز، سعت إسرائيل أيضاً إلىٰ تحويل المنطقة العازلة بين الجانبين، إلىٰ حاجز حقيقي يحول دون هجوم عسكري مفاجيء، وذلك بمرابطة مدنيين أمريكيين هناك لتشغيل محطات الإنذار المبكر. كما يمكن استخدام الأمريكيين كغطاء، لاستمرار الإسرائيليين في استخدام محطة الاستطلاع الاستخباراتي. وإذا رفض السَّادات فبوسع الأمريكيين أن يعرضوا عليه بناء محطة مماثلة له.

وكان السَّادات بدوره مستعداً لمزيد من التعاون. فهو سيوافق على تجديد سنوي ثلاث مرات لولاية قوَّات الأُمم المتَّحدة، والاستخدام الإسرائيلي المستمر لمحطة الاستطلاع، مشترطاً إعطاءه محطة مماثلة في مواجهة الخطوط الإسرائيلية. كما وافق على فكرة تخفيف المقاطعة المفروضة على بعض الشركات المتعامِلة مع إسرائيل، ووعد بتخفيف لهجة الدعاية المعادية لها، فضلاً عن استعداده لنشر الجانب الأعظم من شروط الاتِّفاق.

بقي على الولايات المتحدة وإسرائيل، أن تتوصلا إلىٰ تفاهم بينهما على الالتزامات الأمريكيَّة الضرورية، لكسب موافقة إسرائيل على اتِّفاقية جديدة. وفي أوائل تموز/ يوليو، التقى دينيتز مع كيسينجر في «الجزر العذراء» لتقديم الرزمة الكاملة من المقترحات والمطالب الإسرائيلية[89]. وبالإضافة إلىٰ وعد بتقديم مساعدة مقدارها 2 بليون دولار، فقد وافقت الولايات المتحدة على نبذ فكرة تحقيق خطوة مرحلية على الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية، وعلى أن تكون التغييرات التي يمكن توقّعها في مرتفعات الجولان في مرحلة تالية، مجرد تغييرات «تجميلية». كما طلبت إسرائيل أيضاً التزاماً واضحاً، بأن تحول

---

(89) Golan, Secret conversations of Kissinger, p. 248 وإن كان قد أخطأ في تحديد تاريخ الاجتماع بأنه كان في مطلع آب/ أغسطس Bernard Gwertzmn, «Kissinger Visited by Israeli Envoy for Secret Talks,» New York Times, July 4, 1975, p. 1.

الولايات المتحدة دون تدخّل عسكري سوڤييتي في الشرق الأَوسط[90].

في غضون الأسابيع القليلة التالية، جرى مزيد من المناقشات حول هذه النقاط وغيرها[91]. وفي الوقت الذي غادر فيه كيسينجر إلىٰ إسرائيل في 20 آب/ أغسطس، كانت الاتّفاقية في متناول اليد. واقتصرت الموضوعات التي كانت ما تزال مطروحة على بساط البحث على الموقع المحدّد للخط الإسرائيلي، ومستويات المساعدة الأَمريكيَّة، والجوانب الفنِّيَّة للوجود الأَمريكي المدني في الممرَّات.

استقُبل كيسينجر في إسرائيل بعداء لا سابق له، وخاصة من جانب أحزاب المعارضة اليمينية، واعترضه المتظاهرون في كل مكان حلّ فيه. ومع هذا فإن مباحثاته مع القيادة كانت تتقدَّم. فقد أراد رابين هذه المرة الحصول على اتِّفاق. استمر كيسينجر في إخفاء مخاوفه من الوجود الأَمريكي في سيناء، والذي أصبح الآن عنصراً مهماً في الصفقة الإسرائيلية، ولكنه كان مستعداً

---

(90) يشير Albin and Saunders, «Sinai 11», p. 86 إلىٰ أن إسرائيل كانت شديدة الحرص على الحصول على مزيد من المساعدات العسكرية لتمويل برنامج التحديث العسكري لديها الذي يسمى «ماتمون ـ ب».

(91) التقى رابين وكيسينجر في بون في 12 تموز/ يوليو، وبعدها أجاز مجلس الوزراء الإسرائيلي موقفاً تفاوضياً جديداً. انظر «Arab Report and Record. July 1-15, 1975, p. 401; Terence Smith,» U. S. Is Considering Proposal That It Man Posts in Sinai,: New York Times, July 13, 1975, p. 1 and Kathleen Teltsch, «Kissinger Warns Majority in UN on U. S. Support,» New York Times, July 15, 1975, p. 1 وجاء رد مصر في 21 تموز/ يوليو، إلاَّ أن إسرائيل رفضته في 27 تموز/ يوليو حيث قدمت وقتها موقفاً «نهائياً بصورة قاطعة» لكيسينجر الذي نقله إلىٰ السادات عن طريق آيلتس في 31 تموز/ يوليو. وقد وصل الرد المصري إلىٰ كيسينجر في بلغراد يوم 3 آب/ أغسطس. وبحلول 7 آب/ أغسطس كان دينتيز قد رد بالموقف الإسرائيلي. وخلال الأيام القليلة التالية حدث تبادل آخر للآراء. وفي منتصف آب/ أغسطس كان مسؤولو الولايات المتّحدة وإسرائيل قد استكملوا وضع مسودة للاتّفاقية. وهنا أصدر فورد تعليماته لكيسينجر بالقيام برحلة أخرى إلىٰ الشرق الأَوسط لوضع تفاصيل الاتّفاقية.

لمتابعة الفكرة. وبدا السَّادات مستعداً لقبول هذا الشرط، ولكن بقيت هناك بعض الاعتراضات حول الموقع الدقيق للخط[92].

وفي 25 آب/ أغسطس كان كيسينجر، يعمل مع الإسرائيليين على صياغة مشروع الاتِّفاقية. وبدأت إسرائيل تلين موقفها تدريجياً حول خط الانسحاب من ممر الجدي. وكان الأمر يتطلب مناقشات أوسع تفصيلاً حول تحديد حجم القوَّات والوجود الأَمريكي. وفي جلسة عُقدت في القدس، واستمرت دون توقّف من الساعة 9,30 مساء من يوم 31 آب/ أغسطس وحتى الساعة السادسة من صبيحة اليوم التالي، وضعت الولايات المتحدة وإسرائيل اللمسات الدقيقة في العلاقات العسكرية الثنائية بينهما، والتطمينات بشأن إمداد إسرائيل بالنفط، والحاجة إلىٰ التشاور في حالة التدخّل العسكري السوفييتي في الشرق الأَوسط. وكانت إسرائيل مستاءة من الصياغة الضعيفة الخاصة بالتدخّل السوفييتي، وفيما عدا ذلك كسبت قائمة متميِّزة جداً من الالتزامات الأَمريكيَّة. وفي وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، وقَّعت مصر وإسرائيل بالأحرف الأولى نصّ الاتِّفاقية، وتم التوقيع رسمياً في جنيف في 4 أيلول/ سبتمبر 1975.

وخلافاً لاتِّفاقية كانون الثاني/ يناير لعام 1974 قوبلت اتِّفاقية سيناء ـ 2 بارتياح، ولكن بدون حماسة حقيقيَّة كبيرة من قِبل أطراف المفاوضات. وعارض الكثيرون في إسرائيل والعالم العربي الاتِّفاقية بعنف، وإن كانت أسباب تلك المعارضة مختلفة كلياً.

جاءت الاتِّفاقية جزئياً على غرار اتِّفاقيات فكّ الاشتباك السابقة[93]. فقد

---

(92) Sheehan, Arabs, Israelis, p. 184.

(93) يمكن الاطلاع على نص الاتِّفاقية في Department of State Bulletin, vol. 73 (September 22, 1975) pp. 466-70 وقد تم نشر الجزء السري من الاتِّفاقية «U. S. Documents Accompanying the Sinai Accord,» New York Times, Septemver 17, 1975, p. 4, and «U. S. Israeli Pact of Geneva,», New York Times, September 18, 1975, p. 16 كما قامت وزارة الخارجيَّة بنشر الخريطة.

التزم الفريقان بحل النِّزاع القائم بينهما بالطُّرق السلميَّة، وعدم اللجوء إلىٰ التهديد أَو استخدام القوّة، وبأن تواصل الأُمم المتَّحدة مهماتها، وتحدّدت خطوط الانتشار العسكري لكل من الجانبين على الخريطة. وسمحت مصر بأن تمر في قناة السويس الشحنات الإسرائيلية غير العسكرية، بعد أن أُعيد فتح قناة السويس في شهر حزيران/ يونيو السَّابق. وتظل الاتِّفاقية سارية المفعول إلىٰ أن تحل محلها اتِّفاقية جديدة.

أُرفق بالاتِّفاقية ملحق تفصيلي يتناول الانتشار العسكري والرقابة الجوية. وبناء على إصرار السَّادات، زاد حجم القوَّات المسموح بوجودها في المنطقة المحددة في الاتِّفاقية قليلاً عن تلك القوَّات المسموح بها في اتِّفاقية سيناء ـ 1 لعام 1974؛ إذ وصل إلىٰ 8 آلاف رجل في ثماني كتائب، و75 دبابة، و72 قطعة مدفعية قصيرة المدى. ولم يسمح لأي من الطرفين بوضع أَسلحة في مناطق تستطيع منها الوصول إلىٰ خطوط الطرف الآخر.

كذلك تحددت بالتفصيل، الترتيبات الخاصة بأطقم التشغيل والإشراف الأَمريكيَّة الخاصة بأنظمة الإنذار المبكر في المناطق العازلة. وتقرَّر أن يسمح لمصر وإسرائيل، بالاحتفاظ بما لا يزيد عن 250 فرداً من الفنيين والإداريين في محطتي المراقبة التابعة لكل منهما. كما سيشغل المدنيون الأَمريكيون ثلاث محطات مراقبة أخرى، ويقيمون ثلاث محطات أخرى للاستشعار بدون أفراد. وكان استعداد إسرائيل لتطبيق بنود الاتِّفاقية، مرهوناً بموافقة الكونغرس الأَمريكي على الدور الأَمريكي في سيناء. كما وقَّعت الولايات المتحدة خمس اتِّفاقيات سرِّيَّة، أربع منها مع إسرائيل، وواحدة مع مصر. وعالجت مذكرة تفاهم أَمريكيَّة ـ إسرائيلية ـ من ستة عشر بنداً ـ المساعدات العسكرية، وإمدادات النفط، والمساعدة الاقتصادية وبنوداً سياسية متعددة. ووافقت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، على أن تكون الخطوة التالية مع مصر اتِّفاقية سلام نهائي. وينطبق الشيء ذاته على الجبهة الأردنية. كما وافقت الولايات المتحدة على التشاور فوراً مع إسرائيل في حال أي تهديد من «قوة عالمية»، أي الاتّحاد

السوفييتي. وفي ملحق خاص بالأَسلحة قدمت الولايات المتحدة التزاماً مبهماً بـ «الاستجابة الإيجابية» لمطالب إسرائيل من طائرات ف ـ 16، وصواريخ بيرشينغ ذات الرؤوس التقليدية[94]. وبذا يكون التجميد الذي فُرض على اتّفاقيات السِّلاح الجديدة قد رفع، والذي بدأ في شهر نيسان/ أبريل الماضي.

جرى التوقيع على مذكرة خاصة تتعلّق بجنيف، تضمَّنت سياسة الولايات المتحدة إزاء الفلسطينيين: لا اعتراف بمنظمة التحرير، ولا تفاوض معها حتى تعترف بحق إسرائيل في الوجود، وتقبل بقراري الأُمم المتَّحدة 242 و338[95]، وسوف تنسِّق الولايات المتحدة مع إسرائيل بعناية في جنيف، وتوافق على أن تبقى المفاوضات على صعيد ثنائي. وبالإضافة إلىٰ ذلك كتب فورد رسالة إلىٰ رابين يقول فيها: «لم تحدّد الولايات المتحدة موقفاً نهائياً بشأن الحدود (بين إسرائيل وسورية). وعندما تفعل ذلك فإنَّها ستعطي وزناً كبيراً لما تراه إسرائيل من أن أي اتّفاقية سلام مع سورية، لا بد أن تتضمّن بقاء إسرائيل في مرتفعات الجولان. ولقد أوضحت رأيي في هذا الصدد في محادثاتنا التي جرت في 13 أيلول/ سبتمبر من عام 1974»[96].

أمَّا بالنسبة لمصر فقد ألزمت الولايات المتحدة نفسها بمجرد المحاولة، لإجراء مزيد من المفاوضات بين سورية وإسرائيل، وتقديم المساعدة لشبكة الإنذار المصريَّة المبكرة في المنطقة العازلة، والتشاور مع مصر بشأن أية انتهاكات إسرائيلية للاتّفاقية.

---

(94) عمل كيسينجر على إطلاع السادات على معظم التعهدات التي قدمها لإسرائيل لكنه لم يشر إلىٰ موضوع صواريخ بيرشنج. وهذا ما أغضب المصريين، وأثار لديهم الشكوك حول ما إذا كانت هناك اتفاقات سرية أخرى لم يشر كيسينجر إليها.

(95) جاء في Albin and Saunders, «Sinai 11,» p. 100 أن الإسرائيليين سعوا إلىٰ استخدام لهجة أكثر قوة. وقد قام فريق التفاوض الأمريكي في ذلك الوقت بتفسير هذا الالتزام على أنه يفسح الطريق أمام إجراء اتصالات بمنظّمة التحرير الفلسطينية.

(96) ظل هذا الخطاب سراً حتى تم نشره في Widlanski, ed., Can Israel Survive? PP. 120-21.

ردود الفعل على اتّفاقية سيناء ـ 2

كان كيسينجر في لحظات تفاؤله، يبرِّر دبلوماسيَّة الخطوة ـ خطوة باعتبارها عملية تكتسب أطراف المفاوضات من خلالها الثقة، وتصبح ملتزمة بتحقيق نتائج، تحددها قوة دفع صنع السَّلام لحل القضايا التي كانت تبدو مستعصية من قبل. بيد أن اتِّفاقية سيناء ـ 2 كانت أقرب إلىٰ تأكيد رؤيته المتشائمة للنزاع العربي ـ الإسرائيلي. فالقضايا كانت بالغة التعقيد، والعواطف الضاربة الجذور، ترى أن السَّلام بين الجانبين لا يمكن التوصّل إليه في هذا الجيل. ومع أن بعض الاتِّفاقيات يمكن تحقيقها، إلاَّ أنَّها على أفضل تقدير ستكون متواضعة وغير كاملة، وأنه يتحتم على الدبلوماسي الراغب في التوسّط بين إسرائيل والعرب، أن يرضى بالإنجازات الصغيرة، وهي على الأقل أفضل من لا شيء. وإن الاستقرار في المنطقة، والحد من فرص الحرب، ورفع الحظر عن النّفط أفضل كثيراً من تجدّد القتال، والمواجهة بين الدول العظمى. لقد بدت مصر ملتزمة بنهج معتدل.

لم يَسعَ كيسينجر متعمداً لإثارة الشقاق بين العرب. فهو، على العكس من ذلك، اهتم كثيراً بأن تواصل العربية السعودية تأييدها لسياسة السَّادات. واعترف بأن سورية تضطلع بدور حيوي في السياسات العربية، وأراد بصدق اجتذاب سورية نحو تسوية معتدلة مع إسرائيل[97]. إلاَّ أن الظرف الموضوعي حكم على جهوده بالإخفاق. فالجولان ليس كسيناء، وتحقيق خطوة ثانية هناك، سيكون صعباً، إلاَّ إذا كانت إسرائيل على استعداد للتخلي عن المستوطنات التي أُنشئت

(97) في 29 أيلول/ سبتمبر 1975 تحدث كيسينجر إلىٰ المندوبين العرب بالأُمم المتَّحدة حيث قال إن الولايات المتّحدة على استعداد للعمل من أجل خطوة سورية إسرائيلية ثانية، إذا كان ذلك مطلوباً، وأن الولايات المتّحدة سوف تبحث سبل العمل من أجل التوصل إلىٰ تسوية شاملة، وأنه سيبدأ في استكمال أفكاره حول كيفية تحقيق المصالح المشروعة للشعب الفلسطيني.
«Furthering Peace in the Middle East»,: Toast by Secretary Kissinger Department of State Bulletin, vol. 73 (October 20, 1975), pp. 581-84.

خلف خطوط وقف إطلاق النَّار بعد 1967. وقد أظهرت إِسرائيل قُدرة فائقة في الصمود أمام الضغوط الأَمريكيَّة، والحصول على ثمن باهظ مقابل الرضوخ في نهاية الأمر. فهل تساوي بضعة كيلومترات في الجولان ذلك الجهد؟ كان السَّادات يرغب في اتِّفاقية ثانية بشدة، فيما كان الأسد تعوزه الحماسة لمثل تلك الفكرة. وهو لم يرفض فكرة خطوة ثانية رفضاً قاطعاً، ولكنه أوضح أنه غير مستعد لدفع ثمن باهظ من أجلها. وبدلاً من ذلك أخذ يهاجم السَّادات لتخليه عن النضال ضد إِسرائيل، ويدعو إِلىٰ الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد جاءت اتِّفاقية سيناء ـ 2 لتطلق العنان لدينامية السياسة العربية. ولم يكن من الواضح ماذا يستطيع كيسينجر أن يفعل، بدون التخلي عن سياسة الخطوة ـ خطوة، ليحول دون التباعد بين مصر وسورية.

ولما كانت سنة الانتخابات 1976 قد بدأت، بدا من الواضح أن الرئيس فورد سوف يغرق في شؤون السياسة الداخلية؛ فقد كان موقفه داخل حزبه محفوفاً بالمخاطر. ولم يكن ترشيحه في مؤتمر الحزب الجمهوري مؤكداً. وكان رونالد ريغان، حاكم كاليفورنيا السابق، يمثِّل تحدياً قوياً مع تأييد من معظم العناصر المحافظة في الحزب. وظهر كيسينجر وسياسته الخارجية كعنصر من عناصر حملة الجمهوريين المؤيدين لريغان، وحملة الديموقراطيين أيضاً. ومع أن الشرق الأَوسط لم يكن من قضايا الحملة، فإن الانتقادات التي وُجِّهت إِلىٰ فورد وكيسينجر، قد دفعتهما نحو موقف أكثر تشدّداً تجاه الاتّحاد السوفييتي، وهو ما تبيّن من خلال السياسة الأَمريكيَّة في أنغولا، وحال دون مبادرة جديدة على الساحة العربية ـ الإِسرائيلية.

ولكن على الرغم من ضغوط السنة الانتخابية، فقد استمر الرئيس فورد في محاولة تحسين العلاقات الأَمريكيَّة ـ المصريَّة[98]. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1975 كان الرئيس السَّادات أول زعيم مصري يقوم بزيارة رسمية

(98) كيسينجر مرجع سبق ذكره، ص 454 يعطي فورد مصداقية كبيرة بسبب «إصراره» على إنجاز السَّلام المصري ـ الإِسرائيلي.

إلىٰ الولايات المتحدة. وخلال الزيارة طلب السَّادات مساعدة أَمريكيَّة اقتصادية وعسكرية. وتلا ذلك نقاش معقّد بين الكونغرس والإدارة، مع تخفيض فورد المعونة لإسرائيل، في السنة المالية 1977، من 2,25 بليون دولار إلىٰ 1,8 بليون دولار، وحثّ الكونغرس على الموافقة على بيع مصر ست طائرات نقل من طراز «سي ـ 130». ولم يكن الكونغرس يحبِّذ زيادة مستوى المساعدة إلىٰ إسرائيل فحسب، بل كان يرى أن إسرائيل ينبغي أن تتلقَّى منحة إضافية لتغطية «ربع السنة الانتقالي» من شهر تموز/ يوليو 1976 وحتى تشرين الأول/ أكتوبر 1976، بداية السنة المالية الجديدة[99].

في منتصف آذار/ مارس 1976، اتخذ النظر في تقديم الأَسلحة إلىٰ مصر اتجاهاً جديداً، عندما أعلن الرئيس السَّادات إلغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتّحاد السوفييتي، والتي تبلغ مدتها 15 عاماً. وإزاء المعلومات التي توفرت لمحلِّلي وكالة المخابرات المركزية حول امتلاك إسرائيل ما بين 10 ـ 20 سلاحاً نووياً جاهزاً للعمل[100]، انحسرت المعارضة لبيع السِّلاح إلىٰ مصر، وإن كان الكونغرس قد فضَّل أن تجري المبيعات كصفقات تجارية بحتة. وحصلت مصر بالفعل على طائرات بقيمة 50 مليون دولار، كما تلقت إسرائيل مساعدة إضافية تزيد قيمتها على ذلك بضعة أضعاف.

---

(99) كان مستوى المساعدات لإسرائيل ومصر سيصبح كبيراً بالطبع حتى دون سيناء الثانية. ويتعيّن تقدير التكاليف الحدية لسيناء الثانية ببضع مئات من ملايين الدولارات وليس بضعة مليارات. للإطلاع على تقرير عن مناقشات الكونجرس حول اتفاقية سيناء الثانية، انظر Bernard Gwertzman, «Senate Unit Asks Word from Ford,» New York Times, October 1, 1975, p. 14 وقد صوت مجلسا النواب والشيوخ لصالح وضع الفنيين الأمريكيين في سيناء بأغلبية كبيرة، وذلك في 8 و9 تشرين الأول/ أكتوبر على التوالي. ويوضح فورد في Ford, Time to Heal, pp. 308-09 المبرر الذي استند إليه في زيادة المساعدات لإسرائيل: «إذا قدمنا المعدات الثقيلة فإننا نستطيع أن نقنع الإسرائيليين بأنَّهم في أمان. وحينئذ ربما يكونوا مستعدين لقبول بعض المخاطر في البحث عن السلام.

(100) Bernard Gwertzman, «Israel Indicates a Cool Reaction to Egypt's» New York Times, March 15, 1975, p. 1.

واصل فورد طوال الجزء الأول من حملته الانتخابية، اتخاذه لخط متشدِّد بصدد مساعدة إسرائيل، وكذلك العمل على معارضة مواقف إسرائيل بشأن المستوطنات في المناطق المحتلة على صعيد الأُمم المتَّحدة. ولكن في الخريف، وحينما أخذ حاكم جورجيا، جيمي كارتر، المرشح الديمقراطي، يحظى بتقدّم هائل في استطلاعات الرأي، بدأ فورد يستغل أوراقه كمؤيد قوي لإسرائيل. وفي الشهر الأخير من الحملة الانتخابية أصبح الشرق الأَوسط موضوعاً للمناقشة بين حين وآخر، حيث حاول كل من فورد وكارتر أن ينافس الآخر على أنه الصديق الأفضل لإسرائيل، وألمح كارتر بشكل خاص إلىٰ أنه سيتخذ إجراء بالغ الشدة ضد أي حظر للنفط العربي في المستقبل.

جاء انتصار كارتر المحدود في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 1976، ليحسم من سيكون الرئيس المقبل، ولكن لم يكن لدى الإسرائيليين، أَو العرب أية فكرة عن سياسات الرئيس المقبل. وتوقع كلا الجانبين مبادرات جديدة كما كان لدى كل منهما بعض الهواجس.

إرث كيسينجر

سيبقى تأثير هنري كيسينجر على السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة موضع جدل لا ينتهي. فالإنجازات التي يعزى الفضل فيها إليه، كان معظمها نتيجة للظروف أَو لما قام به آخرون من أعمال. ولكن كيسينجر سوف يُعتبر بلا شك، واحداً من أقوى وأنجح رجال الدولة الأَمريكيين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. أما كيف استطاع تحقيق هذا الموقع المرموق فهذه قصة في حد ذاتها، تكشف عن مواهب كيسينجر المشهورة كمحاور بيروقراطي وسياسي. بيد أن ميراثه الأكثر ديمومة يكمن في سياساته وما تتضمنه من مفاهيم.

بعد عدة بدايات خائبة، قام كيسينجر بوضع مقاربة متماسكة للنزاع العربي ـ الإسرائيلي بعد حرب تشرين/ أكتوبر 1973. وقد انطلق من المقدمة المنطقية التي تقول، إن الولايات المتحدة لا تحتاج إلىٰ أن تختار، ما بين سياسة موالية

للعرب أَو، أخرى موالية لإِسرائيل. والواقع أن العلاقة الأَمريكيَّة الخاصة بإِسرائيل، هي التي أجبرت العرب على التعامل مع واشنطن بدلاً من موسكو، عندما أصبح الأمر يتعلَّق بالدبلوماسيَّة. وبالتالي، إذا كان بالإمكان تقديم بديل للحرب فإن مصالح العرب، بعيداً عن عواطفهم، ستقودهم إِلىٰ التعامل مع الولايات المتحدة. ولذلك كان انتهاج عملية دبلوماسيَّة ذات مصداقية، مسألة أساسية لإضعاف النفوذ السوفييتي في الشرق الأَوسط. وهذا الرأي طرحه لا يبدو استثنائياً، بل لعله واضح، ومع هذا فهو كثيراً ما أُغفل، وأحياناً من جانب كيسينجر نفسه.

وكانت مساهمة كيسينجر الثانية في الدبلوماسيَّة الأَمريكيَّة في الشرق الأَوسط، هي تطوير طُرق تفاوضية نوعية موضوعة من أجل اتِّفاقيات محدودة ما بين العرب وإِسرائيل. وإذا كانت استراتيجية كيسينجر الرئيسية قد بدت تقليديَّة إِلىٰ حدّ ما، فإن مهاراته التاكتيكية كمفاوض ووسيط لا تجارى. في هذا المجال أفادته أصالته، وإحساسه بالتوقيت، وذكاؤه وشخصيته.

وقد أظهر كيسينجر من الناحية العملية، أن المفاوضات الناجحة تتطلَّب القدرة على تقسيم القضايا إِلىٰ أجزاء طيِّعة، ثم إعادة تجميعها بصورة خلاَّقة في اتِّفاقيات قابلة للتطبيق. كما أظهر أن التحكّم في التفاصيل ضرورة أساسيَّة للنجاح، مثلها مثل الإِحساس بمحيط الأشياء وظلالها. والجهد الدائب الرفيع المستوى، والذي يدعمه الرئيس هو النهج الأَمريكي الوحيد لمفاوضات يمكن أن تفضي إِلىٰ نتائج. وقد أظهر كيسينجر أن مثل هذا الجهد يمكن أن ينجح، كما أثبت صعوبة هذا النجاح أيضاً.

وأخيراً فقد ترجم كيسينجر عملياً إيمانه، بأن القوة والدبلوماسيَّة ينبغي أن تسيرا جنباً إِلىٰ جنب. فالولايات المتحدة لا يمكن أن تعتمد أبداً على القوة وحدها، أَو على المفاوضات وحدها في الشرق الأَوسط. ومحك حنكة رجل الدولة، يتجلَّى من خلال إيجاد التوازن الحرج بين الاثنتين. ولا بد من النظر

إلىٰ إمدادات السِّلاح إلىٰ العرب والإسرائيليين على أنَّها جزء من العمليَّة الدبلوماسيَّة، وليس كمسألة عسكرية بحتة. ومهما كانت المتاعب التي واجهت كيسينجر في تعامله مع هذا المبدأ، فقد رأى بوضوح أن الاعتبارات السياسية ترجح على الاعتبارات العسكرية في مثل هذه القرارات.

وأخيراً كان لدى كيسينجر نقطة عمياء بالنسبة للقضية الفلسطينية. كان يعرف أن هذه المشكلة لا بُدّ من مواجهتها في وقت من الأوقات. بل كانت تغريه فكرة التعامل مباشرة مع قيادة «المنظمة». ولكنه صرف معظم ديبلوماسيته نحو التغاضي عن هذه القضية الحاسمة، وتأجيل لحظة الحقيقة، وإضعاف جاذبية الحركة الفلسطينية، آملاً كل الوقت أن يظهر بديل ما.

ولعل كيسينجر كان سيستطيع مع مرور الوقت، وبحظ أفضل، ووجود رئيس قوي خلفه يسانده، المساعدة في إيجاد حلول مقبولة، لجميع هذه المشكلات التي لم تجد حلاً. ولكن هزيمة فورد أنهت حياة كيسينجر العامَّة، وتركت لإدارة كارتر المهمة التي لا تُحسد عليها وهي صياغة السياسة الأَمريكيَّة إزاء النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي.